THE LOST WORLD

أرثر كونان دويل

العالم المفقود

ترجمة: حسن السيد إبراهيم

الرواق للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

العَالَم المفقود

رواية مترجمة..

الكاتب: أرثر كونان دويل
ترجمة: حسن السيد إبراهيم

الفصل الأول

هنالك بطولات في كل مكان حولنا

كان والدها السيد (هنجرتون) أكثر الرجال قماءةً على سطح الأرض، أشعث الشعر، نادر العناية بهندامه، كل اهتماماته مُنصَبَّة حول شخصه السخيف، لو أنه بمقدور شيء أن يُنفِّرني مِن (جلاديس) فهو أن هذا الرجل سيصير حمايَ.

كان يؤمن من كل قلبه أني آتي هنا لثلاثة أيام كل أسبوع من أجل التمتع بصحبته، وخاصةً لسماع آرائه حول نظام المعدنين(1)؛ لأنه موضوع كان له سلطة فيه.

في هذا المساء مكثتُ لساعة أو أكثر أستمع لثرثرته عن الأموال سيئة المصدر التي تُدفع للخارج، والقيمة الرمزية للفضة، وانخفاض قيمة الروبية ومعدلات استبدال العملة.

- تصوَّر!

قالها بلهجة عنيفة متأثرة حتى كاد يبكي، ثم أكمل:

- هبْ أن كُلَّ المدِينين في العالم قرَّروا فجأة ردَّ ديونهم إلى أصحابها، تُرَى ما الذي سيحدث وقتها؟

أجبته بشفافية أنه لو حَدَثَ هذا لصِرْتُ أنا رجلًا محطمًا. وثب من مقعده والدهشة تعتلي وجهه، واستنكر تهكُّمي الدائم الذي يجعل حديثه معي عن أمر جدِّي ضربًا من المستحيل. ثم غادر الغرفة ليبدل ثيابه لحضور اجتماع ماسوني.

أخيرًا أصبحتُ وحدي برُفقة (جلاديس)، وحانت لحظة القدر!

طوال الأمسية وأنا مِثل الجندي الذي ينتظر الإشارة التي سترسل إليه مُحَمَّلة بالأمل؛ أمل بالنصر وخوف من الإخفاق يستولي على عقله.

جلست بشخصيتها الرقيقة المعتزة قُبالة الستارة الحمراء وعلى مبعدة عني، كم هي جميلة! وإلى أي مدى مُتحفِّظة؟

نحن أصدقاء، أصدقاء جيدون للغاية، لكني كنتُ عاجزًا عن تجاوز الزمالة التي أقمتُها مع أحد زميلاتي -المراسلات في الجريدة- بالطبع كانت هذه الصداقة صريحة تمامًا، عطوفة وقطعًا غير عادية.

كانت غرائزي كلها ترفض أن تكون امرأة ما صريحة للغاية وعلى راحتها معي. هذا ليس إطراء لرجل، خاصة عندما يبدأ الشعور الحقيقي بالحميمية وما يصاحبه من خجل وارتياب، إرثٌ من الأيام الشريرة؛ حيث كان العنف والحب وجهانِ لعملة واحدة.

خلاصة القول: إن النظرة الْمُتجنِّبة، والصوت المتعثر، والمظهر الفزع -هذه الأشياء، وليس النظرة الوقحة والردود الصريحة- هي العلامات الحقيقية للوَلَعِ.

فبالرغم مِن سني الصغيرة فإني تعلمتَ هذا القدْر وأكثر، أو أودعت في ذاكرتي العِرقية التي نَسميها (الغريزة).

(جلاديس) مُفعمة بالأنوثة، رغم أن البعض يقولون عنها إنها باردة جامدة فإن مثل هذا القول يُعَدُّ خيانةً. بشرتها دقيقة ناعمة برونزية اللون كأنها أنثى شرقية، شعرها أسود كريش الغراب، عيناها كبيرتان يكاد الموج ينساب منهما، شفتاها ممتلئتان ورائعتان؛ يمكنك بسهولة تمييز العاطفة بين طيات ملامحها، كل ما في الأمر أنني حزين وعاجز عن إيجاد السِّرِّ الذي يُشعل لهب هذه المشاعر.

مع ذلك يجدر بي فعل ما يشوقها ويسترعي نتباهها الليلة، ربما ترفضني، لكن أن أكون حبيبًا مرفوضًا خير من أخٍ مقبولٍ.

حملتني أفكاري بعيدًا عن مجلسنا مدة طويلة، كنتُ على وشك كسر سطوة الصمت الطويلة وغير المعتادة عندما حملقت فيَّ بعينيها السوداوينِ الواسعتينِ، هزَّت رأسها بزهوٍ، وزيَّنَتْ وجهها بابتسامة وقالت:

- أعلم ما تُخطِّط لقوله يا (نيد)، إنني أتمنى ألا تفعل؛ حتى تبقى الأمور لطيفة بقدر ما هي الآن.

حركتُ مقعدي قريبًا منها وتساءلتُ بدهشة بالغة:

- الآن، كيف حدستِ ما أنوي فعله؟

- لا تعرف النساء هذه الأمور دومًا؟ هل تظن أن هناك امرأة في العالم أخذها أحدهم على حين غرة؟ آه، يا (نيد)، صداقتنا جيدة وممتعة للغاية! لماذا تخطط لإفسادها؟! ألا تشعر بروعة حديث الشاب والشابة عندما يكون وجهًا لوجه كما تحدثنا الآن؟

- بلى أعلم يا (جلاديس)، كما ترين يمكنني التحدث بصراحة مع مدير المحطة.

- لا يمكنني تخيل كيف أُقحم ذلك المسئول في حديثنا؛ لكنه محبوب ويجعلنا نضحك.

- أقلُّها، هذا لا يرضيني، أنا أريد احتواءكِ بين يدي، وأن تكون رأسُكِ فوق صدري، وآه (جلاديس) أنا أريد..

نهضت عن كرسيها بعد أن رأت أمارات رغباتي مرتسمة على وجهي وقالت:

- لقد أفسدتَ كل شيء يا (نيد).

سكتَتْ بُرهة ثم استطردتْ:

- لقد كان الأمر طبيعيًّا وغاية في الجمال حتى دخلت فيه هذه الأشياء! إنه أمر مؤسِف، لم لا تستطيع السيطرة على نفسك؟

قلت لها بلهجة متوسِّلة:

- لم أكن أخطِّط لهذا، لكنها الطبيعة؛ إنه الحب...

- حسنًا، لربما اختلف الأمر لو تبادل الاثنان الحب، لكني لم أبادلك إيَّاه قط!

- لكن يجب عليكِ أنتِ، بجمال مثل جمالكِ، وروح مثل روحكِ، آه يا (جلاديس) لقد خُلقتِ من أجل الحب، يجب أن تُحبي!

- يجب على المرء الانتظار حتى يحدث هذا.

- لكن لم لا تحبينني يا (جلاديس)؟ هل مظهري هو السبب أم شيء آخر؟

تراجعت للوراء، مدَّت يدها -كم كان الموقف جميلًا وغاية في الكرم- لترْبتَ على رأسي كطفل صغير. نظرت مباشرةً إلى وجهي الحزين ومنحتني ابتسامة عذبة.

مضتْ ثوانٍ ثم قالت:

- الأمر ليس هكذا، أنتَ لستَ ولدًا مغرورًا بطبعه؛ لذا يُمكنني إخبارك بأن الأمر أعمق من هذا.

- شخصيتي إذن؟

أومأت برأسها بشدة.

- ما الذي يمكنني فعله لإصلاحها؟ اجلسي حتى ننهي حديثنا. لن تجلسي، حقًّا! حسنًا، لن أتحدث حتى تجلسي على مقعدك.

نظرت إليَّ نظرةَ ارتياب عجيب مشوب بالحيرة كان وقْعها على عقلي أكبر كثيرًا مِن ثقتها المنبعثة من القلب. كم يبدو الأمر بدائيًّا قاسيًا عندما تصير الأمور أبيض وأسود! ربما كان الأمر مجرد شعور خاصٍ بي. لكنها جلست على كُلِّ حال.

قلتُ لها:

- والآن أخبريني ما الخطب؟

أجابتني قائلة:

- إنني واقعة في حُبِّ رجل آخر!

كان هذا دوري لأقفز من مقعدي.

- إنه ليس شخصًا بعينه على وجه التحديد. قالتها مُفسِّرةً وضحكت للتعبير الذي ارتسم على وجهي وأكملت قائلة:

- الأمر مجرد فكرة، إنني لم أقابل رجلًا من النوع الذي أقصده.

- حدثيني عنه، كيف يبدو؟

- آه، إنه قد يُشْبِهُك كثيرًا.

- كيف تجرُئِين على قول هذا؟! حسنًا، ما الذي يَقْدِرُ على فعله ولا أقدرُ عليه؟ فقط قولي الكلمة، مثالي، نباتي، طيَّار، صُوفي، رجل خارق؟! سوف أُجَرِّب حظي فيهم جميعًا يا (جلاديس) لو أنكِ منحتني فكرة عما تُفَضِّلينَ.

ضحكت على مرونة شخصيتي وقالت:

- حسنًا، في المقام الأول، لا أظن أن رجلي سيتحدث بهذه الطريقة.

أمسكت عن الكلام حينًا ثم قالت:

- يجب أن يكون رجلًا صلبًا، صارمًا، لا يُكيِّف نفسه استنادًا إلى نزوة فتاة سخيفة، والأهم أن يكون قادرًا على التصرف والفعل، بإمكانه النظر إلى الموت وجهًا لوجه ولا يهابه، لديه خبرات عظيمة وتجارب غريبة، إنه ليس مجرد رجل يحبني بل أنا المجد الذي يسعى دائمًا للحصول عليه؛ لأن هذا سينعكس عليَّ وعليه، فكر في (ريتشارد برتون)(2)! عندما طالعتُ حياة زوجته عنه بِتُّ قادرةً على فَهْم حُبِّها! السيدة (ستانلي)، هل قرأت يومًا الفصل الأخير الرائع من هذا الكتاب الذي يتحدث عن زوجها؟ هذا هو نوع الرجال الذي يحصل على حب المرأة وروحها، فيما بعد يكون أكثر وليس أقل بسبب حبها الذي يُبجِّله كل العالم. كونه مُلْهِمًا لأفعاله النبيلة.

بَدَتْ جميلة للغاية في حماسها المتَّقِد الذي رأيته متخفيًا أسفل كلماتها، كَبَحْتُ زمام نفسي وأستمررتُ في المناقشة قائلًا:

- حسنًا ليس جميعنا (ستانلي) و(برتون)، بالإضافة إلى أن الجميع لم يحصلوا على الفرصة ليكونوا كذلك. على الأقل أنا لم أَحْظَ بالفرصة قَطّ، لكن لو أنها أتت لاقتنصتها من فوري.

- لكن الفرص في كل مكان حولنا. إن علامة نوع الرجل الذي أقصده أنه يصنع فرصته الخاصة بيديه. لا يمكنك منعه. إنني لم أقابله أبدًا في حياتي لكن لو حدث وقابلتُه فسأعرفُه على الفور. هنالك بطولات في كل مكان حولنا تنتظر مَنْ يفعلها؛ إنها مِن أجل الرجال حتى يقوموا بها وعلى النسوة ادِّخار حبهن ليكون مكافأة لمثل هؤلاء الرجال. انظر إلى الشاب الفرنسي الذي ركب منطادًا الأسبوع الماضي، كان هناك عاصفة هوائية لكن لأنه أعلن مُسبقًا عن موعد رحيله التزم بكلمته وخاض في العاصفة. أحاطت به الرياح لألف وخمسمئة ميل طوال الأربع وعشرين ساعة، وسقط في وسط روسيا. هذا هو نوع الرجال الذي أتحدثُ عنه، فكر في المرأة التي يحبها وكيف يحسدنها الأخريات! هذا ما أود أن أكون عليه؛ أَحْسَدُ على رجلي.

- سأفعل هذا لإرضائك.

- لكنك لا يجب أن تفعل هذا لإرضائي فقط؛ يجب أن تفعل هذا لأنكَ لا تقدر على منع نفسك؛ لأن هذه هي طبيعتك؛ لأن الرجل داخلك يصرخ من أجل التعبير عن بطولته. الآن، عندما وصفت انفجار منجم الفحم في (ويجان) الشهر الماضي، هل كان بإمكانك النزول ومساعدة هؤلاء الناس على الرغم من الرطوبة الخانقة؟

- لقد فعلتُ.

- أنت لم تَبِحْ بهذا قبلًا.

- لم يكن شيئًا يستحق العناء.

نظرت إليَّ باهتمام أكبر وقالت:

- لم أكن أعلم، هذه شجاعة منك.

- لقد اضطررت إلى فعل هذا، إذا أردت كتابة خبر جيد فعليك أن تكوني في المكان الذي حدث به الأمر.

- يا لَهُ من دافع مبتذل يُزيل كل الرومانسية من الأمر. لكن مع ذلك مهما كان دافعك، أنا سعيدة لأنك ذهبت لهذا المنجم.

نهضتْ وأعطتني يَدَهَا، مع كل هذه العذوبة والاحترام لم يكن بمقدوري إلا أن أُقَبِّلها وأُقَبِّلها.

- أجسر على القول، إنني مجرد امرأة حمقاء تسيطر عليها خيالات مراهقة، لكن الأمر حقيقي بالكامل بالنسبة إليَّ، باتت هذه الخيالات جزءًا من روحي لا أستطيع التصرف حياله، لو كُتب لي في يوم من الأيام أن أتزوج لتزوجت رجلًا شهيرًا يعرفه الكُلّ.

هتفتُ قائلًا:

- ولم لا تفعلين؟ النساء مثلُك هُنَّ مَنْ يبعثن روح الشجاعة في الرجال، أعطني فرصة وشاهدي إن كنتُ سأغتنمها أم لا! علاوةً على ذلك كما قلتِ الرجال يصنعون فرصهم الخاصة ولا ينتظرون حصولهم عليها. تأملي (كلايف) مجرد كاتب، لكنه غزا الهند بمساعدة (چورچ)! سأفعل شيئًا ما في هذا العالم.

ضحكت على حرارة دمائي الأيرلندية وقالت:

- لِمَ لا؟ أنت تملك كل ما يستطيع رجل الحصول عليه؛ الشباب، الصحة، الشدة، التعليم، القوة. لقد كنتُ أسفة لأنني تكلمت، أما الآن فأنا سعيدة -غاية في السعادة- لأن كلماتي أيقظت داخلك هذه الأفكار.

- حسنًا، وإذا فعلتُ...

اتكأت يدها الغالية على شفتي مثل المخمل الدافئ وقالت:

- ولا كلمة أخرى أيها السيد! يجب أن تكون في المكتب من أجل واجبك المسائي منذ نصف ساعة خلت؛ لكني لم أقدر على تذكيرك. ربما يومًا ما، عندما تفوز بمكانتك في العالم سوف نتحدث عن هذا الموضوع ثانية...

هكذا -في مساء نو□مبر الضبابي هذا- وجدتُ نفسي متوجهًا إلى ترام (كامبرويل) وقلبي يتوهج داخلي، وكُلِّي عزم على ألا ينقضي يوم آخر دون صنيعة تجعلني جديرًا بقلب فتاتي. لكن مَنْ؟! مَنْ

في كل هذا العالم الواسع يقدر على تصور العمل المذهل أو الخطوات الغريبة التي أوصلتني إليه وما لحق بذلك من أحداث؟!

وبعد كُلِّ هذا يبدو أن هذا الفصل الافتتاحي لا علاقة له بقصتي، ومع ذلك ما كانت القصة لتحدُث لولاه، عندما يواجه الرجل العالم بفكرة أن البطولات في كل مكان حولنا، ورغبة البقاء الكامنة في قلبه عندها ينفصل كما فعلت أنا ويغامر بالخروج إلى القفر الرائع، أرض الشفق؛ حيث تكمن المغامرات والمكافآت العظيمة.

لِهذا تجدني جالسًا في مكتبي بجريدة (ديلي جازيت) التي أعمل بها صحفيًّا، في هذه الليلة بالذات كنتُ أُفتِّش بلهفة عن عملٍ ما -أي عمل- يجعل (جلاديس) خاصتي فخورة بي.

هل مخاطرتي بحياتي من أجل أن تكون فخورة بي يُعد أنانية وقسوة منها؟!

ربما يسأل رجل في منتصف العمر نفسه هذه الأسئلة، لكن بالنسبة لعاشق عاش ثلاثة وعشرين ربيعًا من عمره أشك في هذا، خاصةً ونيران الحب الأول تلتهم قلبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

اختبر حظَّك مع البروفيسور (تشالنچر)

لطالما أحببتُ العجوز (مكاردل) أحدب الظهر، أحمر الشعر، كما أنه رئيس قسم الأخبار في صحيفتنا، وآمل أنه يبادلني ذات الشعور.

بالطبع، كان (بومونت) هو الرئيس الفعلي لكنه عاش في منأى عنا كأنه واحد من سادة الأوليمب، لا يثير اهتمامه أقل من أزمة دولية أو انقسام في مجلس الوزراء.

أحيانًا نراه يمر وحيدًا جليلًا متوجهًا إلى قُدْس أقداسه، عيناه تحدقان فيما حوله بنظرة ضبابية غريبة بينما عقله يحلق بعيدًا فوق البلقان أو الخليج الفارسي. إنه فوق البشرية، وما وراءها.

كان (مكاردل) مساعده الأول، وهو مَنْ عرفناه وتعاملنا معه. أومأ العجوز لما دخلتُ الغرفة، رفع عويناته عاليًا وقال بلكنته الإسكتلندية اللطيفة:

- حسنًا، سيد (مالون) كما سمعتُ يبدو أنك تبلي بلاءً حسنًا في عملك.

شكرته.

أكمل قائلًا:

- انفجار المنجم كان ممتازًا. وكذلك حريق (ساوثوارك) لديك أسلوب مبهر في الوصف. ما الذي طلبت رؤيتي بسببه؟

- أريد معروفًا.

تحاشى نظراتي، وبدا منزعجًا، وأطلق صفيرًا متعجبًا ثم قال:

- ما هو؟

- هل تظن يا سيدي أنه بإمكانك إرسالي في مهمة صحفية؟ سأقوم بها خير قيام وسأحضر لك نسخًا جيدة.

- أي نوع من المهمات يدور في ذهنك سيد (مالون)؟

- حسنًا يا سيدي، إنني أبحث عن شيء فيه مغامرة ومفعم بالمخاطر، سوف أبذل قصارى جهدي. كلما كان الأمر أكثر صعوبة ناسبني أكثر.

- تبدو مُتلهفًا لخسارة حياتك.

- بل لإيجاد مبرر لها يا سيدي.

- عزيزي السيد (مالون)، هذا شيء عظيم جدًّا، أخشى أن أشياء مثل هذه وَلَّتْ أيامها منذ زمن سحيق. كما أن تكلفة -المهمة الخاصة- لا تبررها النتائج، بطبيعة الحال يمكن لرجل متمرس واسع الصِّيت،

نال ثقة العامة أن يحظى بأمر مثل هذا. كل الأماكن الفارغة على رقعة الخريطة قد مُلِئَت ولم يَبْقَ مكان للرومانسية. انتظر قليلًا.

أمسك عن الكلام لوهلة ثم أضاف وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه:

- لقد أوحت لي الخريطة بفكرة، ما رأيك بفضح احتيال (منخاوزن)(3) جديد - وجعله أضحوكة سخيفة؟ ربما تمكنت من تسليط الضوء عن زيفه وكذبه وإظهار حقيقته، سيكون أمرًا ممتعًا يا رجل! هل تُناسبك هذه المهمة؟

هتفتُ قائلًا:

- أي شيء، أي شيء، أنا لا أهتم البتَّة.

شرد (مكاردل) متفكرًا لدقائق ثم قال:

- إنني أتساءل إذا ما كنت قادرًا على إجراء مُحاورة ودية، أو على الأقل الالتزام بشروط التحدُّث إلى زميل. يُخيل إليَّ أنك تملك نوعًا من عبقرية إقامة العلاقات مع الناس، لربما كان الأمر أكثر جاذبية، شبابًا، حيوية، أو شيئًا من هذا القبيل. أنا نفسي واقع تحت تأثيرها.

- أنت رجل صالح يا سيدي.

- لذا لمَ لا تُجَرِّب حظَّك مع البروفيسور (تشالنچر) الذي يعمل في (إنمور بارك)؟

أجرؤ على القول بأن الخوف تملَّك مِنِّي حينها.

- (تشالنچر)، هل تقصد البروفيسور (تشالنچر) عالم الحيوانات المشهور! أليس هو الرجل الذي حَطَّمَ جُمجمة مراسل جريدة (التلجراف).

ابتسم محرر الأخبار العجوز ابتسامة متجهمة.

- هل تمانع؟ ألم تقل إنك تبحث عن مغامرة؟

أجبته قائلًا:

- طالما في الأمر عمل فأنا موافق عليه يا سيدي.

- بالضبط. لا أظن أنه عُدواني هكذا على الدوام. أظن أن هذا المراسل تحدَّث معه في اللحظة الخاطئة، أو ربما، بالطريقة الخاطئة. ربما كان حظك أفضل، أو أجدت التعامل معه بطريقة صحيحة. مسارك يقودك إلى هناك، يجب أن تعمل الجريدة.

قلتُ له:

- لكني لا أعلم عنه شيئًا، إنني أتذكر اسمه فقط من محضر الشرطة الخاص باعتدائه على المراسل.

- لديَّ عدة ملاحظات عنه، سيد (مالون)، لقد وضعتُ عيني على البروفيسور منذ بعض الوقت.

سحب ورقة من درج المكتب وقال:

- هذا مُلخص لمسيرته المهنية، سأقصه عليك بإيجاز.

ثم أردف:

- چورچ إدوارد تشالنچر، ولد في مدينة (لارجس)(4) عام 1863. حصل على تعليم رفيع المستوى في جامعة إدنبره، عمل مساعدًا في المتحف البريطاني في مستهل عام 1892، ترقَّى بعدها بعام ليصبح مساعد أمين قسم الأنثروبولوجيا. استقال في ذات العام بعد مراسلات لاذعة مع إحدى الجهات المختصة. فاز بميدالية (كريستون) لأبحاث علم الحيوان. عضو منتدب في -حسنًا في الكثير من الأشياء، التى تُسرد فى سطرين - الأكاديمية الأمريكية للعلوم، وأكاديمية لابلاتا.. وغيرها، الرئيس السابق لجمعية علم الحفريات. عمل لفترة في الاتحاد البريطاني للعلوم، وهكذا دواليك، له عدة منشورات ومؤلفات علمية، منها (سلسلة عن جماجم كلموك)؛ (مقدمة في تطور الفقاريات)، وعدد من الأوراق العلمية المهمة مثل (المغالطات الفايسمانية) هذه الورقة بالذات تسببت في مشاحنات ومناقشات ساخنة في مؤتمر علم الحيوان الذي أُقيم في □يينا. يهوي المشي وتسلُّق الجبال، يعيش قريبًا من (إنمور بارك) في مدينة كنسينجتون. هاك، خذها معك. ليس لديَّ شيء آخر أقدمه لك هذه الليلة.

تناولتُ مجموعة من الأوراق ووضعتها في جيبي. تحدثتُ قائلًا:

- لحظة واحدة يا سيدي. أدركتُ أن ما أُحدِّق به هو رأس أصلع ورديُّ اللون، وليس وجهًا أحمر يُطالعني.

أكملتُ:

- لم أفهم جيدًا، لماذا أجري مقابلة مع هذا الرجل. ماذا فعل؟

ومض الوجه عائدًا مرة أخرى.

- زار أمريكا الجنوبية منذ عامين في رحلة استكشافية. عاد العام الماضي من هذه الحملة. مما لاشكَّ فيه أنه ذهب هناك فعلًا لكنه رفض الإفصاح عن المكان تحديدًا. بدأ يسرد مغامرته بطريقة غامضة، لكنَّ شخصًا ما التقط الثقوب في حبكته ومن ثم أطبق فمه كالمحار. بعدها حَدَثَ شيء رائع، أو أن الرجل كاذب لا يُشَقُّ له غبار، وهو الاحتمال الأرجح. في حوزته بعض الصور الفوتوغرافية الرديئة، يزعم كثيرون أنها مُلَفَّقَة. بات شديد الحساسية لدرجة أنه هاجم كل مَنْ وجه إليه سؤالًا، وقذف المراسلين من فوق الدرج. في رأيي هو مجرد دُمْيَة يُحرِّكها جنون العظمة مُستترًا بستار العلم. هذا هو رجلُك يا سيد (مالون). الآن تحرَّك من هنا وانظُر ماذا سوف تصنع معه. أنت كبير كفاية للاعتناء بنفسك، على كل حال أنت آمِن تمامًا. قانون مسئولية أصحاب العمل(5) كما تعلم.

تحوَّل الوجه الأحمر المبتسم مرة أخرى إلى شكل بيضاوي وردي اللون مُحاط بأهداب من فرو، لقد انتهت المقابلة.

سرتَ حتى نادى (سافاچ)، ولكن بدلًا من دخوله استندتَ واقفًا إلى سور (أديلفي تيراس) وأمعنتَ النظر في النهر البني زيتي القوام.

يُمكنني دومًا التفكير بعقلانيةٍ أكثر ووضوح في الهواء الطلق.

أخرجتُ من جيبي قائمة أعمال البروفسيور (تشالنچر)، وأعدتُ قراءتها تحت وهج مصباح كهربائي متدلٍّ من أحد أعمدة الإنارة.

ثم أصبح لديَّ ما يُمكن أن أعُدَّهُ مصدرًا للإلهام فقط. كوني صحفيًّا متمرسًا، أيقنتُ مما أخبروني به أنه لا يمكنني التواصل مع هذا البروفيسور الشَّرِس. لكن هذه الاتهامات التي ذكرت مرتين في سيرته المهنية لا تعني إلا أنه مُتعصب للعلم. ألا يوجدَ خيط واضح يجعل الوصول إليه سهلًا، حسنًا سوف أُجرِّب.

دلفتُ إلى النادي. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة لتوِّها وعلى الرغم من أن ساعة الذروة لم تحن بعد فإني وجدتُ القاعة الكبيرة مكتظة بالزبائن. لاحظتُ رجلًا طويلًا نحيفًا كعصا يجلس على كرسي قريب من النار. التفت لما حركتُ كرسيًّا قريبًا منه. إنه الشخص الذي يجب عليَّ اختياره من بين الآخرين. (تارب هنري)، موظف من موظفي هيئات الطبيعة، مخلوق رقيق، يفيض بالإنسانية والعطف لمن عرفه. لم أتريث ودخلتُ في صلب الموضوع مباشرة.

سألته قائلًا:

- ما الذي تعرفه عن البروفيسور (تشالنچر)؟

- (تشالنچر)؟ قالها وقد قطب جبينه في رفض علمي صريح ثم أكمل:

- (تشالنجر) الذي عاد بقِصص خرافية من أمريكا الجنوبية.

سألته:

- أي قصص؟

- آه، إنه محض هراء عن حيوانات غريبة يزعم أنه اكتشفها. أظن أنه تراجع عن ادعاءاته منذ فترة. على كل حال لقد أوقف كل شيء. لقد أجرى مقابلة مع صحيفة (رويترز)، وكان هناك اعتراضات ومناوشات دفعته لرفضه. لقد كان عملًا مُخجِلًا. هناك شخص أو اثنان من الحمْقى الذين كانوا يتحدثون معه بجدية، لكنه سرعان ما طردهم.

سألته:

- كيف؟

- حسنًا، بوقاحته التي لا حَدَّ لها، وسلوكه الذي يستحيل تقبُّله. كان هناك (وادلي) العجوز المسكين من معهد علم الحيوان الذي أرسل إليه رسالة مفادها: «يُرسل رئيس معهد علم الحيوان تحياته

للبروفيسور (تشالنچر)، سيكون من دواعي سرورنا وسرور الرئيس شخصيًّا إذا ما تكرمت ووافقت على تشريفنا في اجتماعنا القادم». كانت إجابته غير قابلة للنشر على الإطلاق.

- حقًّا! ماذا قال؟

- سوف ترى نسخة حيَّة من هذا الرد الآن، كان ردُّه: «يُقدم البروفيسور تشالنچر تحياته إلى رئيس معهد علم الحيوان، وسوف يعُدُّها خدمة شخصية إذا ذهب إلى الشيطان!».

- يا إلهي الرحيم.

- نعم، أظن أن هذا ما قاله العجوز (وادلي). أتذكر صياحه فوْر بدْء الاجتماع. قال: خلال خمسين عامًا قضيتها في المجال العلمي لم أرَ شيئًا مثل هذا لقد حطم معنويات العجوز تمامًا.

- هل لديكَ المزيد لتُخبرني به عن (تشالنچر)؟

- كما تعلم أنا عالم جراثيم، أعيش في مِجهر قُطْرُه تسعمئة وحدة مصغرة. بالكاد يُمكنني ملاحظة شيء بعيني المجردة أو حمله على محمل الجد. إنني أقف على حدود حافة العلم، عندما أترك دراستي أشعر بالغربة وكأنني في مكاني لا أنتمي إليه، عندما أتعامل معكم أجدكم جميعًا مخلوقات عظيمة، خشنة، هائلة. إنني لا أحب الخوْض في أحاديث الفضائح لكن مؤخرًا سمعت عن (تشالنچر) في محادثات الأوساط العلمية، إنه أحد الرجال الذين لا يمكن تجاهُلُهم. إنه ذكي كأنه بطارية مشحونة بالكامل بالقوة والحيوية، لكنه مُشاكس، مخادع يُحب افتعال الأمور السيئة بلا أدنى تنغيص من ضميره. لقد ذهب بمستواه بعيدًا جدًّا لما قام بتلفيق صور فوتوغرافية عن الأعمال التي قام بها في أمريكا الجنوبية.

سألته قائلًا:

- لقد قلت إنه مُخادِع، فما خدعته الخاصة؟

قال:

- لديه ألف على الأقل، آخرها يتعلق بـ(وايزمان) (6) والتطور. حسب ما أظن كان لديه خلاف مُخِيف بشأن هذا الأمر في مؤتمر □بينا.

- هل يُمكنك محادثتي عن هذا الأمر؟

- ليس الآن، لديَّ ترجمات التقارير الخاصة بهذا الأمر في مكتبي. هلا رافقتني إلى هناك إذا كان الأمر يهمك.

- إنه ما أريده تمامًا، يجدر بي الاطلاع على القادم، أحتاج إلى شيء يوصلني إليه. إنني مُمتَنٌّ لكل ما قدمته لي من معلومات، سآتي معك حالًا إذا لم يكن الوقت متأخرًا.

بعد مُضِيِّ نصف ساعة كنتُ جالسًا في مبنى الصحيفة وأمامي مجلد ضخم، عنوانه الرئيسي (وايزمان ضد داروين)، والفرعي (احتجاج حاد في □بينا). إجراءات حيوية. المصطلحات العلمية

المذكورة فاقت تعليمي وخبراتي؛ لذا لم أفهمها إلى حدٍّ ما، لم أتمكن من متابعة الجدال كاملًا، ومع ذلك كان واضحًا أن البروفيسور الإنجليزي عرض الموضوع بطريقة عدائية للغاية، كما أنه أزعج زملاءه حول العالم أيَّما إزعاج. (الاحتجاجات)، (اضطراب) و(نداء عام إلى الرئيس) هؤلاء هم أول ثلاثة عناوين لفتوا انتباهي. ربما كُتب أغلب المواضيع بالصينية لغاية محددة كما فكرتُ.

حدَّثْتُ مساعدي بلهجة مثيرة للشفقة قائلًا:

- هل يمكنكَ ترجمته إلى الإنجليزية من أجلي؟

- حسنًا، ما بين يديك هو الترجمة.

- من الأفضل أن أُجرِّب حظي مع النسخة الأصلية إذن.

- مؤكد أنَّ به معاني عميقة بالنسبة لرجل غير متخصص.

قلتُ:

- لو أمكنني الحصول على جُملة واحدة جيدة، تبدو فكرة إنسانية محددة، فسوف يُعزِّز هذا دوري. آه، نعم، هذه ستفي بالغرض. يبدو أني فهمتها تقريبًا وإن كان فهمًا ضبابيًّا. سأقوم بنسخها. سيكون هذا رابطي الخاص مع البروفيسور الرهيب.

سألني مساعدي قائلًا:

- ألا يوجد شيء آخر أقدر على فعله؟

- حسنًا، بلى، أقترح أن أكتب له. إذا كان بالإمكان صنع إطار الرسالة هنا، واستخدام عُنوانك، من شأن هذا إضفاء جو خاص عليها.

- سيكون لدينا جولة هنا مع زميل من شأنه تحطيم الأثاث وتجاوز الحدود.

- لا، لا، سوف ترى الرسالة، لا شيء مثير للجدل، أؤكد لك.

- هذا كرسيي ومكتبي. ستجد الورق هناك. أودُّ أن أقوم بدور الرقابة قبل إرسالها.

استغرق الأمر بعض الوقت والعمل، لكني منيتُ نفسي أنه لم يكن عملًا سيئًا عندما انتهيت منه. قرأته بصوت عالٍ لأُسمِع عالم الجراثيم وكلي فخر بما صنعت يداي:

- عزيزي البروفيسور (تشالنچر)، بصفتي طالبًا متواضعًا في العلوم الطبيعية، لقد أوليتُ تكهناتك حول الاختلافات بين (داروين)(7) و(وايزمان) اهتمامًا عظيمًا. مؤخرًا أتيحت لي الفرصة لإنعاش ذاكرتي عن طريق إعادة القراءة..

هتف (تارب هنري) مقاطعًا إياي:

- أيها الكاذب الجهنمي.

أكملتُ:

- «... إعادة قراءة عملك في □يينا. يبدو جليًّا أن العبارات الرائعة لها الكلمة العليا في الأمر. مع ذلك هناك جملة واحدة هي: أنا أحتج وبشدَّة على التأكيد العقائدي الذي لا يُطاق، كل هوية منفصلة هي كون مصغر يملك تاريخًا، تطورت العمارة ببُطْء عبر سلسلة من الأجيال المتعاقبة. هل لديك أي رغبة، وخاصة في ضوء البحث الأخير لتعديل هذا البيان؟ ألا تظن أنه مُبالَغ فيه؟ إذا سمحت لي أرغب في طلب مقابلة معك، إنني أشعر بحماس بالغ بصدَد هذا الموضوع، ولديَّ كذلك بعض المقترحات التي لا أقدر على طرحها ومناقشتها إلا في محادثة شخصية. إذا وافقت فسيكون لي عظيم الشرف لمقابلتك في الساعة الحادية عشرة في الصباح التالي ليوم غدٍ (الأربعاء). إنني أنتظر يا سيدي، مع كامل احترامي، بإخلاص.. (إدوارد دي مالون)».

سألت صديقي فور انتهائي:

- ما رأيك؟

- حسنًا، إذا كان ضميرك قادرًا على تحمُّل ذلك..

قاطعته قائلًا:

- لم يخذلني أبدًا.

- لكن ما الذي تريد فعله؟

- الذهاب إلى هناك، بمجرد وجودي في غرفته سأبحث عن ثغرات تساعدني على النفاذ إليه، حتى إنني قد أعترف اعترافًا صريحًا بنواياي.

- إذا كان لديه روح رياضية فسيتقبل الأمر مداعبًا إياي.

- مداعبًا! في الحقيقة من المرجح حقًّا أن يقوم بالمداعبة. سلسلة البريد أو بذلة كرة القدم الأمريكية، هذا ما تحتاج إليه.

- حسنًا، وداعًا. سآتي إليك بالرد صباح الأربعاء.

- هذا إذا ردَّ عليك؛ إنه شخصية عنيفة، خطيرة، شرسة، يبغضها كل مَنْ تقاطع طريقه معها كعادة الطلاب اللَّحوحة، خذ راحتك معه بقدر ما يجرءون.

لربما كان من الأفضل لك ألَّا تستمع إلى شيء منه على الإطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

إنه رجل مستحيل حقًّا

لم تتحقق مخاوف صديقي أو آماله، عندما ذهبت إلى الجريدة صباح الأربعاء وجدتُ هناك خطابًا يحمل طابع بريد (ويست كنسينجتون)، كُتب اسمي عليه بخط متشابك يُشبه الأسلاك الشائكة.

كانت محتوياته كالتالي:

«(إنمور بارك).. سيدي لقد تلقيتُ رسالتك -كما تقتضي الأصول، التي تزعم فيها إقرارك آرائي، على الرغم من أني أعلم أنها لا تحتاج إلى تأييد منك أو من سواك فإنك قد تجرأت على استخدام كلمة (تكهنات) فيما يتعلق برؤيتي لموضوع الداروينية، أود لفت انتباهك إلى حقيقة أن كلمة مثل هذه في موضعها هذا تُعَدُّ إهانة إلى حدٍّ ما. لقد أقنعني سياق الكلام، ومع ذلك، يُخيل إليَّ أن اتصاف خطابك بالجهل وعدم اللباقة نابع من الحقد؛ لذا سأغض الطرف عن هذا الخطأ. لقد اقتبست جملة واحدة من محاضرتي، يظهر أنك تواجه صعوبات في فهمها. يجدر بي التفكير أن الذكاء شبه البشري وحده قد يفشل في فهمها! لكن طالما الأمور تحتاج إلى إيضاح حقًّا سأوافق على مقابلتك في الساعة الْمُعنونة أعلاه، مع أني أمقتُ كل الزيارات والزوار. أما فيما يخص اقتراحك بتعديل رأيي أو التأكد منه، فأود إخبارك بأن هذا ليس من شِيمي خاصةً بعد التعبير المتعمد عن وجهة نظري الناضجة علنًا. ستقوم متفضلًا بإبراز هذا الخطاب لخادمي (أوستين) حتى يتأكد أنك مدعو؛ لأنه يُبعد عني كل الطفيليين الذين يُسمون أنفسهم صحفيين. بإخلاص.... جورج إدوارد تشالنچر».

كان هذا هو الخطاب الذي قرأتُه بصوت عالٍ أمام (تارب هنري)، الذي أتى مبكرًا لسماع نتيجة مشروعي. ملاحظته الوحيدة كانت:

«هناك عدة أشياء جديدة، نبات كتيكورا أو شيء من هذا القبيل، وهي أفضل من زهرة خانق الذئب(8)!» بعض الناس لديهم ملاحظات فُكاهية غير عادية بالمرة.

تجاوزت الساعة العاشرة والنصف تقريبًا قبل أن أتلقَّى رسالتي، لكني أستقللتُ سيارة أجرة في الوقت المناسب من أجل موعدي.

توقفنا أمام بيتٍ فاخر مزوَّد برواق، انسدلتْ ستائر مخملية ثقيلة على نوافذه كدليل على ثروة هذا البروفيسور الرهيب.

فتح الباب خادم ضئيل، أسمر البشرة، جاف الملامح يستحيل تحديد عمره. يرتدي سترة سوداء كسترات الطيارين وبنطلونًا بُنِّيَّ اللون. فيما بعد علمتُ أنه السائق أيضًا، وقد أخذ على عاتقه ملء الثغرات التي خلفتها سلسلة ممتدة من الخدم الفارين. نظر إلى مُدَقِّقًا من قمة رأسي حتى أخمص قدمي بعين زرقاء براقة.

سألني قائلًا:

- أمن المتوقع حضورك؟

أجبته قائلًا:

- لديَّ موعد.

- هل حصلت على رسالتك؟

أعطيته المظروف وبداخله الرسالة.

- جيد. قالها ولم يزد! يبدو أنه من الأشخاص قليلي الكلام.

سرتُ خلفه في ممر طويل، وفجأة قاطعت طريقنا امرأة صغيرة الحجم خرجت لتوِّها من باب غرفة عرفت فيما بعد أنها غرفة الطعام.

كانت سيدة مَرِحة، مشرقة، ذات عيون داكنة، بدت فرنسية أكثر منها إنجليزية.

تحدثت قائلة:

- لحظة من فضلك، يُمكنك الانتظار، قفْ ها هنا يا (أوستين). سيدي، هل يمكنني سؤالك إذا ما كنت قابلت زوجي من قبل؟

- لا، يا سيدتي، لم أنَلْ هذا الشَّرَف بعد.

- دعني أُقدِّم لك اعتذاري في صورة نصيحة، يجب عليَّ أخبارك بأنه شخص مستحيل؛ مستحيل قطعًا. إذا توخيت الحذر، فستكون أكثر استعدادًا للتصرف.

- سيدتي، هذه مراعاة غالية منكِ.

- اخرج سريعًا من الغرفة إذا بدا أنه يميل إلى العنف. لا تنتظر وتتجادل معه. أُناس عدة جرحوا في أثناء محاولتهم هذا. بعد هذا هُناك فضيحة علنية تنعكس عليَّ وعلينا جميعًا. أظن أنك تريد مقابلته بسبب رحلة أمريكا الجنوبية، أليس كذلك؟

لا يُمكنني الكذب على سيدة؛ لذا لذتُ بالصمت.

أكملت قائلة:

- يا عزيزي! هذا أكثر مواضيعه خطورة. لن تُصدق كلمة واحدة مما يقول، إنني متأكدة، ولا أتساءل، لكن لا تُخبره بهذا صراحةً؛ لأن هذا يجعله عنيفًا جدًّا. تظاهر بتصديقه. وعندها ربما تمر الأمور بخير. تذكر أنه يُؤمن بما يقول بدوره. لو فعلت ما أمليه عليك فاطمئن. لم أرَ رجلًا أكثر صِدْقًا من قبل. لا تنتظر أكثر من هذا حتى لا يتسلَّل الشكُّ إلى قلبه. إذا وجدته خطيرًا جدًّا، دق الجرس وحاول احتواءه حتى آتي. حتى في أسوأ حالاته يُمكنني عادةً السيطرة عليه.

بهذه الكلمات الْمُشجِّعة سلمتني السيدة إلى (أوستين) قليل الكلام، الذي كان واقفًا كتمثال من البرونز في أثناء حديثنا القصير. قادني إلى باب في نهاية الممر، وُضِعَ عليه مدقٌّ، أمسك الخادم به ودَقَّ على

الباب فوصل لسمعي صوت يشبه خوار الثور آتيًا من الداخل، ثم وجدتَ نفسي وجهًا لوجه مع البروفيسور.

وجدتُه جالسًا على كرسي دوار خلف طاولة عريضة تكدست فوقها كتب، خرائط والكثير من المخطوطات. فور دخولي الغرفة أدار كرسيه حتى يكون مواجهًا لي. لما ظهر لي أخيرًا شهقتُ من المفاجأة. لقد كنتُ مستعدًّا لشيء غريب، لكن ليس مثل هذا الشخص أبدًا. حجمه كان بعيدًا عن أي توقع توقعته؛ حجمه وحضوره المسيطر المهيب. رأسه ضخمة -تقريبًا أضخم رأس رأيتها بين بني البشر- لديه وجه طولي، ولحية تصلح لتقييد ثور آشوري؛ عيناه زرقاوان يشوبهما الرمادي، محاطان بشعره وبلحيته السوداء التي تصل إلى صدره حتى إنك لتشُك في لونهما، لو دققت في لحيته لخُيِّل إليك أن أشكالًا تموج على سطحها. شعره غريب مُجعَّد في مقدمته وينجلي عن جبهته الضخمة في شكل قوس.

ملامحه تشي بوضوح، حسم وبراعة الكثير منهم. كتفاه عريضان ضخمان، وصدره يشبه البرميل، بل يكاد يكون في مثل حجمه، أما باقي أجزائه فظهر منها يدان غليظتان يكسوهما شعر أسود كث وقد أراحهما فوق الطاولة. كل هذه الصفات وصوت الخوار، الزئير، الدمدمة الذي صدر عنه، كونوا انطباعي الأول عن البروفيسور (تشالنچر) سيئ السُّمعة.

نظر إليَّ بوقاحة وقال:

- حسنًا، والآن ماذا؟

يجب عليَّ الاستمرار في خِداعي مدة أطول قليلًا، وإلا كان هذا نهاية المقابلة التي لم تبدأ بعد.

خفضتُ عيني وقلت بلهجة متواضعة:

- لقد كنتَ كريمًا بما يكفي لمنحي موعدًا يا سيدي. وناولته الخطاب.

تناول الرسالة مني ووضعها أمامه ثم قال:

- آه، أنت الشاب الذي لا يفهم الإنجليزية بوضوح، أليس كذلك؟ لكنك موافق على الخطوط العامة للموضوع كما فهمت، صحيح؟

أجبته بنبرة حازمة:

- بالتأكيد يا سيدي، بالتأكيد.

- عزيزي، هذا يجعل موقفي أكثر قوة، ألا ترى هذا معي؟ إن عمرك ومظهرك يجعلان دعمك مُضاعف القيمة. حسنًا، أقلها أنت أفضل من قطيع الخنازير الذين قابلتهم في □ييننا، آراؤهم ليست أكثر من قُباع(9) جماعي، ومع ذلك فإن هجومهم لم يتعدَّ جهد خنزير بريطاني منعزل.

إنه ينظر إلي وكأني هدية مُقدَّمة لوحش. حدثته قائلًا:

- يظهر لي أنهم تصرفوا بطريقة بغيضة.

- أؤكد لك أنني قادر على خوض معاركي الخاصة، ولا حاجة بي لتعاطفك. اتركني وحيدًا يا سيدي وظهري للحائط. حسنًا دعنا نقُم بما في وسعنا لنجعل هذه الزيارة -التي يُمكن أن تكون مقبولة لك بالكاد- قصيرة، وهذا أمر مزعج للغاية بالنسبة لي. لديك كما أظن بعض التعليقات أو الاقتراحات لتقدمها لي فيما يخص أطروحتي.

كان صريحًا بطريقة وحشية، جعلت أساليب التهرب صعبة. يجب عليَّ الاستمرار في المراوغة وانتظار بداية أفضل. بدا الأمر بسيطًا بما فيه الكفاية من مسافة بعيدة. أوه، هل يقدر ذكائي الأيرلندي على إسعافي ومساعدتي الآن، عندما أحتاج إلى المساعدة بشدة؟

نظر إليَّ بعيون حادة فولاذية قاطعت تفكيري، هتف قائلًا:

- هيَّا، هيَّا!

رسمتُ على وجهي ابتسامة سخيفة، قلتُ:

- إنني بالطبع مجرد طالب، أكثر ما يمكنني القول: باحث جاد. في الوقت ذاته بدا لي أنك كنت قاسيًا قليلًا على (وايزمان) في هذه المسألة. منذ ذلك الحين ألم يظهر دليل صريح يشير إلى حُسن صِدْق موقفه؟

حدثني بهدوء شديد قائلًا:

- عن أيِّ دليل تتحدث؟

- حسنًا، إنني مُدْرِك بالطبع أنه لا يوجد ما قد تُطلق عليه دليلًا قاطعًا. كل ما فعلته أنني أشرت فقط إلى الاتجاه الحديثَ في الفكر ووجهة النظر العلمية العامة، إذا جاز لي التعبير طبعًا.

انحنى إلى الأمام بملامح متجهمة جادة، أخذ يعد نقاط وجهة نظره على أصابعه وقال:

- أفترض أنك على دراية بأن مؤشر الجمجمة عامل ثابت؟

أجبته قائلًا:

- بطبيعة الحال، نعم.

- وأن تلك البرقية ما زالت خاضعة للحكم والنقد؟

- هذا لا شك فيه.

- والبلازما الجرثومية(10) تختلف أيما اختلاف عن البويضة التوالدية؟

صحتُ بجرأة قائلًا:

- بالتأكيد!

سألني بصوت خفيض مقنع:

- لكن ما الذي يثبته هذا؟

تمتمتُ:

- آه، ماذا حقًّا؟ ثم أردفت بنبرة أعلى:

- ما الذي يثبته هذا؟

غمغم قائلًا:

- هل أخبرك أنا؟

- افعل أرجوك.

خرج صوته شبيهًا بالزئير وقد استبدَّ به غضب مفاجئ:

- إنه يثبت أنك دجال لندني لعين، صحفي دنيء حقير، لا يملك مثقال ذرة من علم غير اللباقة التي وضعت فيه.

قام من على كرسيه والجنون يلتمع في عينيه. حتى في هذه اللحظة العصيبة وجدت وقتًا للدهشة عندما اكتشفتُ أنه رجل قصير القامة لحد ملحوظ، رأسه لم تبلغ كتفي حتى؛ كأنه (هرقل) وقد أصيب بالتقزُّم. لقد تمثلت قوة هذا الرجل في العمق وعرض الجسد وحجم الرأس.

مال إلى الأمام بحدَّة أكبر وهدر بصوت غاضب:

- هراء! هذا ما كنتُ أقوله لك يا سيدي، هراء علمي! هل ظننت أنك قادر على خداعي خاصة بعقل مثل عقلك؟! هل تظن أنك قدير، مخطط جهنمي، أليس كذلك؟ هل مديحك هو ما يصنع الرجل، ولومك يكسره؟ يجب أن ننحني جميعًا أمامك محاولين نيل كلمة أو معروف، هل يجب علينا؟ هذا الرجل لديه ساق مرفوعة، وذاك يرتدي ثيابًا! حشرات زاحفة! إنني أعرف حقيقتك! لقد تركت مكانك وخرجت منه. كان هذا عندما قُطِعَت أذناك. لقد فقدت حس الانسجام. أكياس غاز منتفخة! سوف أبقيك في المكان الملائم لك. نعم، أنت لم تتغلب على (ج. إ. ت)(11). هناك رجل واحد هو سيدك طبعًا، مؤكد أنه حذرك، لكن إذا أتيت بواسطة الرب فافعل هذا على مسئوليتك الخاصة. لقد ضيعت امتناني يا سيد (مالون)، إنني أدعي التنازل! لقد لعبت لعبة خطرة، ويبدو لي أنك خسرتها.

تراجعتُ إلى الباب وفتحته، وقلتُ له:

- انظر يا سيدي، يُمكنك أن تكون بذيئًا كما تريد، لكن هناك حدود، لا تتعدى عليَّ.

- هل يجب ألا أفعل؟ بدأ يتقدم نحوي ببطء ورَوِيَّة، بطريقة تهديدية. توقف عن السير ووضع يديه الكبيرتين في جيب معطف شبابي قصير كان يرتديه. استطرد قائلًا:

- لقد ألقيتُ العديد من نوعك خارج هذا البيت. ستكون أنت الرابع أو الخامس. ثلاثة جنيهات وخمسة عشر شلنًا لكل منهم؛ هذا هو المتوسط. مكلف، لكنه ضروري للغاية. والآن يا سيديـ لمَ لا يجب أن تلحق بمن سبقك؟ إنني أظن أنه يجب عليك.

استكمل تقدمه نحوي بتلك الطريقة المختلسة البغيضة، يدق الأرض بقدميه في أثناء سيره كراقِص محترِف.

كان بمقدوري الاندفاع نحو الباب لكنه سيكون أمرًا مخزيًا. علاوة على أن بعض غضب الصالحين بدأ يظهر على وجهي. لقد كنتُ مخطئًا بطريقة مثيرة للشفقة من قبل، لكن تهديدات هذا الرجل تقودني إلى الصواب.

سوف تتزعج كثيرًا يا سيدي إذا رفعت يدك عليَّ؛ إنني لن أقف مكتوف الأيدي.

- عزيزي!

رفع رأسه تجاهي وظهرت أسنانه البيضاء في ضحكة ساخرة، أكمل قائلًا:

- لن تقف مكتوف الأيدي، ها؟

هتفت به قائلًا:

- لا تكن أحمق أيها البروفيسور، ما الذي تأمله؟ إنني ثقيل كخمسة عشر حجرًا، صلب كما المسامير، لعبت في مركز الدفاع كل سبت في فريق لندن الأيرلندي. إنني لست الرجل.....

في هذه اللحظة بالذات قاطعني مسرعًا تجاهي. كان من حُسن حظي أني فتحت الباب وإلا ارتطمنا به. هوينا على أرض الممر متشابكي الأيدي والأرجل. بطريقة ما سقطنا على كرسي في طريقنا، والتصقنا به حتى الشارع! كانت لحيته تملء فمي، أيدينا متداخلة كالقفل، أجسادنا متشابكة، وذلك الكرسي يُقيدنا بأرجله وقد التفت حولنا. فتح (أوستين) المنتبه الباب الأمامي.

تشقلبنا حتى أسفل الدرجات الأمامية. تحول الكرسي إلى شظايا من الخشب، تدحرجنا على العشب بعد أن تحرَّرنا. قفز واقفًا على قدميه، وأخذ يُلَوِّح بقبضته بينما كان يتنفس كأنه مصاب بالربو.

قال وهو يلهث:

- هل اكتفيت؟

صحتُ وأنا أحاول جمع شتات نفسي:

- أيها الثور الغاشم!

بدأ يجهز نفسه لجولة ثانية من المشاجرة لكن لحسن الحظ أُنْقِذْتُ من هذا الوضع البغيض. مرَّ قريب منا شرطي يُمْسِك في يده دفتر ملاحظاته.

قال الشرطي:

- ما كل هذا؟ يجب أن تخجل من تصرفاتك.

كانت هذه أكثر ملاحظة عقلانية سمعتها في (إنمور بارك).

نظر إلى وقال بلهجة مُصِرَّة:

- حسنًا، ماذا عنه إذن؟

قلتُ:

- هذا الرجل هاجمني.

سأله الشرطي:

- هل هاجمته حقًّا؟

تنفس البروفيسور بعُمْق ولاذ بالصمت.

هزَّ الشرطي رأسه بشدة وقال:

- إنها ليست مرَّته الأولى على كل حال، لقد قام بشيء مماثل الشهر الفائت. لقد أسخنت وجه هذا الشاب بالجراح، هل تريد تقديم شكوى يا سيدي؟

هنا رضختُ متنازلًا عن حَقِّي.

قلتُ:

- لا، لن أفعل.

قال الشرطي مستنكرًا:

- ماذا قلت؟

- إنني أتحمَّل اللوم كاملًا، لقد أقحمتُ نفسي في خصوصياته وهو أنذرني عِدَّة مرات من قبل.

أغلق الشرطي دفتر ملاحظاته وقال:

- لا تدعنا نرى المزيد من هذه الحوادث. والآن، تحركوا من هنا، تحركوا.

كانت الجملة الأخيرة موجة لصبي الجزار وواحد أو أثنين من ساكني الحي الذين تجمعوا حولنا. تحرك بخطوات ثقيلة، يقود هذا القطيع الصغير أمامه.

نظر إليَّ البروفيسور، لمحت في عينيه بريق الدهشة. تحدث قائلًا:

- هيَّا إلى الداخل، إنني لم أنتهِ منك بعد.

كان صوته شريرًا لكني تبعته على كل حال إلى داخل المنزل، وكأنه تمثال خشبي أغلق (أوستن) الباب خلفنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

إنه فقط أضخم شيء في العالم!

بالكاد أُغلق الباب خلفنا حتى ظهرت السيدة (تشالنچر) قادمة من غرفة الطعام. كانت المرأة الصغيرة مُهتاجة، غاضبة بشدة. وقفت أمام زوجها معترضة طريقه مثل دجاجة غاضبة اعترضت طريق (بولدوج). يبدو أنها راقبت خروجي ولم تُتابع عودتي.

صرخت قائلة:

- چورچ أيها الهمجي! لقد آذيت هذا الشاب اللطيف.

خَطَا إلى الخلف، أشار إليَّ بإبهامه وقال:

- ها هو ذا يسير خلفي، سليمًا ومعافًى كجرس.

بَدَتْ مرتبكة محتارة، لكنها لم تكن كذلك بلا داعيَ.

قالت:

- أنا حقًّا آسفة، لم أرك.

- أؤكد لكِ سيدتي، أن كل شيء على ما يُرام.

قالت بنبرة متأسفة:

- لقد تركت يده علامات في وجهك المسكين، أوه (چورچ)، يا لك من متوحش همجي! لا تفعل شيئًا سوى الدخول في فضيحة تلو الأخرى، من أسبوع إلى آخر يتكرر ذات السيناريو. كل شخص في المدينة يتحدث عنك ويسخر منك. لقد نفد صبري، يجب أن ينتهي هذا الآن.

غمغم قائلًا:

- لا يجب أن نكشف ملابسنا القذرة أمام الغرباء.

صاحت مُغتاظة:

- هذا ليس سرًّا، هل تظن أن جُلَّ حَيِّنا، كل لندن، فيما يتعلق بهذه المسألة..

قطعت حديثها وخاطبت (أوستين) قائلة:

- اذهب من هنا يا أوستين، نحن لا نحتاج إليك.

ثم استرسلت محدثة البروفيسور:

- هل تظن أنهم لا يتحدثون عنك؟ ماذا حَلَّ بكرامتك؟ أنت، رجل يجدر به أن يكون بروفيسورًا ملكيًّا(12) في جامعة عريقة بها ألف طالب وكلهم يُبجِّلونه. أين ذهبت كرامتك يا چورچ؟

- ماذا عن خاصتكِ يا عزيزتي؟

- أنت تضغط عليَّ كثيرًا. شرير -يفتعل الأذى في الأزقة- هذا ما أصبحت عليه.

- فلتكوني جيدة يا (چيسي).

- شرير، شرير بربري.

قال لها:

- لقد فعلتُ ذلك! يجدر بي التكفير عما بدر مني.

بلغت دهشتها أقصاها لما توقف أمامها، رفعها عاليًا بيديه وأجلسها على قاعدة مرتفعة من الرخام الأسود الموضوع في زاوية القاعة.

كان ارتفاع القاعدة سبعة أقدام على الأقل، كما أنها نحيفة رفيعة وبالكاد تمكنت السيدة من التوازن عليها.

بدا شكلها سخيفًا مُضْحكًا أكثر من المعتاد، وقد اعتلى الغضب ملامح وجهها، وفرض سيطرته كما اعتلت هي القاعدة، قدماها تتأرجح متدلية وجسدها جامد خوفًا من الانزلاق، مجملًا كانت صورتها عصية على التخيل.

- أنزلني من هنا.

قالتها بصياح عالٍ أشبه بالولولة. حدثها قائلًا:

- قولي من فضلك.

- أيها البدائي المتوحش! جورج أنزلني من هنا حالًا.

هلم يا سيد (مالون)، تعالَ إلى الدرس.

قلتُ له وأنا أنظر إلى السيدة:

- حقًّا يا سيدي..

- ها هو ذا السيد (مالون) يتوسل من أجلك يا چيسي، قولي من فضلك وسوف أنزلكِ على الفور.

- أوه أيها الهمجي! من فضلك! من فضلك!

- عليك التأدُّب يا عزيزتي، السيد (مالون) صحفي. سيكون لديه ما ينشره صباح الغد، عشرات من جيراننا سيشترون نسخًا إضافية. (قصص غريبة من الحياة عالية المستوى). بالطبع شعرتِ بأنها عالية جدًّا من فوق هذه القاعدة، أليس كذلك؟ أما العنوان الفرعي سيكون (ومضة فريدة من شئون المنزل). أمامنا هنا مغفل مُخادع، اسمه (مالون)، آكل لحوم بشر، مثله مثل نوعه جميعًا -خنزير من قطيع الشيطان- هذا كل شيء، سيد (مالون) هل قلتَ شيئًا؟

هتفتَ به قائلًا:

- أنت لا تُطاق حقًّا.

قهقه ضاحكًا بصوت يشبه الخوار.

- يبدو أن لدينا تحالفًا في الوقت الحاضر.

دوى صوته في المكان عاليًا عميقًا، تبادل النظرات بيني وبين زوجته وهو يعب الهواء في صدره الضخم. فجأة غيَّر لهجته وقال:

- اعذُر هذه العائلة التافهة، يا سيد (مالون). لقد ناشدتك العودة من أجل غرَض آخر أكثر جدية وأهمية من انخراطك بمجاملاتنا الأسرية، ارحلي بعيدًا أيتها المرأة الصغيرة ولا تغتاظي.

وضع يده الكبيرة على كتفها واستطرد:

- إن ما تقولينه صحيح تمامًا. كان يمكن أن أكون رجلًا أفضل لو فقط استمعتُ لنصائحكِ، لكن عندها لم أكن لأصير (چورچ إدوارد تشالنچر). هنالك الكثير من الرجال الجيدين يا عزيزتي، وهناك (چ. إ. ت) واحد فقط؛ لذا قومي بالأفضل له.

فجأة لثمها، فردَّد الصدى صوت اللثمة العميق، وقد أحرجني الموقف أكثر من حالة العنف التي سبق وعاملني بها.

لما انتهى قال لي بصوتٍ مزهو يفيض بالاحترام والكرامة:

- الآن سيد (مالون)، من هذا الطريق إذا سمحت.

عُدْنا إلى الغرفة التي غادرناها بصخب منذ عشر دقائق. أغلق البروفيسور الباب خلفنا بحرص، قادَني إلى كرسي له ذراعان، وهناك جلستُ ثم قدَّم لي صندوقًا صغيرًا به سيجار.

قال:

- ريال سان خوان كولورادو، أشخاص مثيرون مثلك يفضلونه على الْمُكيفات! يا للنعيم! لا تعضه! أقطع بوقار! والآن استرخِ وأصغِ السمع لكل ما يهمني قوله لك. إذا كنت تريد تدوين ملاحظاتك أو إبداء رأيك فإني أناشدك بأَن تؤخرَ هذه الأفعال لبعض الوقت.

أمسِك عن الكلام حينًا ثم قال:

- بادئ ذي بدء، فيما يخص رجوعك لبيتي بعد الكثير من المسوغات التي أتاحت لي طردك.

سكت، عبث بلحيته وحدق بي كشخص يدعو آخر للنزاع. ثم أكمل:

- كما كنت أقول، هناك مسوغات كثيرة لطردك. لكن سبب عودتك يتلخص في إجابتك عن ذلك الشرطي المعروف بأنه الأكثر انضباطًا، وخُيِّلَ إليَّ أن في ردك وميضًا من الشعور الجيد تجاهي أكثر من أي مقياس اعتدتُ رؤيته في مهنتك. عليَّ الاعتراف بأن الخطأ الذي قادنا لذلك الحادث يقع

على عاتقك، لقد أعطيتني بعض الأدلة على أنك ذو عقلية معينة وسعة أفق جذبت اهتمامي. هناك نوع فرعي من الجنس البشري ولسوء الحظ أنت تنتمي لهذا النوع ذي القدرات العقلية المتدنية مقارنة بي. ومع ذلك كلماتك جعلتك فجأة فوق هذا النوع. لقد حُزتَ اهتمامي وملاحظتي الجادة. ولهذا السبب طلبتُ منك العودة معي، حتى أتمكن من معرفتك أكثر. سوف تُودع بلطف رمادك داخل الصندوق الياباني الصغير الموضوع على طاولة الخيزران التي تكاد تُلامس ذراعك الأيسر!

تهلَّلت أساريره وازدهر كأستاذ يخاطِب تلاميذ فصله. حرَّك كرسيه الدوار متأرجحًا ليواجهني، جلس منتفخ الصدر كضفدع ضخم، رأسه مستلق إلى الخلف وعيناه نصف مغلقة وتعلوها نظرة متغطرسة. فجأة تحرك من جديد، أعطاني جانبه ولم أستطعْ أن أرى منه أكثر من شعر متشابك وأذن حمراء بارزة. كان يبحث عن شيء ما وسط أكوام الورق المنتشرة على مكتبه. التفت إليَّ مجددًا وفي يده كتاب رسم ممزق في أكثر من موضع.

قال لي:

- إنني على وشك أن أخبرك بأمريكا الجنوبية، لا تعليقات من فضلك، في البداية أتمنى أن تُدرك أن كل ما أقصه عليك الآن لا يمكن نشره بأي طريقة ما لم تحصل على موافقة خطِّيَّة مني. هذه الموافقة وفق كل الاحتمالات البشرية لن تعطى أبدًا، هل هذا واضح؟

قلتُ له:

- هذا بالِغ الصعوبة، بالتأكيد مع الحكم السليم.

استخدم دفتر الملاحظات الموضوع على المكتب بدلًا من الكتاب. قال:

- إذن انتهت المقابلة، أتمنى لك صباحًا سعيدًا.

هتفتُ به:

- لا، لا! سأوافق على أيِّ شرط طالما ستخبرني، ليس لدي خيار.

قال:

- لا أحد في العالم.

- حسنًا، إنني أعدك.

- كلمة شرف؟

- كلمة شرف.

نظر إليَّ والشك يطل من عينيه الوقحتين ثم قال:

- على كُلٍّ، ما الذي أعرفه عن شرفك؟

صحتُ وقد تملَّك مني الغضب:

- لك كلمتي يا سيدي، لقد تخطيت الحدود كثيرًا! لم أتعرض للإهانة بهذا القدر قبلًا في حياتي.

بدا مُهتمًّا أكثر منه سئمًا من انزعاجي. تمتم قائلًا:

- رأس مستدير، جمجمة مستطيلة، جبهة عريضة، شعر أسود، عينان رماديتان، يبدو أنك من أصل زنجي كما أفترض.

- إنني رجل أيرلندي يا سيدي.

- أيرلندي؟

- أجل يا سيدي.

- هذا بالطبع يُفسر الأمر، دعني أرى؛ لقد أعطيتني وعدك بأن ثقتي التي أوليتك إياها سوف تُحْتَرم؟ تلك الثقة، ربما أقول إنها بعيدة عن الكمال. لكني على أتم الاستعداد لمنحك بعض الدلائل التي ستكون ذات فائدة. في المقام الأول، لربما سمعتَ أني قمتُ برحلة منذ عامين إلى أمريكا الجنوبية؛ رحلة كلاسيكية في المجال العملي لتاريخ العالم؟ كان الهدف من رحلتي التأكد من بعض الاستنتاجات الخاصة بـ (والاس) و(بيتس)، لم يكن من الممكن التأكد من صحتها إلا عن طريق مراقبة ما أبلغا عنه في نفس الظروف التي لاحظوها بأنفسهم. إذا لم يكن لرحلتي نتائج مغايرة فهي ما زالت جديرة بالملاحظة. لكن وقعت حادثة غريبة في أثناء وجودي هناك وقد أدَّت تلك الواقعة لفتح خط جديد تمامًا من الاستنتاجات.

سكت يلتقط أنفاسه ثم أكمل:

- إنك تدرك -أو لربما لا تفعل خاصة مع نصف التعلم الذي حُزته في عمرك- أن البلاد حول الأمازون وبعض أجزائه لم تستكشف إلا جزئيًّا فقط، وهناك عدد كبير من الروافد التي تصل إلى مصب النهر الأساسي أغلبها مجهول تمامًا. كان عملي متركزًا حول زيارة هذه الأماكن غير المعروفة وفحص الحيوانات القابعة بها، لقد زودتني هذه الزيارة بالمواد اللازمة لكتابة عدة فصول من عملي العظيم البارز في علم الحيوان والذي سيجعل لحياتي مبررًا. كنتُ في طريقي للتقاعُد، وعملي يسير بإتقان كالعادة، عندما أُتيح لي فرصة قضاء ليلة في قرية هندية صغيرة تقع عند نقطة معينة من أحد الروافد -وبالطبع حجبتُ اسمها ومكانها- الذي يصل مباشرة للمصب. كان السكان الأصليون من هنود (كوكاما)، وهو قوم ودودون دمثو الأخلاق لكن عرقهم كان في تدهور، قواهم العقلية بالكاد تتفوق على عقلية لندنية متوسطة. لقد عالجتُ بعضهم بينما ارتحل بمحاذاة النهر، وقد راقت لهم شخصيتي كثيرًا ونالت إعجابهم؛ لذا لم أتفاجأ لما وجدتني صابرًا على ميعاد عودتي. استنتجتُ من خلال إشاراتهم أن هناك شخصًا في أمسِّ الحاجة لمساعدتي الطبية، تبعتُ زعيمهم إلى واحد من أكواخه. عندما دلفتُ وجدتُ الشخص المتألم الذي استدعوني لأجله وقد فاضت روحه في ذات اللحظة. ولدهشتي الشديدة لم يكن هذا الشخص هنديًّا بل رجل أبيض؛ قد أقول إنه رجل أبيض جدًّا، ذو شعر كستنائي ولديه بعض خصائص الْمَهق. ملابسه عبارة عن خرق بالية، يُعاني هزالًا شديدًا ويبدو أنه تحمل مشقات عدة لفترة طويلة. بعد مدة طويلة من الإنصات أمكنني أخيرًا فهم رواية

السكان، لقد كان غريبًا عنهم تمامًا، وصل إلى قريتهم عن طريق الغابة وقد استبدّ به الإرهاق ووصل إلى مراحله الأخيرة.

كانت حقيبة الرجل موضوعة بجوار الأريكة، وقد فحصتُ محتوياتها. وجدتُ اسمه وعنوانه مكتوبًا على وجهها الداخلي- (مابل وايت)، بحيرة أفينيو، ديترويت، ميشيجان. إنه اسم دائمًا ما أكون مستعدًّا لأرفع له قبعتي. ليس من المبالغة القول إن هذا العمل سيصل لمرتبة مرموقة لما يُنْتَهَى منه أخيرًا ويظهر.

من محتويات الحقيبة ظهر أن هذا الرجل فنان وشاعر يبحث عن الإلهام. كانت هناك قُصاصات من قصيدة. بالطبع لا أعُدُّ نفسي حكمًا في مثل هذه الأشياء لكنها بَدَتْ لي -بشكل شخصي- تفتقر للجدارة. بجوار القصائد كان هناك بعض الصور المعتادة لمناظر النهر، صندوق من الطباشير الملون، بعض فرش الرسم، عظمة مُنحنية -انظر إنها موضوعة على طاولتي- فراشات، مسدس رخيص وعدد قليل من الخراطيش. لم يكن معه أي معدات شخصية أو ربما فقدها في أثناء رحلته. هذا كل ما أمكنني ملاحظته أو استنتاجه من هذا البوهيمي الأمريكي الغريب.

شرعتُ أبتعد عنه عندما لاحظتُ شيئًا يسقط من مقدمة سترته الممزقة، عبارة عن كتاب رسومات متهالك كما تراه الآن. في الواقع، يمكنني التأكيد لك أن أول ورقة تخص شكسبير لم تُعامل بذات القدر من الاحترام الذي عُملت به هذه البقايا منذ أصبحت في حوزتي. سوف أقدمها لك الآن، وإنني أناشدك أن تقلبها صفحة تلو أخرى متفحصًا المحتويات.

أعطاني الكتاب، تناول سيجارًا وأراح ظهره للخلف وهو يرمقني متفحصًا بعينين شرستين، محاولًا ملاحظة الأثر الذي سيحدثه هذا الكتاب في نفسي.

فتحتُ الكتاب وكُلِّي أمل في العثور على شيء مُبهِر لم يخطر على بالي. كانت الصفحة الأولى مُخيِّبة للآمال، لم يكن بها شيء مهم باستثناء صورة لرجل بدين، غاية في البدانة يرتدي معطفًا اللون، كُتب تحتها (چيمي كولـ□ر على قارب البريد). الصفحات التالية كانت ممتلئة برسومات صغيرة لقرى الهنود وطرقهم. ثم أتت صورة قس ضخم نسبيًّا وله ملامح وادعة مُبهجة يعتمر قبعة مُقعرة جوانبها مقشورة، يجلس برفقة رجل أوربي شديد النحول، دوَّن تحت الصورة (غداء مع فرا كريستوفورو في روزاريو)(13). الصفحات اللاحقة تحوي دراسات عن النساء والأطفال، ثم هناك سلسلة ممتدة من رسومات الحيوانات مع تفسيرات مثل (خروف البحر(14) على الضفة الرملية)، (السلاحف والبيض الخاص بها)، (الأغوطي الأسود(15) تحت نخلة ميريتي)، تبدو المسألة وكأنها اكتشاف نوع من الخنازير، مثل الحيوانات؛ أخيرًا أتت صفحة مزدوجة من الدراسات المرهقة الطويلة، أنف شامخة وصور غير سارة بتاتًا. لم أتمكن من سبر أغوارها؛ لذا صارحتُ البروفيسور بهذا.

- مؤكد أن هذه مجرد تماسيح؟

- قاطور! قاطور! بالكاد يوجد شيء حقيقي مثل التماسيح في أمريكا الجنوبية. التمييز بينهما....

قاطعته قائلًا:

- قصدي أنني لا أرى شيئًا غير عادي؛ لا يوجد مُبرِّرًا لما قلته.

ابتسم ابتسامة هادئة وقال:

- جرِّب الصفحة التالية.

ما زلتُ غير قادر على التعاطف. كانت الصفحة عبارة عن رسم تخطيطي يُغطي الصفحة بالكامل لمناظر طبيعية ملونة؛ نوع اللوحات التي يرسمها فنان على عجالة في الهواء الطَّلْق حتى تكون نواة لشيء أكبر به تفاصيل أكثر في المستقبل. في المقدمة هناك بساط أخضر من النباتات الريشية، ينحدر صعودًا لأعلى وينتهي بخط من المنحدرات الداكنة حمراء اللون، مُضلع مثير للفضول يشبه بعض التكوينات البازلتية التي سبق ورأيتها. تمددت عبر جدار كامل مباشرة في الخلفية. عند نقطة بعينها كان هناك صخرة معزولة هرمية الشكل، توجت بشجرة ضخمة بَدَتْ كأنها شق فُصل من الصخرة الرئيسية. وخلف كل هذا توجد السماء الاستوائية زرقاء اللون. خط رفيع من البساط النباتي استقرَّ فوق قمة المنحدر المتوردة كالأهداب.

سأني قائلًا:

- حسنًا!

أجبته قائلًا:

- إنه تشكيل مُريب بلا شك، لكني لستُ چيولوچيًّا بما يكفي لأقول إنه رائع.

كرَّر كلامي قائلًا:

- رائع! إنه فريد، مُدهِش. لا أحد على ظهر الأرض حلم بمثل هذا الاحتمال. الآن اقلب الصفحة.

قلبتها، لم أتمالك نفسي وهتفتُ متعجبًا وقد اعترتني دهشة شديدة. كان هناك صورة تحتل الصفحة كلها تُمثل أكثر المخلوقات استثنائية، في حياتي كلها لم أرَ شيئًا مماثلًا. الأمر أشبه بحُلم جامح لمدخن أفيون، أو رؤية قوامها الضلالات والهذيان. الرأس يُشبه رأس طائر، الجسد جسد سحلية مُنتفخة، أما الذيل الطويل فيه نتوءات طولية بارزة تُشبه المسامير، الظهر مُنحنٍ ذو حاشية مسننة أشبه ما يكون بدرزينة من الديكة أو عدد من الأسيجة الموضوعة الواحد خلف الآخر. أمام هذا المخلوق وقف رجل مُضحك الهيئة أو قزم في شكل بشري يحدق فيه.

هتف البروفيسور قائلًا:

- حسنًا، ما رأيك فيما رأيتَ؟

قالها وحكَّ يديه وحوله انتشرت هالة الانتصار. قلتُ:

- إنه هائل، عجيب مُشَوَّه.

- لكن، تُرَى ما الذي جعله يرسم حيوانًا مثل هذا؟

- إنني أفكر أنه لربما كان واقعًا تحت تأثير فخ من فخاخ الجن!

- أوه، هل هذا أفضل تفسير لديك لتقدمه؟! هل هو كذلك؟

- حسنًا يا سيدي، ما تفسيرك؟

- الحقيقة أن هذا المخلوق موجود فعلًا كما يظهر. هذا رسم واقعي يصور مظهرًا من مظاهر الحياة.

كان يجدر بي الضحك، لكنني رأيتنا بعين الخيال مشتبكين أسفل الممر مرة أخرى. قلتُ:

- لا شَكَّ، لا شَكَّ!

قلتها كأنني معتوه في نوبة ضحك ثم أضفتُ:

- إنني مرتبك. مع ذلك، هذا البشري الصغير يصيبني بالحيرة. لو أنه هندي لكان هذا دليلًا على وجود الأقزام في أمريكا، لكن الظاهر أنه أوربي يعتمر قبعة تقيه أشعة الشمس.

عب البروفيسور الهواء بغضب جم وكأنه جاموس وحشي غاضب، قال:

- حقًّا لقد لامست الحدود، إنك تُسهب في تبني نظريتي حول ما هو ممكن. شَلَل دماغي! جمود عقلي! رائع!

كان أحمق للغاية، يحاول جعلي أغضب. في الواقع بدا لي الأمر تبديدًا للطاقة، لو أنك ستغضب لكونك مع هذا الرجل فسوف تغضب على الدوام. اكتفيت بالابتسام بملامح يعلوها الضجر وقلت:

- كون الرجل صغيرًا جدًّا سبب لي صدمة.

صاح قائلًا:

- انظر هنا!

مَالَ إلى الأمام وأشار إلى موضع بعينه بأصبع مكسو بالشعر يشبه السجق، قال:

- هل ترى هذه النباتات المنتشرة خلف الحيوان؛ أفترض أنك عددتها نباتات الهندباء أو براعم بروكسل، ماذا؟ حسنًا إنه نخيل عاجي نباتي، يرتفع حتى يصل طوله لخمسين أو ستين قدمًا. ألا ترى أن هذا الرجل يقف هنا لغرض ما؟ حقيقةً لم يكن بمقدوره الوقوف أمام هذه البهيمة والعيش لرسمها. لقد رسم نفسه ليبين مقدار الارتفاعات. دعنا نقل أنه يبلغ خمسة أقدام طولًا، ومن ثم فالنخيل أكبر منه بعشر مرات على الأقل، ما الذي يُمكن أن يتوقعه المرء؟

هتفتُ بصوت عالٍ:

- يا للسماء! إذن أنت تظن أن الوحش كان.. بالكاد تصلح محطة تشارينج كروس(16) كمأوى لمثل هذا الشيء!

قال البروفيسور برضا تام:

- بغض النظر عن المبالغات، بالتأكيد إنه عينة نمت وترعرعت جيدًا.

صحتَ:

- لكن، مؤكد لا يمكننا إهمال خبرة الجنس البشري قاطبة اعتمادًا على رسم واحد.

تحوَّلتُ إلى الأوراق من جديد وتأكدتُ من عدم وجود شيء آخر في الكتاب ثم أكملتُ:

- رسم واحد، رسمه فنان أمريكي متجول قد يكون رسمه تحت تأثير المواد الْمُخدرة! أو بسبب الهذيان الذي تُسَبِّبُه الحُمَّى، أو ببساطة شديدة إرضاءً لخيال خصب عجيب. لا يمكنك كونك رجلًا من رجال العلم الدفاع عن فرضية مثل هذه.

من أجل الإجابة تناول البروفيسور كتابًا من على الرفِّ، وقال:

- هذا الكتاب عبارة عن دراسة ممتازة قام بها صديقي الموهوب، (راي لانكستر)(17)، هناك تفاسير عدة هنا قد تُثير اهتمامك. آه، حسنًا ها هي ذي! تأمل الكلام أسفلها (من المحتمل ظهور الديناصور الچوراسي ستيجوسورس(18) على قيد الحياة. ساقه الخلفية وحدها تُعادل ضعف طول الرجل البالغ). حسنًا، ماذا ستفعل حيال هذا؟

وضع الكتاب المفتوح في يدي. حملقتُ في الصورة مُتفحِّصًا. هذا حيوان أُعِيد بناؤه من عالم ميت، بالتأكيد هناك تشابه لا يمكن إغفاله بينه وبين رسم فناننا المجهول.

قلتُ:

- بالتأكيد هذا أمْر استثنائي.

- لكنك لن تعترف بأن هذه النهاية، صحيح؟

- ربما كانت مصادَفة، أو أن الأمريكي رأى صورة لهذا النوع من قبل وقد احتفظ بها في ثنايا ذاكرته. يُخيل إليَّ أن هذا أمر وارد خاصة إذا ما كان يعاني الهذيان.

قال البروفيسور بلهجة متساهلة:

- جيد جدًّا، سنترك الأمر على ما هو عليه. الآن أطلب منك أن تنظر إلى هذه العظْمة.

أعطاني العَظْمة التي قال إنها من ممتلكات الرجل الميت. طولها نحو ست بوصات وأكثر سُمكًا من إبهامي، بها بعض المؤشرات على جفاف الغضروف في أحد طرفيها.

سألتُ البروفيسور:

- إلى أي من المخلوقات المعروفة تنتمي هذه العَظْمة؟

فحصتها بعناية محاولًا استعادة جزء من معرفتي نصف المنسية. قلتُ:

- إنها تصلح كعظْمة ترقوة بشرية سميكة للغاية.

لوَّح البروفيسور بيده متهكمًا، وقال:

- ترقوة الإنسان منحنية أما التي في يديك فمستقيمة. هناك أخدود عميق على سطحها يدل على أنه كان هناك وتر يتحرك داخله، وطبعًا هذا لا يمكن أن يحدُث في ترقوة.

- إذن يجدر بي الاعتراف بأنني لا أعرف ما هذه.

- لا تكن خجلًا من إظهار جهلك! لا أظن أن كل موظفي ساوث كينسينجتون يمكنهم تسميتها.

تناول عظمة صغيرة بحجم حبة الفول من عُلبة حبوب وقال:

- وبقدر ما أنا قاضٍ، أقول: إن هذه العظْمة البشرية هي نظير التي تُمسكها بين يديك. من شأن هذا أن يعطيك أفكارًا عن حجم المخلوق الذي تخصه. يمكنك الملاحظة أن هذه ليست عينة أحفورية نظرًا لوجود بقايا الغضاريف بها، إنها حديثة تمامًا! ما رأيك في هذا؟

- حدسي يُخبرني بأنها لفيل بالتأكيد.

أجفل كما لو أنه يتألم. وقال بلهجة غاضبة:

- لا تفعل! لا تتحدث عن الأفيال طالما نحن في جنوب أمريكا. حتى في أيام المدارس الداخلية..

قاطعته قائلًا:

- حسنًا، حيوان آخر من حيوانات جنوب أمريكا الضخمة – التابير (19) على سبيل المثال.

- يُمكِنُك أخذُ الأمْر أيها الشاب، إنني ضليع بعناصر عملي. إن هذه العظمة لا يمكن تصور وجودها سواء من تابير أو من أي مخلوق آخر عرفه علم الحيوان. إنها تنتمي لأطول وأقوى، وبكل المقاييس المعروفة أشرس حيوان سبق ووُجِدَ على سطح الأرض يومًا، لكنه لم يخضع يومًا للمعاينة والملاحظة العلمية. ما زلت لم تتوقعه بعد؟

- أقلها أنني شديد الاهتمام به.

- إذن قضيتك ليست ميئوسًا منها. أشعر بأن هناك سببًا يتوارى عنك في مكان ما؛ لذا سوف نبحث عنه بصبر. الآن سنترك الأمريكي الميت ونواصل حديثنا استنادًا إلى قصتي. لك التخيل أنني بالكاد أستطيع الابتعاد عن الأمازون دون التعمُّق في الأمر. كان هناك علامات من ذات الجهة التي أتى منها المسافر الذي قضى نحبه. وحدها الأساطير الهندية القديمة كانت مرشدتي، وجدتُ الكثير من الشائعات الدائرة بين قرى النهر جمعًا حول أرض غريبة. هل سمعت عن كروبوري؟

- أبدًا.

- كروبوري هي روح الغابة، شيء فظيع، حاقِد، شيء يجب تجنُّبه. لا يقدر أحد على وصف شكلها أو طبيعتها، لكن اسمها ذاته يثير الرعب بامتداد الأمازون. تتفق جميع القبائل فيما بينها على الاتجاه الذي تعيش فيه الكروبوري. إنه ذات الاتجاه الذي أتى منه الأمريكي. هنالك شيء رهيب يسكن هذا الطريق. كان عملي يقتضي معرفة كنهه.

- ما الذي فعلته؟

الآن ذهبت وقاحتي كلها. إن هذا الرجل الضخم يُجبر المرء على الاهتمام والاحترام لكل ما يقول.

قال:

- بصعوبة تغلبتُ على معارضة السكان المستميتة -تلك المعارضة وصلت لحد منع الكلام عن هذا الموضوع- أعترف بأنني فعلتُ ذلك مستعينًا ببعض التهديدات والإكراه، وظفتُ اثنين منهم مرشدين. بعد الكثير من المغامرات التي لا أحتاج إلى وصفها، والسفر لمسافات سأُحجِم عن ذكرها، في الاتجاه الذي حجبته بدوره، وصلنا أخيرًا إلى منطقة من البلاد لم تُكتشف أو يأتي أحد على ذكرها أبدًا، لا، في الواقع لم تطأها قدم إلا قدم سلفي البائس. هل من الممكن أن تنظر لهذا؟

أعطاني صورة يبلغ حجمها نصف الحجم الاعتيادي وقال:

- إن المظهر غير المرضي لها يرجع لحقيقة أنه عندما نزلنا النهر كان القارب في حالة يُرثى لها، والحافظة التي وضعنا فيها أفلام التصوير البدائية التي كنا نستعملها آنذاك مهترئة، وهو ما قاد في النهاية إلى نتائج كارثية. لما فتحتُ الحافظة وجدتُ أكثرهم وقد تدمر تمامًا؛ خسارة لا يمكن تعويضها تقريبًا. هذه الواحدة من القِلَّة التي نجتْ جزئيًّا من رحلتنا. هذا التفسير لأوجه النقائص والعيوب سوف تتفضل بقبوله. بالطبع كان هناك أحاديث عدة حول التزييف، لكني لستُ في مزاج رائق للخوض في مثل هذا الموضوع.

مما لا شكَّ فيه أن الصورة كانت باهتة للغاية. ولربما قام ناقدٌ قاسٍ بإساءة تفسير تلك البقعة المعتمة على سطحها بسهولة. كانت عبارة عن مشهد رمادي باهت اللون، وعندما تمكنتُ من فكِّ رموز تفاصيلها أدركتُ أنها تُمثل خطًّا طويلًا عاليًا للغاية من المنحدرات تمامًا مثل الإعتام الهائل لعدسة العين الذي يُشاهد على بعد مسافة، بجانبه سهل مائل مُغَطًّى بالأشجار في مقدمته.

قلتُ بعد تفكير:

- أظن أن هذا هو ذات المكان الذي صورته اللوحة.

أجابني البروفيسور قائلًا:

- إنه ذات المكان، لقد وجدتُ آثارًا من مخيم الأمريكي. الآن انظر إلى هذا.

كان ما عرضه البروفيسور مشهدًا مُقاربًا لذات المشهد فعلًا رغم أن الصورة كانت معيبة بشدة فإنني كنتُ قادرًا على رؤية المنطقة المعتمة بوضوح، والقمة الشجرية التي انفصلت عن الصخور. قلتُ:

- ليس لديَّ شك في ذلك على الإطلاق.

قال البروفيسور:

- حسنًا، يُعَدُّ هذا مكسبًا إلى حدٍّ ما، إننا نُحرز تقدمًا، ألا نفعل؟ والآن، هلَّا تكرمت ونظرت إلى القمة الصخرية؟ هل أمكنك رصد شيء ما هناك؟

- شجرة هائلة الحجم.

- لكن هل يوجد شيء على الشجرة؟

قلتُ:

- طائر طويل عظيم الحجم.

أعطاني عدسة مكبرة وطلب مني إعادة النظر. قلتُ وأنا أضع العدسة على الصورة:

- نعم، طائر كبير يقف على أغصان الشجرة. يظهر أن لديه منقارًا ضخمًا. يجدر بي القول بأنه بجعة!

قال البروفيسور:

- لا أستطيع تهنئتك على حِدَّة بصرك! إنه ليس بجعة، في الواقع إنه ليس طائرًا أصلًا. ربما يثيرك معرفة أنني تمكنتُ من إطلاق النار على هذه العينة بالذات. هذا تحديدًا هو الدليل الوحيد على تجربتي تلك وذاك لأني تمكنتُ من إحضاره معي.

- إذن هي لديك؟

أخيرًا بات هناك دليل ملموس.

- كانت لديَّ، لقد فُقِدَتْ للأسف مع الكثير من الأشياء الأخرى بسبب تخبُّط القارب الذي دمَّرَ صوري كذلك. كنتُ أتعلق به وهو يختفي في دوامات النهر العميقة، كل ما بقي منه كان قطعًا من جناحه علقت في يدي. لم أكن مدركًا لهذا حتى غسلتُ يدي على الشاطئ، ومع ذلك كانت البقايا البائسة من عينتي الرائعة لاتزال سليمة؛ والآن أضعها نصب عينيك.

من أحد الأدراج أخرج ما خُيِّل إليَّ أنه الجزء العلوي من جناح خفاش هائل الحجم. على أقل تقدير طوله قدمان، عظْمُه مُنحنٍ ويُغلِّفُه غشاء رقيق. قلتُ مقترحًا:

- خفاش وحشي!

قال البروفيسور بنبرة غليظة قاسية:

- لا يوجد نوع مثل هذا على قيد الحياة، كما أفعل عادة في وسط علمي يمتاز بالثقافة، لا يمكنني التصور أن المبادئ الأولى لعلم الحيوان لا يعلمها إلا القليل. من الممكن أنك جاهل تمامًا بعلم التشريح المقارن، ومن ثم لا تعلم أن جناح الطائر في الحقيقة عبارة عن ساعد، بينما جناح الخفاش عبارة عن ثلاثة أصابع ممتدة بينها أغشية. والآن، في هذه الحالة، مؤكد أن هذه العَظْمة ليست ساعدًا، يُمكنك بكل بساطة أن ترى أن هذا عبارة عن غِشاء واحد يغطي عظمة واحدة؛ لذا من الجليِّ أن هذه العظمة لا تعود لخفاش. لكن لو لم تكن تخص طائرًا أو خفَّاشًا، فما هذا المخلوق إذن؟

مخزوني الصغير من المعرفة بات فارغًا. قلتُ:

- أنا حقًّا لا أدري.

أمسك المرجع الذي رشحه لي سلفًا وقام بفتحه.

- هنا، قالها وأشار إلى صورة بها وحْش طائر غريب الهيئة، ثم أكمل:

- إنه استنساخ ممتاز للديمورفودون(20) أو الزاحف المجنح! وهو زاحف طائر عاش إبان العصر الچوراسي. في الصفحة التالية رسم تخطيطي لآلية أجنحتها. يمكنك ببساطة مقارنتها بالعينة التي بين يديك.

اجتاحتني موجة من الدهشة أعجزتني عن أيِّ رد فعل لَمَّا نظرتُ. كنتُ مرتبكًا بشدة. لا يوجد مفر من ما نحن بصدده هنا. الإثباتات المتراكمة كانت ساحقة. الرسم، الصورة، رواية البروفيسور، والآن مع العينة الفعلية بات الدليل كاملًا؛ لذا قلتُ - قلتُ بحرارة؛ لأن البروفيسور بدا مريضًا- كحلة مستعملة، أراح ظهره على كرسيه بجفون نصف مغلقة ونظرة ناعسة، ووجهه اعتلته ابتسامة متسامحة، يستدفئ بهذا الوميض المفاجئ من أشعة الشمس.

- إنه فقط أضخم شيء سمعت عنه في حياتي! يبدو أن حسي الصحفي وليس العلمي هو ما شعر بالإثارة، تابعتُ قائلًا:

- إنه هائل! إنك كولومبوس(21) العلم الذي اكتشف العالم المفقود. إنني شديد الأسف لكوني شككتُ فيك. شيء لا يمكن تصوره ببساطة. لكني أفهم الدليل عندما أراه، يجب أن يكون هذا كافيًا لأي أحد.

تهلَّلت أسارير البروفيسور. سألته:

- والآن، ما الذي ستفعله تاليًا يا سيدي؟

أجابني قائلًا:

- لقد كان موسم الأمطار سيد (مالون)، وقد نفدت قصصي. لقد استكشفتُ جزءًا من الجرف الضخم، لكني لم أقدر على إيجاد طريقة لفحصه مدققًا على نطاق واسع. كانت الصخرة هرمية الشكل التي رأيتها وأطلقتُ من عندها النار على الطائر أكثر سهولة. بدأتُ تسلق الصخور، ووصلت بالفعل لمنتصف الطريق إلى القمة. من هذا الارتفاع كونت فكرة لا بأس بها عن الهضبة الرابضة على قمة الجرف. يبدو أنها شاسعة؛ سواء نظرت إلى الشرق أو الغرب لا يمكنني رؤية نهاية للمنحدرات المكسوة بالأخضر. وأسفل كل هذا هناك منطقة من المستنقعات، الغابات الممتلئة بالثعابين، الحشرات، الحمى. إنها الحماية التي توفرها الطبيعة لهذا البلد المتفرِّد.

- هل رأيت أي آثار أخرى للحياة؟

- لا يا سيدي، لم أفعل؛ لكن خلال الأسبوع الذي خيمنا فيه هناك التقطت آذاننا أصواتًا غريبة آتية من أعلى قاعدة الجرف.

- لكن ماذا عن المخلوق الذي رسمه الأمريكي؟ كيف تحسبت له؟

- لم يكن بوسعنا شيء سوى افتراض أنه إذا شق طريقه إلى هنا فلا بد أن يمر بالقمة وعندئذٍ كنا سنراه هناك. كنا نعلم أن هناك طريقًا لأعلى وأيضًا نعلم أنه صعْب للغاية. وإلا فإن المخلوقات التي تعيش هناك كانت ستهبط الجرف إلى البلد الذي يُحيط به. هل هذا واضح؟

- لكن كيف جاءوا إلى هنا من الأساس؟

قال البروفيسور:

- لا أظن أنها مشكلة غامضة بشكل كبير، هناك تفسير واحد فقط. إن أمريكا الجنوبية كما لا بُدَّ وأنك سمعتَ قارة جرانيتية(22). في هذه البقعة بالذات، في جوفها تحديدًا، في عصر بعيد قديم، حدثت اضطرابات وثوران بركاني. هذه الجروف، دعني أخبرك أنها بازلتية نشأت من مواد جوف الأرض. هناك مساحة ربما كبيرة مثل ساسكس(23)، رُفِعَت كُتلة واحدة بكل محتوياتها الحية، يفصلها عما حولها منحدرات عمودية صلدة وقفت في وجه عوامل التعرية ولم تتآكل لتذوب في القارة حولها. ما نتيجة كل هذا؟ ولماذا؟ عُلق العمل بقوانين الطبيعة الاعتيادية. الضوابط المختلفة التي تؤثر في غريزة البقاء والنضال من أجل الوجود في العالم حُيِّدَت أو بُدِّلَت. المخلوقات التي كانت ستختفي كما تقتضي القوانين، عاشت. بالتأكيد لاحظتَ أن الزاحف المجنح والستيجوسورس كلاهما من العصر الجوراسي؛ لذا فإنهما عاشا منذ عمر عظيم في ترتيب الحياة. لقد وجدتهم بشكل غير طبيعي -اصطناعي- تلك الظروف العارضة الغريبة.

- لكن من المؤكد أن أدلتك قاطعة، كل ما عليك فعله هو عرْضُها على الجهات المختصة.

قال البروفيسور بلهجة تشوبها المرارة:

- لقد تخيلتُ ذات الأمر ببساطتي، لكن يمكنني فقط إخبارك بأن الأمور لم تَسِرْ على هذا النحو، لقد قُوبِلت في كل مرة بالتعجب الذي سرعان ما يتحول إلى شك مطلق، وهو في الواقع وليد الغباء والغيرة. ليس من طبيعتي يا سيدي أن أتذلل لأى رجل مهما كان، أو السعي لإثبات حقيقة كلامي إذا كان موضع شك. بعد كلامي عن الأمر لأول مرة لم أتنازل وأعرض مثل هذه الأدلة المؤيدة، التي أمتلكها. بات الموضوع مكروهًا بالنسبة لي وعزفتُ عن الخوض فيه. عندما يأتي إليَّ رجال مثلك، يُمثلون فئة حمقاء فضولية من العامة ليعكروا صفو خصوصيتي، كنت عاجزًا عن مقابلتهم برصانة واحتياط. إنني أتميز بطبيعة -حسنًا يجب أن أعترف- نارية، وعند استفزازي أميل إلى العنف. أخشى أنك لاحظت ذلك بدورك.

نظرتُ إليه مُتأدِّبًا وظللتُ صامتًا. أكمل قائلًا:

- لقد عارضتني زوجتي مرارًا وتكرارًا بسبب هذا الموضوع، مؤخرًا أدركتُ أن أي رجل شريف سيشعر بنفس الشيء. الليلة مثلًا لقد أعطيتُ برهانًا قويًّا على سيطرتي وتحكُّمي في العواطف. إنني أدعوك لحضور العرض.

أعطاني بطاقة من على مكتبه واسترسل:

- ستكتشف أن السيد (بيرسيفال والدورن)، عالم الطبيعة ذائع الصِّيت، سيلقي محاضرة في تمام الثامنة والنصف في قاعة معهد علم الحيوان بعنوان (سجل العصور). لقد تلقيتُ دعوة خاصة للحضور على المنصة، وشُكر المحاضر بنفسي. في أثناء القيام بذلك سأحول الأمر وأتطرق للحديث عن أعمالي بلباقة ودِقَّة منقطعة النظير، مرورًا ببعض الملاحظات التي من شأنها إثارة اهتمام الجمهور وحثهم على التعمُّق في الموضوع. لا شيء مثير للجدل، أنت تفهم، فقط بعض الإشارات أن

هناك شيئًا أكبر وأعمق خلف كل هذا الحديث. يجب عليَّ كبح زمام نفسي بقوة، ومن يدري لربما حققتُ نتيجة أفضل عن طريق ضبط النفس.

سألته بلهفة:

- ويمكنني الحضور؟

أجابني بحرارة:

- بالطبع يمكنك.

لديه أسلوب هائل قوي وطريقة غاية في العبقرية، تقريبًا بذات قوة عنفه. ابتسامته الطيبة كانت شيئًا رائعًا، فيها يتحوَّل خداه فجأة تفاحتين لونهما أحمر، يبرزان من بين عينيه نصف المغمضتين ولحيته السوداء العظيمة. قال بعد صَمْتٍ لم يطل:

- بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ يمكنك الحضور. سيكون شيئًا باعثًا على السرور أن أعلم أنه لدي حليف واحد في القاعة، حتى لو كان غير فعَّال وجاهل بالموضوع. سيكون الجمهور كبيرًا كما أظن من أجل (والدرون)، على الرغم من أنه دجال كبير، فإن عددًا من المشاهير يتابعونه. والآن سيد (مالون)، لقد منحتك من وقتي أكثر مما كنتُ أنوي. يجب على الفرد ألا يحتكر ما هو مقصود للعالم. ستسعدني رؤيتك في المحاضرة هذه الليلة. في غضون ذلك، يجب أن تدرك أنه محظور عليك إبراز أي مواد من التي عرضتها عليك للعامة.

- لكن السيد (مكاردل) -محرري الأدبي كما تعلم- سيكون راغبًا في معرفة ما الذي فعلته.

- أخبره بما تحب، يمكنك إخباره من بين عِدَّة أمور أخرى أنه إذا أرسل شخصًا آخر للتطفل عليَّ، سأطلب منه الرحيل باستخدام السوط! سأترك الأمر بين يديك، لا شيء من هذا سيُطبع. لا تنسَ معهد علم الحيوان في الثامنة والنصف ليلًا.

كان لديَّ انطباع آخر عن تلك الخدود الحمراء واللحية السوداء المتموجة، والعيون غير المتسامحة وهو يقودني خارج الغرفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

سؤال!

كنتُ منهكًا جسديًّا بعد حواري الأول مع البروفيسور (تشالنچر)، وبتُّ مُنهكًا عقليًّا بعد الثاني، لما وصلتُ (إنمور بارك) مرة أخرى كنتُ مجرد صحفي مُحْبَط. وفي رأسي الذي أنهكه الصداع كانت هناك فكرة واحدة: قصة هذا الرجل حقيقية تمامًا، وبالطبع عواقبها وخِيمة، سيكون تقرير هذه القصة عملًا لا يمكن تخيله -خاصة في جريدة جازيت- عندما أحصل على الإذن منه لنشر ما أعلمني به. هنالك سيارة أجرة تنتظر في نهاية الطريق؛ لذا ركبتها وتوجهتُ إلى المكتب. (مكاردل) كان في مكتبه كالعادة.

لما رآني هتف مترقبًا:

- حسنًا، ما الذي توصلت إليه؟ إنني أتساءل أيها الشاب، تبدو قادمًا من ساحة حرب ضروس. لا تخبرني أنه اعتدى عليك!

- في البداية كان لدينا اختلاف بسيط.

- أي رجل هو هذا! ما الذي فعلته؟

- لم يستغرق وقتًا طويلًا حتى أصبح أكثر عقلانية ومن ثم تحاورنا. لكنني لم أحصل منه على شيء للنشر تحديدًا.

- لستُ متيقنًا من هذا. لقد جعل عينيك سوداء من الكدمات، وهذا يصلح للنشر. لا يمكنُنا تحمل هذا الإرهاب هذا طويلًا يا سيد (مالون). يجب علينا اقتياد هذا الرجل إلى الاتجاه الذي يستحقه. غدًا سأكون مالكًا لزمام أمره وهذا من شأنه أن يُصيبه بالسعار. فقط أعطني المواد التي أحتاج إليها وسوف أحرص على جعلها علامة مسجلة إلى الأبد. (البروفيسور مونخهاوزن)، ما رأيك في هذا العنوان؟ وماذا عن السير جون ماندفيل(24)، تاريخ المحتالين والمتسلِّطين؟ سأريه أي محتال هو.

- لو كنت مكانك ما كنتُ لأفعل هذا يا سيدي.

- ولمَ لا؟

- لأنه ليس محتالًا على الإطلاق.

هدر (مكاردل) بصوتٍ غاضب:

- ماذا! أنت حقًّا لا تصدق هذه الأشياء التي يتفوه بها عن الماموث، الماستودون(25)، حية البحر العظيمة(26)، أليس كذلك؟

- حسنًا، إنني لا أعلم عن هذه الأشياء. لا أظن أنه ادَّعى معرفته بشيء من هذا النوع. ومع ذلك يمكنني الزعم أن لديه بعض الأشياء الجديدة.

- بحق السماء يا رجل، اكتب ما لديك على الفور!

- إنني أتوق لذلك، لكن كل ما أعرفه أن الرجل أولاني ثقته بشرط واحد فقط وهو ألا أفعل ما تطلبه أنت تحديدًا.

بالطبع اختصرت بعض الجمل التي قالها البروفيسور، أكملتُ:

- هذا هو الوضْع.

أخذ (مكاردل) يرمقني بنظرات مُرتابة. أخيرًا قال:

- سيد مالون، فيما يخص ذلك الاجتماع العلمي الذي سيقام الليلة؛ لا يمكن أن يكون هناك خصوصية بشأن هذا بأي طريقة كانت. ومع ذلك لا أفترض أن هناك ورقةً معينة تريد الإبلاغ عنها لـ(والدون)، لقد أَبْلِغَ عنها بالفعل عشرات المرات قبلًا، لا أحد يدرك أن (تشالنجر) سيتحدث. لربما نحصل على السبق الصحفي إذا كنا محظوظين بما فيه الكفاية. على كل حال سوف تكون هناك؛ لذا سوف تعطينا تقريرًا مُتقنًا أنيقًا. سأترك المساحة فارغة حتى منتصف الليل.

يومي كان مشغولًا، تناولتُ عشاءً مبكرًا في النادي برفقة (تارب هنري)، الذي أعطيته بعض المعلومات عن مغامراتي الصباحية.

أصغى إليَّ جيدًا وعلى وجهه الهزيل ارتسمت ابتسامة متشككة، هدر ضاحكًا بصوت عالٍ عندما أخبرته أن البروفيسور أقنعني. لما هدأ قال لي:

- أيها الشاب العزيز، إن الأشياء في الحياة الواقعية لا تحدث بهذه الطريقة. إن الناس لا يعثرون على اكتشافات هائلة ومن ثم يفقدون أدلتهم بهذه البساطة. دَعْنَا نترك هذا للروائيين. قصة هذا الزميل ممتلئة بالحيل مثل بيت القرود في حديقة الحيوان. كل شيء عبارة عن هراء!

قلتُ له:

- لكن ماذا عن الشاعر الأمريكي؟

- ببساطة، إنه لم يوجد قط.

- لقد رأيتُ كتاب الرسم خاصته.

- بل رأيتَ كتاب الرسم الخاص بـ(تشالنجر).

سألته:

- هل تظن أنه رَسَمَ هذا الحيوان؟

أجابني بنبرة واثقة:

- بالطبع فعل، ومَنْ غَيرُهُ؟

سألته مجددًا:

- حسنًا، ماذا عن الصورة؟

قال لي:

- لم يكن هناك شيء في الصورة، وفقًا لما وصفته فقد رأيت طائرًا فقط.

- بل رأيتُ الزاحف المجنح (التيروداكتيلوس)!

- هذا ما قاله هو. لقد وضع هذا الزاحف المجنح في رأسك.

- ربما كنت محقًّا، إذن ماذا عن العظْمة؟

- أولًا: سأطلب طبقًا من الحساء الأيرلندي! ثانيًا: رُقِّعَ من أجل المناسبة. إذا كنتَ ذكيًّا وتعرف عملك جيدًا فبإمكانك تزييف عظْمة بنفس سهولة تزييف صورة.

بدأتُ أشعر بعدم الارتياح. ربما، بعد كل شيء، كنت سريعًا في رضوخي. فجأة راودتني فكرة سعيدة. سألته قائلًا:

- هل ستحضر الاجتماع؟

شرد (تارب هنري) متفكرًا، ثم قال:

- إنه ليس شخصًا محبوبًا، هذا الـ(تشالنجر) اللطيف، الكثير من الناس لديهم حسابات لتسويتها معه. يجب أن أعترف بأنه قد يكون أكثر رجل مكروه في لندن. إذا التفت طلاب الطب عن دراستهم سينالون من هذا الوغد. إنني لا أريد دخول عرين الدب.

- أقلها يُمكنك إنصافه عن طريق الاستماع إليه فيما يعرض قضيته.

- حسنًا، ربما هذا هو الشيء الوحيد العادل. على كُلٍّ، أنا رجلك لهذه الأمسية.

عندما وصلنا إلى القاعة وجدتُ فيها جمعًا غفيرًا على عكس ما توقعتُ. خط من الْمَركبات الكهربية التي أفرغتْ حمولتها الصغيرة من الأساتذة بيض اللحى. بينما تيار مُظلم من المشاة المتواضعين المحتشدين في المدخل الشبيه بالقوس، الذين أظهروا أن الجمهور من العامة والمهتمين بالعلم والعلماء. في الواقع، بات ملحوظًا لنا -بمجرد حصولنا على مقاعدنا- أن الشباب -بل وحتى الفتيان- منتشرون في المعرض والأقسام الخلفية للقاعة. لما نظرتُ خلفي أمكنني رؤية صفوف من وجوه طلاب الطب المألوفة.

يبدو أن المصحَّات الكُبرى أرسلت فرقها الخاصة. في الوقت الحالي كان سلوك الحاضرين يميل للمشاكسة؛ لكنها مشاكسة لاذعة. رُدِّدَت حولنا أهازيج من أغانٍ شعبية بحماسة بَدَتْ لي تمهيدًا غريبًا لمحاضرة علمية، وبالفعل كان هناك ميل شخصي للمزاح الجذل الذي يعد الآخرين بأمسية سعيدة، مهما بَدَا مُحرجًا لأولئك الذين سينالون التكريم الليلة.

وهكذا، ظهر الطبيب العجوز (ميلدورم) مرتديًا قبعة الأوبرا الخاصة به -ويبدو شعره المجعد واضحًا أسفلها- على المنصة، هنالك استفهام أو مثل عالمي يقول: «من أين حصلت على هذه القبعة؟». لم

يلبث أن رفعها عن رأسه بعجالة وأخفاها خلسة تحت كرسيه. لما خَطا البروفيسور (وادلي) نازلًا إلى مقعده بخطوات عرجاء بسبب آلام النقرس التي يُعانيها تفشى في المكان شعور عام بالعاطفة، وعجت أرجاء القاعة بالاستفسارات خاصة عن حالة قدمه وأصابعها المسكينة، مما سبب له حالة واضحة من الإحراج. عندما دلف أحد معارفي الجدد، البروفيسور (تشالنجر)، عبر القاعة ذاهبًا لمكانه الكامن في الطرف الأقصى من الصف الأمامي للمنصة. كسرت صيحة ترحيب عالية الصمت عندما ظهرت لحيته السوداء أولًا، التفتُّ حولي باحثًا عن مصدرها وقد بدأ الشك يتسلل إليَّ في أن (تارب هنري) محق في تكهناته، لم تأتِ كل هذه الحشود إلى هنا من أجل المحاضرة فقط، لكن من أجل الشائعات التي تحدثت عن مشاركة البروفيسور الشهير فيها.

كان هناك بعض الضحكات المتعاطفة في أثناء دخوله صدرت عن الجالسين في المقاعد الأمامية وهم يرتدون ملابس فخمة بالمناسبة، كما لو أنه برهان على أن الطلاب في هذه الحالة لا يرحبون به.

بَدَتْ تلك التحيَّة، في الواقع، كانفجار صوتي مُروِّع، مثلها مثل الصخب الصادر عن أقفاص آكلات اللحوم عندما تَسْمع خطوات -دلو- الحارس من مسافة بعيدة. بدا لي هذا الصوت مُشبعًا بنغمة أو لحن هجومي، ومع ذلك صعقني بشكل رئيسي كونه مجرد صرخة شغب. إن الاستقبال الصاخب لا يكون إلا لشخص يُبْهِجُهم ويهتم بهم، وليس لشخص يبغضونه أو يحتقرونه. ابتسم (تشالنجر) ابتسامة مرهقة تقتر احتقارًا وتسامحًا، كرجل لطيف يُزيل فضلات الجراء فيما هي تتواثب نابحةً حوله. جلس بروية، أراح ظهره على كرسيه، ونفخ صدره بزهو، أخذ يمرر يده على لحيته من أعلى إلى أسفل، بينما تطلع إلى القاعة أمامه بعيون جفونها متدلية وتعلوها نظرة شامخة متغطرسة. لم تكن الضجة التي سببها مجيئه قد خَفَتَتْ عندما شق البروفيسور (رونالد موري) رئيس المعهد، والبروفيسور (والدورن) المحاضر، طريقهما إلى الأمام، وعندئذٍ بدأت الفعاليات.

إن البروفيسور (موري)، حسنًا، إنني متأكد أنه سيسامحني إذا قلتُ إن لديه الخطأ الشائع عند أغلب الإنجليز وهو أنه من الْمُتَعَذَّر سماعه. لماذا على الأرض يحتاج الناس -الذين لديهم ما يقولونه وخاصة إذا كان يستحق الاستماع إليه- إلى عناء ومجهود ليعلموا كيفية جعل آرائهم مسموعة؟! إن هذا الأمر واحد من أسرار الحياة العصرية الغريبة. إن أساليبهم معقولة مثل محاولة سكب الأشياء الثمينة الآتية من ينبوع في خزان خلال أنبوب رديء التوصيل، والذي يُمكن فتحه بأقل جهد ممكن. أدلى البروفيسور (موري) بالعديد من الملاحظات البليغة المشبعة بالفكاهة حول ربطة عنقه وإبريق الماء الموضوع على الطاولة، والذي أخذ يتلألأ بضوء الشمعدان الفضي الموضوع على يمينه. ثم جلس مكانه، قام السيد (والدورن)، المحاضر الشهير من مقامه وسط دوامة من التصفيق الحار.

رجل صارم هو، نحيل، له صوت خشن وطريقة عدوانية، لكنه يمتاز بقدرة استيعاب ومعرفة أفكار الرجال الآخرين، ثم تمريرها وشرحها بطريقة واضحة تُثير اهتمام العامة من الناس، لديه موهبة نادرة في جعل أكثر الأشياء صعوبة مضحكة وفكاهية؛ لذا باتت أشياء مثل (مقدمة الاعتدال) أو (تشكيل الفقريات) أشبه بدعابة جيدة عندما يشرحها.

كانت نظرة ثاقبة للخلق -أشبه بمنظور عين الطائر السينمائي- كما يُفَسِّرها العلم، بلغته الواضحة دائمًا والرائعة أحيانًا، وقف أمامنا متبسطًا. أخبرنا عن الكون، كتلة ضخمة من الغاز المشتعل الذي انفجر

خلال السماوات. ثم صور لنا عمليتي التبريد والتصليب، النتوءات أو التجاعيد التي شكلت الجبال، البخار الذي تحول لماءٍ، والتحضير البطيء للمسرح الذي تقرر لعب دراما الحياة التي لا يمكن تفسيرها عليه. أما فيما يخص أصول الحياة ذاتها ألفيته متحفظًا غامضًا بطريقة مُبهمةٍ. إن الجراثيم التي لم يوجد غيرها في البداية بالكاد أمكنها النجاة من التحور الأصلي، لقد أذعن أن الحساء البدائي(27) عملية شبه مؤكدة إلى حدٍّ ما. ومن ثمة باتت متطورة لاحقًا. تُرَى هل أوجدت نفسها حقًّا من تبريد العناصر غير العضوية المنتشرة في الكون؟ إنه أمر مرجح جدًّا. أيعقل أن هذه الجراثيم وصلت هنا آتية من الفضاء الخارجي على متن نيزك؟

هذا أمر يصعب تصوُّرُه. على كُلٍّ إن أكثر الرجال حكمةً هو أقلهم يقينًا في هذه النقطة. لقد عجزنا، أو أقلها لم ننجحْ حتى الآن في تخليق حياة عضوية من مواد غير عضوية داخل معاملنا. هنالك هوة سحيقة بين الأموات والأحياء لم تتمكن كيمياؤنا من مد جسورها إليها. لكن هناك كيمياء أعلى وأكثر دقة هي كيمياء الطبيعة، التي تعمل بقوة مهولة على فترات غاية في الطول، ومن ثم قد تُسْفِر عن نتائج مستحيلة بالنسبة لنا؛ عند هذا الحد يجب ترك المسألة.

في النهاية قادَ هذا النقاش المحاضر للتطرُّق إلى الحديث عن سلم الحياة الحيوانية العظيم، بدايةً من أسفله حيث الرخويات والمخلوقات البحرية الضعيفة، تدريجيًّا ارتقى في السلم مارًّا بالزواحف والأسماك، حتى وصلنا في النهاية إلى الكنغر، وهو مخلوق يُنجب أطفاله على قيد الحياة(28) وهكذا دواليك، إن السلف المباشر(29) لكل الثدييات، ومن المفترض على هذا النهج أن يكون سلفًا لكل الحضور هنا. «لا، لا». صدرت هذه الكلمات من طالب متشكك يجلس في الصف الخلفي. إذا كان الشاب المحترم الذي يرتدي ربطة عنق حمراء هو الذي صاح «لا، لا». والذي يُفترض أنه خارج من بيضة -على حد كلام البروفيسور- سينتظره عقب المحاضرة، فمن شأن هذا الفضول أن يجعله سعيدًا. ارتفعت بعض الضحكات. من الغريب التفكير في أن ذروة الخلق التي أتت من عمر طويل من العمليات الطبيعية شكلت هذا الرجل صاحب ربطة العنق الحمراء. لكن هل توقفت هذه العمليات يومًا؟ هل يُعَدُّ هذا الرجل المنتج النهائي لكل شيء.. نهاية كل عمليات التطور؟ هكذا أعرب البروفيسور عن آماله في عدم إيذاء مشاعر السيد صاحب ربطة العنق الحمراء إذا سكت عند هذا الحد، مهما كانت الفضائل التي يمتلكها هذا الرجل في حياته الخاصة، فلا تزال عمليات الكون التي تُجرى على نطاق واسع عاجزة عن تبرير إنتاجها له. لا يُعَدُّ التطور قوة مستهلكة، بل إنها ما زالت تعمل، وما زال في جعبتها إنجازات أكبر لكنها فقط مُخزنة.

بعد ذلك، وسط دوامة من الضحك الجماعي، والمقاطع التي عُرضت بطريقة لطيفة، عاد المحاضر ليتحدث عن صورته الخاصة عن الماضي، البحار الجافة، بروز الكثبان -الضفة- الرملية، التبلُّد، والحياة اللزجة الواقعة على أطرافه، البحيرات المكتظة، ميل الكائنات البحرية لاتخاذ ملجأ في المسطحات الطينية، والطعام الوافر الذي ينتظرهم، وما يعقب ذلك من نمو هائل. أضاف:

- ومن ثمة، أيها السيدات والسادة. إن القبعة المفزعة لنوع السحالي والتي ما زالت تُرعب عيوننا لما ننظر لها في (ويلدن)(30) أو في ألواح (سولينهوفن)(31). ولحُسْن الحظ انقرضت قبل الظهور الأول للجنس البشري على هذا الكوكب بأمَدٍ بعيد.

- أيمكنني طرح سؤال! دوى الصوت آتيًا من المنصَّة.

كان السيد (والدرون) صارمًا حازمًا أُنْعِمَ عليه بهبة من الفكاهة الحمضية، على سبيل المثال ذلك الرجل ذو ربطة العنق الحمراء، لقد أوضح أن مقاطعته أمر خطر. لكن هذا التدخل السافر بدا سخيفًا له لدرجة جعلته متحيرًا في تحديد التعامل المناسب معه. هكذا بدا كـ(شكسبير) الذي يواجه نظرية (بيكونيان) الفاسدة(32)، أو كعالم الفلك الذي هاجمه مُتعصِّب لنظرية الأرض المسطحة. أمسك عن الكلام دقيقة، ثم رفع صوته مكررًا الكلمات ببطء شديد:

- التي انقرضت قبل مجيء الرجل.

- سؤال! هدر الصوت مرة أخرى آتيًا من المنصة..

نظر (والدورن) والدهشة تقطر من عينيه لصف الأساتذة الممتد على طول المنصة حتى وقعت عيناه على شخص (تشالنچر)، الذي أراح ظهره على كرسيه واعتلى عينيه شبه المغمضتين تعبيرٌ مسلٍّ، كما لو كان يبتسم في أثناء نومه.

تحدث (والدورن) مستهزئًا:

- أرى أنه صديقي البروفيسور (تشالنچر).

دوت ضحكات في المكان بينما استأنف هو محاضرته وكأن هذه الضحكات هي التفسير النهائي ولا حاجة لقول المزيد.

لكن ما حدث كان بعيدًا كُلَّ البُعْد عن المنال. مهما كان المسار الذي اتخذه المحاضر وسط أحراش الماضي فقد قاده لتأكيد الحياة المنقرضة أو حياة ما قبل التاريخ، وهو ما جعل البروفيسور يصدر خوارًا مثل الثيران. أدرك الحاضرون هذا وبدا أنهم مستعدون للصياح استحسانًا عندما تحين اللحظة المناسبة. انضمت مقاعد الطلاب المكتظة، وتحمسوا لكل وقت تحركت فيه لحية (تشالنچر)، قبل أن يصدر أي صوت، انتشر هتاف سؤال! آتيًا من مئة صوت، والرد المتمثل في «اطلب!» و«عار» دوى أكثر بكثير من السؤال. أصبح (والدورن)، على الرغم من كونه محاضرًا صلبًا، ورجلًا قويًّا فإنه بات متوترًا مترددًا، كرَّر ذات الجملة عدة مرات، في النهاية التفت ليواجه سبب مشكلته والشراسة تلمع في عينيه.

صاح قائلًا وقد تردَّد صياحه على المنصة:

- هذا حقًّا لا يُطاق! إنني أطلب منك أيها البروفيسور (تشالنچر) أن تَكُفَّ عن هذا الجهل والمقاطعات غير المهذبة.

لفَّ القاعة صمت عميق، تهلَّلت أسارير الطلاب فرحًا لرؤيتهم آلهة أوليمبوس السامية تتشاجر فيما بينها. رفع (تشالنچر) جسده الضخم ببُطء عن كرسيه. قال:

- يجب أن أسألك بدوري سيد (والدورن)، أن تتوقف عن التصريح بتأكيدات لا تتفق بدقة مع الحقائق العلمية.

ضجَّ المكان حولنا بعاصفة قوامها الكلمات. على غرار... «عار! عار!»، «ألقِ به خارجًا»، «ادفعه عن المنصة»، «مباراة عادلة!»، أتت هذه الكلمات كلها من زئير جماعي تحركه التسلية أو اللعنة.

وقف رئيس المعهد على قدميه وهو يُلوِّح بيديه ويثرثر بحماس: «بروفيسور تشالنچر، وفِّرْ آراءك الشخصية لوقت لاحق». جعلت القمم الصلبة المستقرة عاليًا فوق غيومه هذه التمتمة خافتة.

انحنى الْمُقاطع وعلى وجهه ابتسامة مُشاكِسة، داعب لحيته ثم طفق عائدًا إلى كرسيه. واصل (والدورن) الذي أمسى محتقن الوجه مُحاولًا قول ملاحظاته. بين الحين والآخر، وكلما أكد شيئًا ما يستدير ليرمق خصمه بنظرة نارية، أما الأخير فبدا أنه غاصَ في نوم عميق بنفس الابتسامة السعيدة الواسعة المرتسمة على وجهه.

في النهاية انتهت المحاضرة، بيد أني ميَّال للتفكير في أنها نهاية سابقة لأوانها؛ ذلك لأن الخطبة عُجلت ولم تكن متصلة. كان نسق الجدال وقحًا، والجمهور قلقًا ورأسه يعج بالتوقعات. جلس (والدورن) بالأسفل، بعد ثغاء رئيس المعهد، نهض البروفيسور (تشالنچر) وتقدم إلى حافة المنصة. من أجل الفوائد التي ستعود على تقاريري، قمتُ بتدوين ما قاله حرفيًّا.

استهل حديثه على الرغم من المقاطعة الآتية من خلفه قائلًا:

- سيداتي وسادتي، حتى الأطفال، أستميحكم عذرًا، يجدر بي الاعتذار، يبدو أنني حذفتُ سهوًا جُزءًا ضخمًا من الحضور.

أحدثت كلمات البروفيسور بلبلة بينما وقف هو خلالها رافعًا يدًا واحدة وقد أحنى رأسه الضخم متعاطفًا، وكأنه يُنعم على الحشد بإحدى البركات البابوية ثم استرسل:

- لقد وقع عَلَيَّ الاختيار لتقديم الشكر اللائق للسيد (والدورن) على عنوانه الخلَّاب والخيالي الذي استمعنا له لتوِّنا. ومع ذلك هناك نقاط في حديثه لا أتفق معها، ومن واجبي الإشارة إليهم كما قالها، وليس أقل من هذا، لقد قدم السيد (والدورن) عمله بطريقة جيدة، من شأن هذا العمل إعطاء فكرة بسيطة ومثيرة للاهتمام لما يظنه هو بتاريخ كوكبنا. إن المحاضرات الشعبية الشائعة هي الأسهل في الاستماع إليها.

لكن السيد (والدورن) نظر إلى المحاضر بطرف عينيه وابتسم ثم أضاف:

- حسنًا، اعذروني عندما أقول إن هذه المحاضرة هي بالضرورة سطحية ومضلِّلة؛ ذاك لأنه يجب أن تكون سَلِسة حتى يستطيع جمهور جاهل إدراكها. هدر في المكان هتاف تهكُّمِي لكنه لم يمنعه من التوقف: إن المحاضرين الشعبيين في قرارة أنفسهم وما تُمليهم عليه طبيعتهم طفيليون.

تملك الغضب من السيد (والدورن)، وبادر بالاحتجاج لكن استطرد البروفيسور:

- إنهم يستغلون الشهرة أو يفيدون من الأعمال التي قام بها زملاؤهم الْمُحتاجون وغير المعروفين. حقيقة واحدة صغيرة يتوصل إليها في المختبر، لبنة واحدة أُضيفت لمعبد العلم الشامخ، تفوق بكثير أي عرض رديء يُقدم في ساعات الكَسَل، ومع ذلك لا يخلف أي نتيجة مهمة وراءه. لقد طرحتُ

أفكاري بوضوح، بالطبع هذه الأفكار ليست نابعة من رغبة مطلقة بالاستخفاف بالسيد (والدورن) على وجه الخصوص، لكن لأنكم قد تخسرون شعوركم بتناغم خُطا تابع رئيس الكهنة.

عند هذه النقطة همس السيد (والدورن) بشيء ما لرئيس المعهد، الذي التفت نصف التفاتةً، وتمتم ببضع كلمات لأبريق الماء الموضوع أمامه بينما أكمل البروفيسور:

- يكفي هذا القدر!

بعدها امتلأت القاعة بالهتافات العالية والطويلة. قال البروفيسور بعدما خفتت الأصوات:

- دعوني أتطرَّق إلى الحديث عن موضوع واسع الأهمية. ما النقطة المعينة التي -وبصفتي محققًا بطبعي- تحدَّيْتُ المحاضر في دقتها؟ إنها عن استمرار أنواع معينة من الحيوانات حيَّة على الأرض. إنني لا أتحدث عن هذا الموضوع كوني هاويًا أو محاضرًا مشهورًا لا يمكنني إضافة شيء له، لكني أتحدث من منطلق كوني واحدًا أجبره ضميره العلمي على التقيد الوثيق بالحقائق، عندما أقول: إن السيد (والدورن) مُخطِئ جدًّا في افتراضاته فذلك راجع لأنه لم يسبق له رؤية ما يُسمَّى بحيوانات ما قبل التاريخ؛ لذا فإن هذه المخلوقات لم تعُدْ موجودة. إنهم في الواقع، وكما قال هو، أسلافنا، لكنهم -إن جاز لي استخدام التعبير- أسلافنا المعاصرون، الذين قد يُعثَر عليهم بكل صفاتهم الرائعة وخصائصهم البشعة فقط إذا سخر المرء كل طاقته وجديته في البحث عن ملاذهم. إن المخلوقات التي يُفترض أنها من الحقبة الچوراسية، وحوش لديهم القدرة على مطاردة والتهام أكبر وأشرس ثدييانتا، ما زالت موجودة!

تحدث الكل في وقت واحد تقريبًا، سَرَتْ في سماء القاعة عبارات مثل: «كلام فارغ»، «اثبت هذا»، «أنَّى لك أن تعلم؟»، «سؤال!».

أجاب البروفيسور قائلًا:

- كيف لي أن أعلم، هل تسألونني؟ أنا أعلم لأنني سبق وذهبتُ إلى ملاذهم السِّري. أنا أعلم لأنني شاهدتُ بعضًا منهم.

سَرَتْ أصوات متداخلة بين التصفيق، الضجَّة، وصوت يهدر قائلًا: كاذب!

- هل أنا كاذِب؟ كرَّر البروفيسور الكلمة باستخفاف.

عمَّ المكان حالة من الموافقة الجماعية الصاخبة بعد جملته الأخيرة، لكنه تابع:

- هل سمعتُ شخصًا ما يقول إنني كاذب؟ حسنًا، فليتفضل هذا الشخص الذي يدعونني بالكاذب بالوقوف حتى أرى إن كنت أعرفه؟

قال صوت أحدهم: «إنه هنا يا سيدي». ثم بَرَزَ شخص ضئيل مُسالِم، يرتدي العُوينات، يكافح بعنف حتى يظل جالسًا مكانه بين مجموعة من الطلاب. سأله البروفيسور:

- هل تجرَّأتَ على وصفي بالكاذب؟

صاح الطالب مُلتاعًا: لا يا سيدي، لا! ثم انزوى تمامًا كما يذوب الملح في الماء. تابع (تشالنچر) قائلًا:

- هل هناك شخص في هذه القاعة يملك الشجاعة الكافية ليقف في وجهي ويُشكِّك في صدقي؟ سأكون سعيدًا بتبادل بعض الكلمات معه عقب المحاضرة.

«كاذب!» تكررت السّبَّة.

صاح البروفيسور:

- من قال هذا؟

مُجدَّدًا ظهر الطالب غير الضار وهو يُحاول جاهدًا الغوص داخل الجموع لكن مجهوده كُلِّل بالفشل، بات مُرتفعًا في الهواء.

قال (تشالنچر) بغضب جم:

- لو أني نزلتُ بينكم

تحدث الجميع في صوتٍ واحد كأنهم جوقة موسيقية تترنم بجمل على غرار «تعال، يا حبيبي، تعال!».

تسببت فعلتهم هذه في تعطيل الحديث لعِدَّة لحظات، هبَّ رئيس المعهد واقفًا على قدميه، يلوِّح بذراعيه في وجوه الحضور حتى بدا كأنه موسيقار يقود فرقته في لحنٍ خاص. وقف البروفيسور (تشالنچر) كالثور الهائج، بوجهه الذي تسللت له حُمرة الغضب، وأنفه الذي اتسعت طاقتيه، ولحيته التي تتحرك مُهتاجةً في كل مكان أثر تحركه المحموم. قال:

- كُل مكتشفٍ عظيم على مَرِّ التاريخ قُوبِل بذات الشك؛ وهذا مما لا شك فيه علامة مُميزة لجيل كامل من الحمقى. عندما توضع الحقائق العظيمة أمامكم، لا تمتلكون الفطنة الكافية أو الخيال الخَصْب ليساعدكم على فهمها. كل ما تقدرون عليه هو إلقاء الوَحْل على رجال خاطروا بحياتهم من أجل استكشاف آفاق علمية جديدة. إنكم تضطهدون الأنبياء! جاليليو! داروين، وأنا....

قاطع الحديث هتاف وصياح طويل.

كل هذه الكلمات أذكرها لكم من ملاحظاتي التي أخذتها على عَجَلٍ لكن في الوقت المناسب، من شأن هذه الملاحظات إعطاء فكرة عن الفوضى التي ضربت المعهد ولم تلبث أن قلت تدريجيًّا. كانت الضجة التي أثارها أغلبهم مذهلة للغاية، أما السيدات فأجبرن على الاعتكاف الصاخب. غرور ووقار، يبدو أن السادة المعروفين بالهدوء والحكمة أصابهم قبس من الروح السائدة في المكان بنفس درجة السوء التي أصابت الطلاب، رأيت رجالًا ذوي لحى بيضاء من غير سوء ينهضون من أماكنهم ويُوجِّهون قبضاتهم المرتجفة حيث البروفيسور العنيد. خُيِّل إليَّ أن هذا الجمع الغفير يغلي كأنه موضوع في إناء فوق المرجل. تقدم البروفيسور خطوة واحدة للأمام ورفع يديه. هنالك شيء ما هائل، مُقبض وحاسم في هذا الرجل بمجرد تحركه خفتت الغمغمة، ورويدًا رويدًا مات اللغط والصراخ، وحَلَّ على المكان صمْتٌ غريب حتى قبل أن يتلفظ بكلمة واحدة بلهجته الآمِرة، أو

يواجههم بعيونه المتسلطة. يبدو أن لديه رسالة محددة يبغي توصيلها لذلك أرهفوا السمع صامتين ليستمعوا إليها.

قال:

- إنني لا أنوي إعاقتكم، الأمر لا يستحق هذا. الحقيقة هي الحقيقة، كما أن ضجيج عدد من الشباب الحمقى -أخشى أن عليَّ إضافة السادة الذين يتمتعون بذات القدر من الحماقة- لا يمكنه التأثير في الموضوع. أزعم أنني اكتشفتُ أفقًا ومجالًا جديدًا في العلوم. أنتم تعترضون على هذا...

قاطعه المزيد من الهتافات، لكنه استمر:

- لذا إنني أضعكم جميعًا قيد الاختبار. هل لديكم الشجاعة الكافية لاختيار واحد أو أكثر منكم ليكونوا ممثلين عنكم، وليختبروا ما أقول باسمكم؟

ارتقى السيد (سمرلي)، بروفيسور التشريح الْمُخضرم درجات المنصة، رجل طويل هو، نحيف كعصا، ذو لسان لاذع، جفت قريحته خاصة فيما يتعلق بالجانب اللاهوتي. تمنى لو أنه يقدر على سؤال البروفيسور (تشالنچر) عما إذا كانت النتائج التي أشار إليها في أثناء كلامه قد حصل عليها في أثناء بعثته لمنابع نهر الأمازون منذ عامين فائتين.

أجاب البروفيسور (تشالنچر) على سؤاله بالتصديق.

أراد السيد (سمرلي) معرفة كيف تسنى للبروفيسور (تشالنچر) القيام بهذه الاكتشافات كما يزعم في مناطق تجاهلها (والاس)، (بيتس)، والمستكشفون الآخرون الذين سبقوهم ممن يتحلَّوْن بسُمْعة علمية راسخة.

أجاب البروفيسور (تشالنچر) قائلًا: إن السيد (سمرلي) وعلى ما يبدو، يخلط بين الأمازون ونهر التايمز، وأن الأول في الواقع نهر هائل الحجم إلى حدٍّ ما، من المرجح أن ما يقصده السيد (سمرلي) بحديثه هو نهر (أورينوكو)(33) الذي يتصل به خمسون ألف ميل من الأراضي المفتوحة، وفي مساحة شاسعة مثل هذه ليس مستحيلًا أن يجد شخصٌ مَا مَا أغفلهُ آخرُ.

أعلن السيد (سمرلي) وقد زين وجهه بابتسامة باهتة، أنه يعرف تمام المعرفة الفرق بين نهر (التايمز) و(الأمازون)، الحقيقة أن أي تأكيدات أو اكتشافات حول الأول يُمكن التأكد منها أما فيما يخص الثاني فالأمر صعب نوعًا ما لم يكن مستحيلًا. كما قال إنه سيكون مضطرًّا إلى خوض هذا الموضوع إذا ما حدَّد البروفيسور (تشالنچر) إحداثيات البلد؛ متضمنًا خطوط الطول وخطوط العرض، حيث يزعم اكتشافه لحيوانات ما قبل التاريخ فيه.

أجابه البروفيسور (تشالنچر) بأن من حقه الاحتفاظ بهذه المعلومات قيد الكتمان لأسباب وجيهة خاصة به، ومع ذلك فهو على أتم الاستعداد لتقديمها -مع أخذ الاحتياطات المناسبة- للجنة مُختارة من قِبل الجمهور. ثم سأل: تُرَى هل بمقدور السيد (سمرلي) الالتحاق بهذه اللجنة واختبار صِدْق قصته شخصيًّا؟

- نعم، سأفعل.

هدر الهتاف فتابع البروفيسور (تشالنچر):

- لك كلمتي يا سيدي، إنني سأضع بين يديك المواد الكافية والتي من شأنها مساعدتك للعثور على طريقك. صحيح أن السيد (سمرلي) سيذهب إلى التحقق من قصتي، ومع ذلك، يجب أن يكون لدي شخص أو أكثر يخوضون معه الرحلة للتحقق من اكتشافه. لن أخفي عليك، هناك صعوبات ومخاطر فيما أنت مُقبِل عليه. سيحتاج السيد (سمرلي) إلى زميل أصغر سِنًّا. هل يحق لي السؤال عن متطوعين؟

هل كنتُ قادرًا على التخيُّل -وأنا داخل هذه القاعة- أنني على وشك الانخراط في مغامرة برِّيَّة لم يسبق لها أن زارت أحلامي؟ لكن (جلاديس) أليست هذه بعينها هي الفرصة التي تحدثت عنها؟ كانت (جلاديس) ستخبرني بالمضي قدمًا. قفزتُ واقفًا على قدمي، كنتُ أتحدث ومع ذلك لم أجد لديَّ كلمات للتفوه بها. كان رفيقي (تارب هنري)، ينقر على أرضية القاعة بطرف حذائه، وسمعته يهمس:

- اجلس يا (مالون)، لا تجعل نفسك أُضحوكة للجميع.

في ذات الوقت كنتُ أعلم أن الرجل الطويل النحيف، بشعره الأسود المفعم بالحيوية، يقف على قدميه أمامي على بُعْد القليل من المقاعد. التفت للخلف ورمقني بنظرة غاضبة من عيونه القاسية، لكني رفضت أن أتزحزح وأترك له المجال.

- سأذهب، سيدي رئيس المعهد.

طفقتُ أُكرِّرها مرارًا وتكرارًا. صاح الحضور من حولي قائلين:

- الاسم! الاسم!

- اسمي هو (إدوارد دون مالون). إنني مراسل لجريدة (ديلي جازيت). أزعم أنني شاهد غير مُتحيزٍ على الإطلاق.

- ما اسمك؟ سأل رئيس المعهد منافسي الطويل.

- أنا اللورد (جون روكستون). سبق أن كنتُ في منطقة الأمازون بالفعل. أعرف كل الأراضي هناك، كما أني أمتلك مؤهلات خاصة تجعلني أهلًا لهذا التحقيق.

قال رئيس المعهد:

- إن سُمعة اللورد (جون روكستون) كونه رياضيًّا ومسافرًا محمودة، ومما لا شكَّ فيه مشهورة عالميًّا. في نفس الوقت سيكون جيدًا بما فيه الكفاية كون صحافي جزءًا من هذه الرحلة الاستكشافية.

قال البروفيسور (تشالنچر):

- إذن دعني أقول، إن هؤلاء السادة انتُخِبُوا مُمثلين لهذا الاجتماع، من أجل مرافقة البروفيسور (سمرلي) في رحلته التي من شأنها التحقيق والإبلاغ عن حقيقة تصريحاتي.

وهكذا وسط الصراخ والهتاف، تقرر مصيرنا، وجدتَ نفسي مُنسابًا مع التيار البشري المتحمس الذي يلتف حول الباب، بينما ذهني يموج بالأفكار -وقد أصابه شبه ذهول- حول المشروع الجديد الضخم الذي طرأ عليَّ فجأة. لما ظهرتُ خارج القاعة شعرتُ بخجل من ضحكات الطلاب المُتسارعة أسفل الرصيف، وبيدٍ ثقيلة تحمل مظلة، انخرطت في السَّيْر وسطهم، ثم وسط خليط من الآهات والصرخات، مرقتُ عربة البروفيسور (تشالنچر) بالقرب من الرصيف، ووجدت نفسي أسيرُ تحت الأضواء الفضية لشارع (ريجنت)، رأسي ممتلئ بأفكار عن (جلاديس) وعن العجائب التي تنتظر مستقبلي.

على حين غِرَّة لمس أحدهم مرفقي. استدرتُ، ألفيتُ نفسي أطالع العيون الرائعة للرجل الطويل النحيف الذي تطوَّع ليكون رفيقي في مَسْعَانا الغريب. بادر بالكلام قائلًا:

- سيد (مالون)، إنني أتفهمك، يجدر بنا أن نكون رفقاء.

- ماذا؟

- إن غرفتي تقع في نهاية الطريق، في (ألباني). ربما تقدر على التلطف معي ومُجالستي لنصف ساعة، هناك شيء أو شيآن أريد إخبارك بهما بشدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

عندما كنتُ مدراس الرب (34)

سرتُ برفقة اللورد (چون روكستون) قاطعين شارع (فيجو) كاملًا، عبرنا البوابات قاتمة اللون -المغطاة بفضلات الغربان- للمغدفة(35) الأرستقراطية ذائعة الصِّيت. وفي نهاية ممر طويل رتيب، دفع صاحبي الجديد بابًا وبحث بيده عن مفتاح الكهرباء. تألق عددٌ من المصابيح صابغين الغرفة المظلمة كلها بوهج أحمر متلألئ. وقفت في المدخل وأجَّلتُ النظر حولي، تملكني شعور بالراحة والأناقة الفائقين، مع لمسة ذكورية لا تخطئها عين. المكان حولنا يشي بذوق ورفاهية رجل غني مع إهمال وعدم اكتراث شاب عَزَب. جنبًا إلى جنب رأيتُ الفراء الثمين والبُسُط الغريبة عاجية اللون المشتراة من الأسواق الشرقية موزعة على الأرض. لوحات وتُحف حتى عين ليست خبيرة مثل عيني أمكنها التيقن أنهم قطع نادرة باهظة الثمن، معلقة كيفما اتفق على الجدران. هنالك عدة رسومات لمباراة ملاكمة، ولغانيات يرقصن الباليه، وخيول سِباق مجتمعة. جُلُّها من تصميمات فراجونارد(36)، المارشال جيراردیت(37)، وتيرنر الحالم. وفي وسط الزخارف والقطع الفنية المنتشرة، هناك الجوائز المتناثرة التي ذكرتني أن اللورد (چون روكستون) يُعد واحدًا من أعظم الرياضيين على مختلف الأصعدة في عصره. فوق أحد الأرفُف يوجد مجداف أزرق داكن يتقاطع مع آخر قرمزي اللون يتحدثون عن أكسفوردي عجوز من رجال لیندر(38)، بينما فوقه قفازات الملاكمة المغطَّاة بالرقائق، وأسفله عُدة لرجل كان سيدًا رياضيًّا لها. وكعادة الغرف القديمة المزينة بطريقة الدادو(39) أبرز النتوء الكامن في الجدار أفضل ما في الألعاب الثقيلة المدهشة، الأفضل من نوعها في كل مكان في العالم، كما استقرَّ رأس محنط لوحيد القرن الأبيض نادر الوجود من (لادو إنكليف) (40)، شفتاه بارزتان مزمومتان بطريقة جعلته يظهر كأنه سيدهم كلهم.

توسطت السجادة الحمراء السميكة طاولة من طراز (لويس كوينز)، لونها مزيج من الأسود والذهبي، مجملًا هي قطعة أثرية أنيقة، بيد أنها دُنِّست بقطع من الزجاج وعدة حرائق طفيفة انتشرت في بدنها بسبب السيجار الذي يُدخِّنه مالك المكان. وضع عليها صحيفة فضية بها تبغ وعدة مواد صالحة للتدخين، ومشروبات روحية. أمسك مضيفي الصامت قارورة وشرع في تعبئة كأسين. أشار لكرسي بذراعين فجلستُ عليه، وضع المشروبات بالقُرْب منه، وناولني سيجارًا كوبيًّا طويلًا ناعم الملمس.

لما جلس أمامي، نظر إليَّ نظرة طويلة مُتفَحِّصة بعينيه اللامعتين الغريبتين، هذه نظرة متهورة من عينين زرقاوين بارد تأثيرهما، تمامًا مثل بحيرة جليدية. عبر لفائف الضباب الرقيق المكون من دخان السيجار خاصتي، لاحظتُ تفاصيل وجه مألوف لي من عِدَّة نواحٍ؛ أنف مُنْحَنٍ، وخدين مجوفين ممصوصين، وشعر داكن متموج خفيف بالقرب من الجبهة، وهناك الشوارب ذات المظهر الرجولي والقوام الهشّ، والخصلات الضئيلة على ذقْنِه البارزة. هناك ومْضة من (نابليون الثالث)، ولمحة من (دون كيشوت)، ومجددًا جوهر -أو بعضه- لرجل إنجليزي عادي، متحمِّس شديد النشاط، محب للهواء الطلق، الكلاب والخيول.

كان لون بشرته بُنِّيًّا لوحته الشمس والرياح حتى بات كأصيص زهور حمراء اللون، حواجبه منعقدة ومتهدلة فوق عينيه، وهو ما أكسبه -بالإضافة إلى عيونه الباردة بطبيعتها- انطباعًا شرسًا، ومما زاد

من هذا الانطباع جبينه العريض المقطب. من ناحية المظهر كان عاديًّا تقريبًا، أما جسده، في الواقع، عبارة عن بنيان قوي شديد، كثيرًا ما أثبت أن هناك عددًا قليلًا من الرجال في إنجلترا قادرون على القيام بمجهودات مستمرة مثل هذه. كان طوله ستة أقدام ويزيد، لكنه يبدو أقصر بسبب انحناء كتفيه. هذا هو اللورد الشهير (چون روكستون) الجالس أمامي، يلوك سيجاره بين أسنانه مُستمتِعًا ويرمقني بثباتٍ، وقد غلفنا صمت طويل شبه محرج.

أخيرًا قال:

- «حسنًا، ها نحن ذا، يا صديقي الصغير.. يا فتاي». هذه العبارة الغريبة التي تفوَّه بها بَدَتْ كلها ككلمة واحدة «يا صديقي الصغير.. يا فتاي».

- نعم، لقد قُمْنا بحركة جريئة.

سألني قائلًا:

- لا أفترض أن هذه الأفكار دارت في رأسك عندما دخلنا تلك القاعة، صحيح؟

أجبته:

- لم أُفَكِّر في هذا حقيقةً.

- وأنا أيضًا، لم أُفكِّر في هذا. ثم ها نحن أولاءِ، حتى أعناقنا تبدو كأنها موضوعة في وعاء. لماذا؟ لقد عُدْتُ من أوغندا منذ ثلاثة أسابيع فقط، اخترتُ مكانًا في إسكتلندا، ووقَّعْتُ عقد الإيجار.. إلخ. إن ما يحدُث لأمرٌ جميل، أليس كذلك؟ ما رأيُك؟

- حسنًا، كل هذا يُمثل خطًّا رئيسًا لعملي. إنني صحفي في الجريدة.

- بالطبع، لقد قلتَ ذلك من قبل. بالمناسبة، لديَّ عمل صغير لك، إذا كنت راغبًا في مساعدتي.

- مِنْ دواعي سروري.

- إنك لا تتهيَّب المخاطر، أليس كذلك؟

- وما هذه المخاطر؟

- حسنًا، إنه (بالينجر)، وهو مخاطرة في حد ذاته. هل سمعت عنه؟

أجبته بلهجة ملُولة:

- لا.

قال لي وهو يُحرِّك رأسه مستنكرًا:

- حقًّا؟! كيف هذا أيها الريفي الصغير، أين تعيش؟ إن السير (چون بالينجر) أفضل رياضي نبيل في شمال البلاد. في أفضل حالاتي لديَّ القدرة على حمله داخل الشقة، لكنه سيدي. حسنًا، هنالك سِرٌّ معروف عنه؛ أنه عندما لا يكون في التدريب فإنه يُسرف في الشراب؛ شراب متوسط كما يقول. ليلة

الخميس أصابه الهذيان، ومنذ ذلك الحين تدهورته حاله كأنه الشيطان. غرفته تقع فوق هذه الغرفة. يقول الأطباء: إن الأمر في يد العجوز ما لم يُقدِّم بعض الطعام له، لكن الأمر صعب حيث إنه يرقد في السرير واضعًا مسدسًا جواره، وقد أقسم بأغلظ الأيْمان أنه سيضع ستة من أفضل رصاصته في قلب أي شخص يقترب منه، هذا بالطبع جعل الإضراب يدُبُّ في قلوب الخدم. إنه صلب كمسمار، هل تفهمني؟ كما أن رصاصه مميت أيضًا، ومع ذلك لا يمكننا ترْك رياضي كبير على المستوى الوطني يموت بهكذا طريقة، ألا تتفق معي؟

سألته وقد بدا عليَّ الاهتمام:

- ما الذي تريدني أن أفعله؟

- إن فكرتي تتلخص في أن نقوم أنا وأنت باقتحام الغرفة والاندفاع نحوه. ربما نجده غائبًا عن الوعي، أو فاقدًا للتركيز قليلًا، في أسوأ السيناريوهات الممكنة قد يتمكن من إصابة واحد منا فقط، أما الآخر فسيتمكن من الوصول إليه. إذا قدرنا على ربط يديه بالغطاء أو ما شابه ذلك، ومن ثم سنضخ الطعام إلى معدته ضخًّا، سنعطي العجوز عشاءً لم يذقه في حياته.

أعترف أن ما نحن بصدده يُعدُّ عملًا يائسًا نوعًا. لا أزعم كوني رجلًا شجاعًا بشكل خاص، لكن عندي خيال أيرلندي جموح يجعل الأشياء المجهولة والتي لم أجرِّبها أكثر فظاعةً مما هُم عليه في الحقيقة. من ناحية أخرى، ترعرعتُ على الخوف من الجبن والخوف من أن أُوصَم بوصمة العار.

أجسر على القول بأن باستطاعتي إلقاء نفسي من على حافة الهاوية، تمامًا مثل (الهون) الذين تعج بهم كتب التاريخ، فقط إذا ما اختُبِرت شجاعتي، بيد أن مصدر إلهامي الحقيقي هو الكبرياء والخوف وليست الشجاعة؛ لذلك على الرغم من أن كل خلية في جسدي أصابها الارتعاش من الشخصية السِّكِّيرة شبه المجنونة التي تخيلتها للقاطن في الغرفة أعْلانَا فإنني أجبتُ بصوتٍ خافتٍ بالكاد يُسمع قائلًا: إنني مستعد للذهاب. ثم إن بعض الملاحظات الأخرى التي سردها اللورد (روكستون) عن الخطر جعلتني أكثر غضبًا.

قلتُ:

- إن الحديث عن الأمر لن يجعله أفضل، هيَّا بِنا.

قمتُ من مقامي وكذا فعل هو، ضحك عِدَّة ضحكات خافتة مُشَجِّعة، رَبَتَ على صَدْرِي مرتين أو ثلاثًا، ودفعني لأعاود الجلوس على مقعدي مرة أخرى. قال بلهجة رزينة:

- حسنًا يا بُنَيَّ، ستفعل. نظرتُ إليه وقد بَلَغَتْ دهشتي مبلغًا عظيمًا.

أتابع:

- لقد رأيتُ (چون بالينجر) هذا الصباح بنفسي. لقد صنع ثقبًا قبيحًا في تنورة كيمونو خاصتي، فلتُبارك يده العجوزة المرتعشة، ثم إننا تمكنَّا من إلباسه سُترة، يُخيل إليَّ أنه سيسترد صحته في غضون أسبوع على الأكثر. إنني أقول، أيها الريفي الشاب، وكُلِّي أمل ألا تُمانع. ماذا؟ كما تريد، سأبوح لك بما يعتمل في نفسي، إنَّ عقلي متحجر قليلًا وكأنه مكسو بالقرميد، علاوة على ذلك فإنني

أنظر إلى الأشياء التي تخص أمريكا الجنوبية كأنها أشياء جادة غاية في الأهمية، وإذا كنتَ سأتخذ رفيقًا فيجدر به أن يكون رجلًا يمكنني الاعتماد عليه. أعترف أنني حاولتُ التقليل من شجاعتك وشأنك، لكن يجب أن أقول إنك أجدتَ التصرف في هذا الموقف. كما ترى، الأمر كله متروك لنا؛ لأن (سمرلي) العجوز يريد أرضًا صلبة يقف عليها كبداية. على كُلٍّ هل هناك فرصة لكونك أنت (مالون) الذي حصل على قبعة الرجبي الخاصة بأيرلندا؟

- ربما كنتُ أنا.

- تخيلتُ أني رأيت وجهك من قبل. لماذا؟ كنت حاضرًا عندما تنافست أنت و(ريتشموند). لكم كانَ سباقًا سريعًا لم أرَ مثله طوال الموسم. إنني لا أفوتُ مباراة رجبي أبدًا طالما بمقدوري هذا؛ لأنها أكثر الألعاب التي هجرتها خُشونة وذكورية. حسنًا إنني لم أطلب منك الحضور هنا من أجل الثرثرة عن الرياضة. يجدر بنا محاولة إصلاح عملنا. هاك ها هي ذي رحلتنا، يتحدثون عنها في الصفحة الأولى من مجلة التايمز. هناك قارب متجه لـ (بارا) يوم الأربعاء المقبل، وإذا أمكنك أنت والبروفيسور الالتحاق بهذه الرحلة، أظن أننا يجب أن نأخذه، أليس كذلك؟ جيد جدًّا، سأتفق معه بشأن المواعيد. صحيح، ماذا عن ملابسك؟

- ستهتم الجريدة بهذا الأمر.

- هل يمكنك إطلاق النار؟

- بمقدوري التصويب مثل متوسط المستوى المحلي.

هتف قائلًا:

- يا إلهي الرحيم! أأنت بهذا السوء حقًّا؟ هذا آخر شيء تحاولون تعلمه أيها الريفيون البسطاء! إنكم جميعًا تُشبهون النحل لكن بلا إبر تلسعون بها، بقدرِ ما تتولون رعاية الخلية إلا أنكم تبدون حمقى في بعض الأحيان، خاصةً عندما يأتي شخص ما ويتسلَّل باغيًا العسل. لكن في أمريكا الجنوبية يجب أن تُمسك بندقيتك المحشوة دومًا وأنت مستعد للإطلاق، ما لم يكن صديقنا البروفيسور مجنونًا أو كاذبًا، فقد نصادِف بعض الأشياء الغريبة قُبيل العودة. خبرني أي نوع من البنادق تملك؟

لم يمنحني الفُرصة لأجيب بل قطع الغرفة ذاهبًا إلى خزانة من خشب البلوط مستندة إلى الجدار، فتحها بحذر فألفيتُ فيها صفوفًا متلألئة من البراميل المتوازية طولًا، كأنها أنابيب أُرْغُن(41).

حدثني قائلًا:

- سأرى ما يُمكنني إعطاءك إيَّاه من مجموعتي الخاصة.

أخرج من جوف الخزانة سلسلة من البنادِق الجميلة الواحدة تلو الأخرى، فتحها وأغلقها فصَدَر عنها صوتٌ مكتوم، وبينما هو يُعيدُها إلى الرفِّ ربت عليها بحنان كما ترعى الأم أطفالها. قال بعد صَمْتٍ لم يطُل:

- هذه من نوع اكسايت بلاند 577، حصلت على هذا الرفيق الكبير بها. نظر بطرف عينه إلى وحيد القرن ثم استرسل:

- عشر ياردات أخرى وكان سيضيفني هو إلى مجموعته. لقد منحت تلك الرصاصة المخروطية الفرصة الوحيدة أو الأفضلية لضعيف. آمل أنك تعرف جوردون(42). خاصتك، إنه شاعر الحصان والمسدس والرجل الذي يتعامل مع كليهما. الآن هذه أداة مفيدة من طراز 470، ذات رؤية تلسكوبية، مزدوجة الأنبوب يمكنها إطلاق قذيفتين في المرة. هذه هي البندقية التي استخدمتها ضد سائقي العبيد البيروفيين قبل ثلاث سنوات. لقد كنتُ هراوة الرب في تلك الأنحاء، مع أنك لن تجد هذه الأحداث في أي كتاب مهما بحثتَ. هناك أوقات، يا صديقي الشاب، يُجبر كل واحد منا على اتخاذ موقف من أجل حقوق الإنسان والعدالة، وإلا فلن تشعر أبدًا بأنك نظيف السريرة. هذا السبب تحديدًا هو ما جعلني أخوض حربًا صغيرة بمفردي. أعلنتها بنفسي، وعبرت عبابها بنفسي، وأنهيتها بنفسي. كل هذه الأعناق تخص قاتلي العبيد، عدد جيد منهم، أليس كذلك؟ هذا الشيء الكبير يخص (بيدرو لوبيز)، سيدهم الأوْحَد، لقد قتلتُه في مياه نهر (بوتومايو) الراكدة. أظن أن هذا الشيء سيفي بالغرض من أجلِك.

أخرج بندقية باهرة لونها خليط من البُنِّي والفِضِّي. أكمل قائلًا:

- جيدة التحمُّل خزنتها محاطة بالمطاط، ستتيح لك رؤية حادَّة، وخمسة خراطيش (طلقات) في المشبك. يمكنك الاطمئنان على سلامتك طالما هذه في يدك.

أعطاني إيَّاها وأغلق باب خزانة البلوط. طفق عائدًا إلى كرسيه ولما استوى جالسًا عليه قال:

- بالمناسبة، ما الذي تعرفه عن البروفيسور (تشالنجر)؟

- لم أرَه حتى هذه اللحظة.

- حسنًا، وأنا كذلك. إنه لأمْرٌ مثير للضحك أننا سنُبحر بناءً على أوامر رجل لا نعرفه. لقد رأيته كطائر عجوز يتغذَّى على الغرور. ثم إن أقرانه العلماء ليسوا مغرمين به. ما الذي جعلك مهتمًّا بهذه القضية؟

مرَّت برهة أخبرته فيها عن تجربتي التي قمتُ بها صباحًا، أنصت إليَّ باهتمام. أخرج ورقة وقام برسم خريطة مرتجلة لأمريكا الجنوبية ثم وَضَعَهَا على الطاولة أمامنا. قال بلهجة جادَّة:

- أظن أن كل كلمة أخبرك بها حقيقية، عندما أتحدث بهذه الطريقة تذكر دائمًا أن لديَّ شيئًا لأضيفه. إن أمريكا الجنوبية هي مكان أُحِبُّه، ويخيل إليَّ إذا ما قارنت ما قاله (دارين) عنها ثم (فويجو)، فهي بلا شك أعظم وأغنى وأروع بقعة من الأرض على هذا الكوكب. حتى الآن لا يعرفها الناس حَقّ المعرفة، ولا يدركون ما قد تُصبح عليه. لقد تجوَّلت بها من أعلاها لأسفلها ومن بدايتها إلى نهايتها، وقد حضرتُ موسمين من مواسم الجفاف في تلك الأنحاء بالذات، كما سبق وأخبرتك لما تحدثت عن الحرب التي شنتها على تجار العبيد. في أثناء مكوثي هناك سمعت القصص اللطيفة ذاتها عن أساطير الهنود وما شابَه ذلك، ولكني شعرت بوجود شيء أكبر خلف كل هذا، بلا شك. كلما تعمقتُ أكثر في معرفتي عن ذلك البلد، يا صديقي، كلما تيقنتُ أن أي شيء قابل للتحقق هناك، أي شيء. بعض

الروافد والممرات المائية الضيقة التي يسافر الناس خلالها يكتنفها الظلام تمامًا، حتى النجوم لا تَفلح في الوصول إليها بضوئها. مثلًا في الأسفل هنا حيث (ماتو جراندي).

مسح رماد سيجاره المتساقط من فوق الخريطة وأتبع:

- أو في هذه الزاوية حيث تتلاقى ثلاث دول، لا شيء يمكنه مفاجأتي. كما فاجأتني روايته التي قالها الليلة، هناك خمسون ألف ميل من المياه يقطعون غابة يكاد حجمها يبلغ حجم أوربا. يمكن أن نكونَ بعيدين عن بعضنا البعض كابتعاد إسكتلندا عن القسطنطينية مثلًا، ومع ذلك كلانا موجود في ذات الغابة البرازيلية العظيمة. لقد صنع الإنسان مسارًا لتوه وألحقه بالمتاهة. لماذا؟ إن النهر يرتفع وينخفض في أفضل جزء على طول أربعين قدمًا، نصف البلد عبارة عن مستنقع لا يمكنك تجاوزه. لماذا لا يحدث شيء جديد ومُدهِش في هذا البلد؟ ولماذا لا نكون الرجال الذين يكتشفون ذلك؟ إلى جانب أنه أمسك عن الكلام، الْتَمَعَ وجْهُهُ النحيف، وتألَّقت عيناه ببريق السرور ثم أضاف:

- أن هناك مخاطر رياضية في كل ميل منها. إنني مثل كرة جولف قديمة، بُهت لوني الأبيض وتساقط طلائي كُلُّه منذ فترة طويلة. بإمكان الحياة أن تضربني الآن، ولن تترك في أثرًا. لكن الخطر الرياضي أيها الشاب، بمنزلة الملح الذي يعطي الوجود طعمًا. ناهيك عن أن الأمر يستحق العيش من أجله. لقد حصلنا جميعًا على صفقة سهلة مريحة. فقط أعطني الأراضي الضائعة والمساحات الواسعة، طالما هناك مسدس في يدي وشيء يستحق البحث عنه. لقد جربت الحرب والطائرات الحربية، لكن مطاردة الوحوش خاصة تلك التي تبدو وكأنها حلم خارق لسرطان البحر هو إحساس جديد تمامًا.

تهلَّلت أساريرُه وضحك مُبتهجًا على هذا الاحتمال.

ربما قضيتُ وقتًا طويلًا في الحديث عن هذا التعارُف الجديد، لكنه سيكون ملازمًا لي كثيرًا؛ لذا حاولت أن أوثقه كما رأيته أول مرة، بشخصيته الجذابة وحيله الغريبة في الكلامَ والتفكير. كانت حاجته لإجراء لقاء هي ما قادتني لصحبته. تركته جالسًا يتخيل أحلامه الوردية، ويتحسس بدن بندقيته المفضلة، ولما يحمله تفكيره إلى المغامرات التي تنتظرنا كان ينخرط في موجة ضحك عاتية. إن الأمر واضح جدًّا بالنسبة لي، إذا كان هناك مخاطر تنتظرنا، فلن أعثر في إنجلترا كلها على شخص أكثر برودة أو روح أكثر شجاعة منه لأشاركه هذه المخاطر.

في هذه الليلة كنتُ مُرهقًا كما كنتُ بعد الأحداث الرائعة التي حدثت اليوم، في وقتٍ متأخر جلستُ برفقة (مكاردل) محررنا الأدبي، وبعبارات مختصرة شرحتُ له الوضع بأكمله، والذي أظن أنه مهم بما يكفي لإحضاره في الساعات الأولى من صباح اليوم الجديد قبل إخطار رئيسنا السيد (چورچ بومونت). اتفقنا على أن أكتب إلى الوطن قصصًا كاملة لمغامراتي في شكل رسائل متتالية أرسلها لـ(مكاردل)، ومن ثم تُحرَّر للجريدة فور وصولها، أو تأجيلها لنشرها لاحقًا، وفقًا لرغبات البروفيسور (تشالنچر)، حيث إننا لم نعلم بعد الشروط التي سيضعها مقابل إرشادنا إلى الاتجاهات الصحيحة التي ستقودنا إلى الأرض المجهولة.

حاولنا سبر أغوار البروفيسور عبر استفسار هاتفي، لكن لم نحصل على شيء أكثر من هجوم ضد الصحافة، وانتهى بنا الأمر بملاحظة مفادها أننا إذا أبلغنا عن القارب فإنه لن يعطينا أي توجيهات أو إشارات إلا في اللحظة التي سنبدأ فيها. مرة ثانية حاولنا معه وفشلنَا في الحصول على أي إجابة على الإطلاق، باستثناء همهمات حزينة من زوجته ملخصها أن زوجها صعب المراس بالفعل، وأنها كانت تأمل في ألا نفعل شيئًا من شأنه جعل الأمر أسوأ. في وقت لاحق من اليوم، حاولنا حث البروفيسور على البوح بأي شيء للمرة الثالثة وهو ما تسبب في وقوع حادث، وصلتنا رسالة من المركز الرئيس للفاكس تقول: إن جهاز استقبال البروفيسور (تشالنچر) قد تحطم. عند ذلك الحد كففنا عن كل محاولات الاتصال.

والآن يا قرائي الأعزاء الصبورين، لم يعد بإمكاني مخاطبتكم مباشرة. من الآن فصاعدًا -إذا كان هناك استمرار لهذا السرد فيجب أن يصل إليكم- لن أكون أكثر من ورقة بين يدي المحرر، أترك بين يديه وصف الأحداث التي أدت إلى واحدة من أكثر الرحلات الاستكشافية تميزًا في كل العصور، حتى إذا لم أعد إلى إنجلترا مطلقًا، فسيكون هناك بعض السجلات حول كيفية حدوث هذه الرحلة. أكتب هذه السطور الأخيرة وأنا جالس في صالون (بوث لاينر فرانسيسكا)، سأعهد بهم إلى مَنْ يعيدهم إلى السيد (مكاردل). اسمحوا لي أن أرسم صورةً أخيرةً قبل أن أُغلق دفتر الملاحظات. صورة هي آخر ذكرى لهذا البلد القديم الذي أحمله بداخلي.

نحن في صباح ضبابي رطب من صباحات أواخر الربيع، يتساقط مطر رقيق بارد. ثلاث شخصيات متألقة مُشِعَّة يسيرون على الرصيف؛ مما يجعلهم صالحين للعب دور العصابةَ في السفينة الكبيرة التي يطير منها (بيتر). أمامهم حمَّال يدفع عربة كُدِّس عليها جذوع وأغطية وحاويات مسدسات. يسير البروفيسور (سمرلي)، وهو شخص طويل الجذع حزين الملامح، بخطوات متأنية ورأس مُنْحَنٍ، كأنه شخص يشعر بالأسف الشديد حيال نفسه. يسير اللورد (چون روكستون) بخِفَّة، ويظهر وجهه النحيف المتطلع نحو الأفق بشوق بين قبعة الصيد وكاتم الصوت. أما بالنسبة لي، فإنني سعيد؛ لأنني مررتُ بأيام الاستعداد الصاخبة وتركتُ آلام أخذ الإجازات ورائي. بمجرد وصولنا إلى السفينة، صدر من خلفنا فجأة هتاف. إنه البروفيسور (تشالنچر)، الذي وعد بتوديعنا. كان يركض وراءنا، وهو شخص منتفخ كالبرميل الفارغ، ذو وجه أحمر وسريع الغَضَب.

لما وصل إلينا، أشرت إليه بالصعود لكنه قال:

- لا، شُكرًا. أفضل ألا أصعد على متن السفينة. ليس لديَّ سوى عِدَّة كلمات أقولها لك، يمكنني قولها بصيغة جيدة. إنني مدين لك بصورة لا يمكنك تخيلها من أجل القيام بهذه الرحلة. أودُّك أن تفهم أن الأمر فيما يخصني يتصف باللامبالاة الكاملة، وإني أرفض استيعاب شعور الالتزام الشخصي. الحقيقة هي الحقيقة، ولا شيء يمكنك الإبلاغ عنه يمكن أن يؤثر فيها بأي شكل من الأشكال، مع تأثيره على المشاعر وفضول عدد من الأشخاص غير المهمين. هاك، ستجد في هذا المظروف تعليماتي وإرشاداتي لك. لن تفتحه حتى تصل إلى بلدة تقع على نهر الأمازون تُعرَف باسم (ماناوس)، في التاريخ والساعة التي حُدِّدَتْ على المظروف من الخارج. هل كلامي واضح بما فيه الكفاية؟ أترك الالتزام الصارم بشروطي لأمانتك. ثم إني يا سيد (مالون)، لن أفرض أي قيود على مراسلاتك؛ لأن الوصول إلى الحقائق هو الهدف من رحلتك، لكني أطالبك بعدم إعطاء تفاصيل دقيقة عن وجهتك،

وألا يُنْشَر أي شيء فعليًّا حتى عودتك. وداعًا سيدي. لقد فعلت أشياء عِدّة من شأنها التخفيف من مشاعري السلبية تجاه المهنة البغيضة التي -وبكل الأسف- تنتمي إليها. وداعًا لورد (چون). إن العلم الذي بحوزتي، هو كتاب مفتوح لكم، ويمكنك أن تهنِّئ نفسك في ميدان الصيد الذي ينتظرك. بلا شك ستُتاح لك الفرصة لوصف كيفية اقتناص الوحش بسلاحك ثنائي المخرج. وداعًا لك أيضًا بروفيسور (سمرلي). إذا ما كنت قادرًا على تحسين ذاتك، وهو الأمر الذي لست مقتنعًا به صراحةً فستعود إلى لندن رجلًا أكثر حِكْمَة بالتأكيد.

التفَّ البروفيسور (تشالنچر) على عقبيه، وبعد دقيقة واحدة أمكنني رؤيته من سطح السفينة؛ رجل يجلس القرفصاء، يتمايل في طريق عودته إلى عربته. حسنًا، نحن الآن في أسفل القناة. دقَّ آخرُ جرس للرسائل، وداعًا. من الآن فصاعدًا سنستأنف رحلتنا بالطرق القديمة. فليبارك الربُّ كل ما نتركه وراءنا، ويكتب لنا العودة سالمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

غدًا نتلاشى في المجهول

لن أُصيبَ هؤلاء الذين ربما تصلهم هذه الرواية بالملَل عن طريق سرْد رحلتنا الفارهة المريحة على متن سفن (بوث لاينر)، ولن أقُصَّ عليكم أمر إقامتنا لأسبوع في (بارا)، ومع ذلك إنني راغب في الاعتراف بمقدار اللطف الكبير الذي تتمتع به شركة (بيريرا دا بينتا)، والذي أظهروه في أثناء مساعدتنا في جمع معداتنا. سوف أشير كذلك -وبإيجاز شديد- إلى رحلتنا النهرية عبر أحد الروافد العريضة بطيئة الحركة، طينية اللون. خُضْنا فيه على متن باخرة أصغر قليلًا من التي عبرنا بها المحيط الأطلسي. في النهاية وجدنا أنفسنا نعبر مضيق (أوبيدوس) ثم وصلنا إلى مدينة (ماناوس) (43). فور أن وطِئت قدمُنا أرض المدينة أنقذنا السيد (شورتمان) من المكوث في النزل المحلي الذي يُعَدُّ من مناطق الجذب المحدودة لكنه سيئ السُّمعة، و(شورتمان) هو ممثل شركة التجارة البريطانية البرازيلية. سمح لنا بالمكوث وتقضية الوقت في مصحة (فازندا) التابعة له حتى أتى اليوم الموعود لفتح رسالة التعليمات التي أعطاها لنا البروفيسور (تشالنجر). قبل أن أتطرق للوقائع المفاجئة التي حدثت في ذلك التاريخ، تستولى علي رغبة مُلِحَّة لتقديم شرح أوضح لرفاقي في الرحلة، والزملاء الذين جمعناهم من أمريكا الجنوبية. سوف أتحدث بحرية، وأترك الاستخدام الأمثل لكلماتي لك سيد (مكاردل)، يجدر بهذا التقرير المثول بين يديك قبل أن يصل إلى العالم.

إن إنجازات البروفيسور (سمرلي) العلمية ذائعة الصِّيت ومعروفة بدرجة تجعل تلخيصها أمرًا صعبًا. إنَّه قادِر على القيام برحلة استكشافية مهما كانت صعبة على عكس الانطباع الأول الذي يتخيله المرء عنه. شخصيته نافذة، جذعه طويل هزيل، يكاد لا يشعر بأي إرهاق، طريقته في الكلام جافة، وشبه متهكمة، وفي أغلب الأحيان غير متعاطفة. لا يتأثر بأي تغير في محيطه سواء كان طفيفًا أم كبيرًا. على الرغم من أنه بلغ السادسة والستين فإنني لم أسمعه أبدًا يبدي استياءً أو تأفُّفًا من المصاعب التي لزم علينا مواجهتها. في بادئ الأمر عددتُ وجوده بمنزلة عائق لرحلتنا، لكني سرعان ما اقتنعتُ بأنه قادر على التحمُّل مثلي تمامًا. مزاجه متعكر دومًا وطبيعته مُتشكِّكة؛ لذا لم يكُفَّ لحظة عن وصف البروفيسور (تشالنجر) بأنه مجرد محتال لا حدَّ لأكاذيبه، وأننا جميعًا انخرطنا في مطاردة عبثية لضباب لا وجود له، وأنه من المرَجَّح ألا تعود علينا هذه الرحلة إلا بخيبة الأمل والأخطار التي تعج بها أمريكا الجنوبية، ثم السخرية التي تنتظرنا في إنجلترا. هذه الآراء شوَّهت التأثير العاطفي لقسمات وجهه الدقيقة وذقنه الشبيهة بذقن الماعز، طبعًا لم يدخر جهدًا وصبَّها في آذاننا طول الطريق من (ساوثهامبتون) إلى (ماناوس).

الشيء الوحيد الذي كان بمنزلة عزاء له منذ نزوله من القارب، هو بَدَاعة وتنوع حياة الحشرات والطيور المنتشرة حولنا؛ وذلك لأنه مُخلِص للعِلْم تمامًا. يقضي أيامه مُتجولًا في الغابة ببندقية في يده وشبكة مستقرة على كتفه، يستغل أمسياته في جمْع وتجهيز الكثير من العينات التي حصل عليها. ومن صفاته التي لاحظتها أنه لا يهتم بملابسه البتة، أو النظافة الشخصية. ومن عاداته شرود الذهن لأوقات طويلة، كما أنك نادرًا ما تجده بلا غليونه القصير الذي يُدخِّنه. لقد قام بالعديد من الرحلات

العلمية في شبابه، منها رحلته مع روبرتسون في (بابوا)؛ لذا فإن الحياة في المعسكر أو القارب ليست جديدة عليه.

لاحظتُ العديد من الصفات المشتركة بين اللورد (چون روكستون) والبروفيسور (سمرلي)، وبالطبع هناك صفات تُعَدُّ على النقيض تمامًا. مثلًا (چون) أصغر بعشرين عامًا، لكن يتمتع بذات اللياقة البدنية. أما مظهرُه، فيخيل إليَّ أنني وصفته حسبما أتذكر في جزء من روايتي التي تركتها في لندن. إنه أنيق للغاية ورائع بطريقته الخاصة، يرتدي على الدوام بِزَّات الحفر البيضاء المعتني بها وأحذية بُنِّيَّة طويلة الرقبة، يحلق ذقنه مرة واحدة يوميًّا على الأقل. وكحال أغلب رجال الأعمال، فهو قليل الكلام لا يتفوَّه إلا بعبارات مقتضبة، وينغمس بسهولة شديدة في أعماق أفكاره، ومع ذلك فهو سريع الإجابة دومًا إذا وُجِّه إليه سؤال أو عُرِضَ عليه الانضمام لمحادثة، يتكلم بطريقة عجيبة شبه متشنِّجة يشوبها حس الدعابة. إن معرفته بالعَالم، وخاصة بأمريكا الجنوبية لأمر يُثير الدهشة. لديه إيمان راسخ بإمكانية نجاح رحلتنا رغم استهزاء البروفيسور (سمرلي). صوتُه رقيق وسلوكه هادئ مُهذَّب، لكن خلف عينيه الزرقاوين المشرقين تكمن قدرة جبارة على الثورة والغضب، والثبات العنيد على رأيه، ومما زاد الأمر خطورة أن هذه القُدْرة المقيدة تحاول الفرار.

لقد حدثنا عن بعض مآثِره في (البرازيل) و(البيرو)، جعلت الإثارة التي سببها وجوده بين سكان النهر، الناس ينظرون إليه على أنه بطلهم وحاميهم. القائد الأحمر، كما أطلقوا عليه، باتت سيرتُه أساطير بينهم، ومع ذلك كانت الحقائق، بقدر ما استطعتُ معرفتها مذهلة بما فيه الكفاية.

وجد اللورد (چون) نفسه قبل بضع سنوات خلت في منطقة محايدة تقع على الحدود بين (بيرو) و(البرازيل) و(كولومبيا). في هذه المنطقة الغنية نمت وترعرعت أشجار المطاط البرية(44)، وكما حَدَث في الكونغو، باتت هذه الأشجار لعنة على السكان المحليين، لا يمكن مقارنتها إلا بالعمل الإجباري عند الإسبان في مناجم الفضة القديمة المنتشرة في (دارين).

وقعت البلاد تحت سيطرة حفنة من السلالات الدنيئة، أمدوا الهنود الذين يدعمونهم بالأسلحة، واتخذوا البقية عبيدًا، كسروا شوكتهم بأكثر طرق التعذيب ساديةً؛ وذلك لإجبارهم على جمْع المطاط، ثم نقله بالقوارب من جنوب النهر إلى (بارا). تألم اللورد (چون روكستون) نيابةً عن الضحايا البؤساء واستنكر ما يُفعل بهم، لكنه لم يتلقَّ سوى التهديدات والإهانات. ثم أعلن الحرب رسميًّا على (بيدرو لوبيز) زعيم النخاسين، ألحق مجموعة من العبيد الفارين في خدمته، أعطاهم سلاحًا وعلمهم كيف يستخدمونه، شنَّ حملة انتهت بقتله لنصف سلالة النخاسين سيئة السُّمعة وتحطيم النظام الذي يمثلونه.

لا عجب أن الرجل أصهب الرأس، صاحب الصوت الناعم كالحرير والأخلاق الحميدة يُنظر إليه الآن باهتمام شديد على طول ضفاف نهر أمريكا الجنوبية العظيم، كانت المشاعر التي خلفها وراءه مختلِطة، امتنان السكان المحليين يُعادله استياء أولئك الذين أرادوا استغلالهم. واحدة من النتائج المفيدة لتجارِبه السابقة أنه يتحدث الـ(لينجو جيرال) بطلاقة، وهي لغة غريبة، ثلثها برتغالية وثلثها هندية، وهي منتشرة في أنحاء البرازيل.

سبق وقلتُ: إن اللورد (چون روكستون) مُصاب بهوس الأمريكيين الجنوبيين. لا يستطيع التحدُّث عن هذا البلد العظيم بلا حماس، وكان هذا الحماس يشبه العدوى، خاصة لأنني جاهل به؛ لذا فقد

جذب انتباهي وأثار فضولي. أتمنى لو كان بمقدوري إعادة سرْد حواراته بذات البريق الذي يشع منها، مزيج مدهش من المعرفة الدقيقة والخيال المفعم بالحيوية شكَّلوا سحر هذه الحوارات، ربما ساعد ذلك على اختفاء ابتسامة البروفيسور الساخرة والمتشككة تدريجيًّا من وجهه النحيف. شرع يحكي تاريخ النهر العظيم الذي استُكشِف -فيما يخص المستوطنين الأوائل لـ(بيرو) فقد عبروا القارة بأكملها عن طريق مياهها- ومع ذلك فإن أغلب أجزائه خاصة الكامنة وراء ضفافه المتغيرة باستمرار مجهولة تمامًا.

هَتَفَ بصوتٍ عالٍ وهو ينظر إلى الشمال:

- ماذا يوجد هناك حقًّا؟ مستنقعات وغابات غير مكتشفة. تُرى ما الذي يحميها؟ وهناك في الجنوب؟ برية من الغابة البكر، حيث لم تطأها قدم رجل أبيض على الإطلاق. إن المجهول يُحيط بنا من كل الجوانب. ما الذي يعرفه أي شخص خارج المسارات الضيقة للأنهار؟ من يقدر على التكهُّن بما هو ممكن في بلد مثل هذا؟ لم لا يكون العجوز (تشالنچر) على حق؟

هذه الجملة الأخيرة بالذات تُعدُّ تحديًا مباشرًا، سرعان ما ظهرت السخرية والعِناد على وجه البروفيسور (سمرلي) وقد استوى جالسًا، يُحرِّك رأسه الساخر بصمْت غير متعاطف، وخلف سحابة صاعدة من غليونه.

فيما يخص صديقيَّ الأبيضين فستكشف شخصياتهم وحدودهم تمامًا كشخصيتي مع مرور الوقت، خاصة مع استمرار طريقة السرد هذه. بيد أني قمتُ بتدوين وقائع لبعض المعاونين الذين قد يكون لهم دور؛ حتى وإن كان صغيرًا فيما سيأتي. أولهم رجل أسود -كأنه هرقل أسود اللون- اسمه (زامبو)، قوي عنيد مثل حصان، وغالبًا ذكي بقدره. لقد ألحقناه بخدمتنا في (بارا)، بناءً على توصية من شركة السفن، التي تعلم على متن بواخرها التحدُّث بلغة إنجليزية ركيكة.

في (بارا) أيضًا اخترنا (جوميز) و(مانويل)، وهما منحدران من سلالات أعلى النهر، كان بحوزتهما شحنة من الخشب الأحمر لما قابلناهما. كانا رفقة من السود داكني اللون، لكل منهما لحية كثة وشراسة عاتية، كما أنهما نشيطان ونحيفان كالفهود. أمضى كلاهما حياته في مياه المنطقة العليا من (الأمازون)، والتي نحن بصدد استكشافها، هذه التفصيلة الصغيرة هي ما جعلت اللورد (چون) يشركهما في رحلتنا. أحدهم والمسمى (جوميز) لديه ميزة أخرى وهي قُدرته على التحدث باللغة الإنجليزية بطلاقة. كانوا مُستعدين للعمل خَدَمًا لنا، أو للطهي، أو التجديف، أو لجعل أنفسهم مفيدين بأي شكل من الأشكال مقابل خمسة عشر دولارًا في الشهر. إلى جانبهم، قُمنا باختيار ثلاثة من هنود (موجو) الموجودين في (بوليفيا)، وهم الأكثر مهارة في صيد الأسماك والإبحار بالقوارب من بين جميع قبائل النهر. أطلقنا على رئيسهم اسم (موجو)، تيمُّنًا بقبيلته، أما الآخرون فأسماؤهم (خوسيه) و(فرناندو). ثلاثة رجال بِيض، اثنان من سلالات أعلى النهر المختلطة، رجل أسود، وثلاثة هنود. هؤلاء هم أفراد الرحلة الاستكشافية الصغيرة التي كانت تنتظر تعليماتها في (ماناوس) قبل الشروع في سعيها.

أخيرًا، وبعد أسبوع مُرْهِق أتى اليوم الموعود.

أطلب منكم تخيُّل غرفة الجلوس الكامنة في شارع (فازيندا) في (إجناتيو)، على بُعْد ميلين من مدخل مدينة (ماناوس). في الخارج تألقت أشعة الشمس بألق أصفر نحاسي، وسقطت ظلال النخيل السوداء على الأرض واضحة مثل الأشجار ذاتها. الهواء هادئ، ويعج بالطنين الأبدي للحشرات، كأنهم جوقة استوائية. بدءًا بالطنين العميق للنحل وصولًا إلى طنين البعوض العالي. خلف الشرفة هناك حديقة صغيرة معتني بها، خالية من الأشجار، مُحاطة بسياج من الصبار ومزينة بمجموعات من الشجيرات المزهرة، تدور حولها الفراشات الزرقاء والطيور الطنانة الصغيرة التي تُرفْرف وتندفع مُحاطَة بهالة من الضوء اللامع. بداخلها استوينا جالسين حول مائدة خشبية، وضع أعلاها مظروفًا مُغلقًا. كُتب عليه بخط البروفيسور (تشالنچر) الكلمات الآتية:

«تعليمات للورد (چون روكستون) والرفاق. يُفتح في (ماناوس)، الخامس عشر من يوليو، في تمام الثانية عشرة».

استقرت أمام اللورد (چون) ساعته التي سبق ووضعها على الطاولة. تنهَّد وقال:

- ما زال لدينا سبع دقائق. هذا العجوز دَقِيقٌ للغاية.

ابتسم البروفيسور (سمرلي) ابتسامة متهكمة، أمسك المظروف بيده الهزيلة. وقال:

- أخبرني هل سيختلف الأمر لو فتحناه الآن أو في غضون سبع دقائق؟ كل هذه التعليمات جزء أصيل من الشعوذة والهراء، يؤسفني القول بأن كاتب هذه الكلمات سيئ السُّمْعة.

أجابه اللورد (چون) قائلًا:

- حسنًا، يجب أن نلعب اللعبة وفقًا للقواعد. إنه عرض (تشالنچر) العجوز ونحن هنا بإرادته، أظن أن الأمور ستكون سيئة إذا لم نتبع تعليماته بالحرف.

صاح البروفيسور بصوت عكَّرَتْهُ المرارة:

- هذا عمل جميل! عندما كُنَّا في لندن صَدَمَني كم أن الأمرَ مُنَافٍ للعقل، لكن يجب أن أقول إنه يبدو أكثر من ذلك عند التعمُّق به. لا أعلم ما يوجد داخل هذا المظروف، لكن ما لم يكن شيئًا محددًا، سأكون ميالًا وبشدة إلى أخْذ القارب التالي والتوجُّه إلى أسفل النهر حيث (بوليفيا) و(بارا). في النهاية لديَّ مسئوليات أخرى في العالَم أكثر من رحلة هدفها إثبات أو نفْي كلام رجل مجنون. الآن يا (روكستون)، مؤكد حان الوقت.

قال اللورد (چون):

- حان الوقت، يُمكنك الانطلاق.

رفع المظروف وقطع طرفه بسكينه. أخرج منه ورقة مطويَّة. فتحها بعناية شديدة وفَرَدَهَا على المنضدة. كانت ورقة بيضاء! قَلَّبَها مرة أخرى لكنه وَجَدَهَا فارغة. تبادلنا النظرات وقد خَيَّم علينا الصمت والارتباك، لم يدُم الصوت كثيرًا حتى كسرته موجة من الضحك الساخر صدرت عن البروفيسور (سمرلي). صاح بعد أن توقَّف عن الضحك:

- إنه اعتراف بليغ، ما الذي تريدُه أكثر من هذا؟ هُراء، كل ما قمْنا به عبارة عن هراء. فقط علينا العودة إلى المنزل والإبلاغ عنه بصفته المحتال الوقح وهو كذلك فعلًا.

قلتُ مُقْترحًا:

- ربما كُتبت بحبر خفي!

قرَّبَ اللورد (روكستون) الورقة من الضوء وقال:

- لا أظن! لا فائدة من خِدَاع نفسك يا صديقي. سأودعه السجن لما نعود ولن يطلق سراحه إلا بكفالة؛ لأنه لم يكتب أي شيء على هذه الورقة.

وصل إلينا صوت آتٍ من الشرفة قائلًا:

- هل يمكنني الدخول؟

خطا ظِلُّ شخصٍ قصير عبر بقعة ضوء الشمس. هذا الصوت! هذ الكتف العريض! تصلبنا في مكاننا وكلنا نلهث من الدهشة فيما ظهر (تشالنچر) مرتديًا قبعة مستديرة شبابية مصنوعة مِنَ القَشِّ ويعلوها شريط ملون. (تشالنچر)! يداه في جيب سترته وحذاؤه القماشي ينقر الأرض بلطف في أثناء تحركه، ظهر في الأفق أمامنا. أرجع رأسه للخلف، ووقف هناك يحيط به الوهج الذهبي وينعكس على لحيته الآشورية، ملامحه تتضح بوقاحته المعتادة بينما يرمقنا بعيون تدلّت جفونها واعتلتها نظرة غير متسامحة. أخرج ساعته من جيبه وقال:

- أخشى أني تأخرت بضع دقائق. عندما أعطيتك هذا المظروف، حسنًا، يجب أن أعترف، لم أقصد أبدًا أن تفتحه؛ لأني نويتُ أن أكون معك قُبيل هذه الساعة. هذا التأخير غير المقصود يُسْأل عنه ربان متخبط وضفة رملية متطفلة. أرجو ألا يكون هذا قد أعطى زميلي البروفيسور سمرلي فُرْصَة لاستعراض مواهبه في السباب.

قال اللورد (چون) بصوتٍ صارم حازم:

- إن ظهورك يُمثِّل مصدر ارتياح كبير لنا، كنتُ أخشى أن تصل مهمتنا إلى نهاية مُبكِّرة. مع ذلك لا أستطيع الفهم حتى الآن، وإن استغرقت حياتي كلها فلن أفهم غالبًا، لماذا تحب العمل بطريقة غير مألوفة.

بدلًا من الإجابة، خَطَا البروفيسور (تشالنچر) داخلًا. صافحني أنا واللورد (چون)، وانحنى انحناءة وقحة ثقيلة للبروفيسور (سمرلي)، ولم يلبث أن جلس مسترخيًا في كرسي من الصفصاف، الذي أحدث صريرًا وتمايَل تحت ثقله. سألني قائلًا:

- هل جهزت عتاد رحلتك؟

أجبتُه قائلًا:

- بمقدورنا البدْءُ غدًا.

- إذن علينا أن نفعل. لم تعُدْ بحاجة إلى توجيهات أو إشارات، ستتمتع بميزة لا تَقدّر بثمن؛ وهي الاستماع إلى إرشاداتي الخاصة. منذ هذه اللحظة عينتُ نفسي رئيسًا لهذا التحقيق. بالطبع أنت تعلم أن الرسوم والإرشادات وما فيها من تفاصيل ليست سوى بديل ضعيف لذكائي ونصيحتي. أما فيما يخص حِيلتي الصغيرة المتعلِّقة بالمظروف، يبدو جليًّا أني لو أخبرتك بنواياي، لَبِتُّ عاجزًا عن مقاومة السفر معك.

هتف البروفيسور (سمرلي) قائلًا:

- لا يمكنني رؤية الأمر مِنْ هذه الزاوية يا سيدي، طالما هناك سفن أخرى تَعْبُر الأطلسي ما كنتُ لأسافر معك.

لَوَّحَ (تشالنجر) بيده المكسوة بالشعر بلا مبالاة وقال:

- كلي ثقة في حسك السليم؛ إنني مُؤيِّد لاعتراضي، أُدْرِك أنه من الأفضل أن أُوجِّه التحركات بنفسي، كما ارتأيتُ ألا أظهر إلا في اللحظة التي يصير فيها وجودي ضروريًّا. وقد حانت هذه اللحظة الآن. أنت في يدٍ أمينة. ولن تفشل في الوصول إلى وجهتك. من الآن فصاعدًا، سأتولى قيادة هذه الرحلة، سأطلب منك إكمال الاستعدادات حتى الليل، ومن ثم يمكننا البدء في الصباح الباكر. إن وقتي ثمين، ويمكن قول ذات الشيء -وإن كان بدرجة أقل- عنك؛ لذا أقترح أن نمضي قُدُمًا في أسرع وقت ممكن، حتى أُظهر ما أتيتم هنا لأجله.

استأجر اللورد (چون روكستون) سفينة بخارية كبيرة يطلق عليها اسم (ازميرالدا)، يُفترض أن تنقلنا إلى أعلى النهر. بخصوص المناخ، لم يكن الوقت الذي اخترناه لرحلتنا مُهِمًّا، حيث تتراوح درجة الحرارة بين 75 و90 درجة في الصيف والشتاء، مع عدم وجود اختلاف ملحوظ في الحرارة.

أما الرطوبة فشيء مختلِف تمامًا، الفترة من ديسمبر إلى مايو هي فترة هطول الأمطار، وخلال هذا الوقت يرتفع منسوب النهر بروية حتى يصل ارتفاعه إلى قرابة أربعين قدمًا فوق علامة المياه المنخفضة. تغمر المياه الضفاف، وتمتد في البحيرات الضحلة مُشكلةً منطقة هائلة، يسميها المحليون (جابو)، معظمها عبارة عن مستنقع لا يصلح للتنقل سيرًا على الأقدام كما أنه ضحل جدًّا لركوب القوارب. في شهر يونيو، تبدأ المياه في الانخفاض، وتكون في أدنى مستوياتها في أكتوبر أو نوفمبر.

كانت بعثتُنا في موسم الجفاف، النهر العظيم وروافده كانوا في حالة طبيعية نوعًا.

النهر هادئ وتيَّاره طفيف، والانخفاض في منسوبِه لا يزيد عن ثماني بوصات في الميل الواحد. لا يوجد وقْتٌ ملائم للملاحة أكثر من هذا. سادَت الرياح الجنوبية، وباتَ في وسع القوارب الشراعية التقدم المستمر حتى (بيرو)، قبل أن تسكن الرياح.

في حالتنا نحن، تجاهلت محركات (إزميرالدا) الممتازة سريان الجدول البطيء، وقد أحرزنا تقدُّمًا سريعًا كأننا نبحر في بحيرة راكدة. لمدة ثلاثة أيام أبحرنا تجاه الشمال الغربي نحو مجرى مائي هائل، كنا على بُعْد ألف ميل تقريبًا من فمه، إنه ضخم لدرجة أن الضفتين تبدوان للخائض فيه مجرد ظلال على الأفق البعيد. في اليوم الرابع لمغادرتنا (مانوس)، دلفنا إلى رافد مَصبُّه أصغر قليلًا من التيار الرئيسي. أخذ الرافد يضيق بسرعة، وبعد يومين من الإبحار وصلنا إلى قرية هندية، هنا أصرَّ

البروفيسور على النزول إليها، وأن (إزميرالدا) يجب أن تَعاد إلى (ماناوس). أخبرنا بأننا سنصل قريبًا إلى منطقة منحدرة، وهو ما سيجعل الإبحار بها أمرًا مستحيلًا. وأسرَّ إليَّ بأننا نقترب من بوابة العالم المجهول، وأنه كلما قلَّ عدد من نثق بهم، كان ذلك أفضل. ولهذا السبب جعل كل واحد منا يعطيه كلمة شرف بأننا لن ننشر أو نقول شيئًا من شأنه أن يعطي فكرة دقيقة عن مكان رحلاتنا، حتى الخدم أقسموا بذات الشيء؛ لذا أجد نفسي مضطرًّا؛ لأن أكون غامضًا في قصتي، وأود إحاطة قُرائي علمًا بأن أي خريطة أو رسم ذي علاقة بالأماكن قد يكون صحيحًا، لكني غيرت الاتجاهات حتى لا يمكن عدها دليلًا فعليًّا بأي حال من الأحوال. ربما كانت الأسباب التي دفعت البروفيسور (تشالنچر) لتبني السِّرِّيَّة صحيحة وربما لا، لكن لم يكن لدينا خيار سوى الموافقة عليها؛ لأنه مستعد للتخلي عن الرحلة بأكملها بدلًا من تعديل شروطه التي سيرشدنا بناءً عليها.

الثاني من أغسطس هو اليوم الذي قَطَعْنا فيه آخر رابط لنا مع العالم الخارجي عندما ودعنا (إزميرالدا). منذ ذلك الحين مرَّتْ أربعة أيام، قمنا خلالها بجمع زورقين كبيرين من التي يستخدمها الهنود، مصنوعين من مادة خفيفة للغاية -جلود فوق إطار من الخيزران- بحيث يمكننا حملها عند أي عقبة. ألحقنا خادمين إضافيين من الهنود لمساعدتنا في قيادة الزوارق. فهمتُ من همهماتهم أن أسماءهم كانت (أتاكا) و(إيبتو) وهما اللذان رافقا البروفيسور (تشالنچر) في رحلته السابقة. استبدَّ بهما الرعب لاحتمال تكرارها، لكن رئيس القبيلة لديه سلطات في هذه البلدان، وإذا كانت الصفقة رابحة في عينيه، فلن يكون أمام العشيرة خيار في هذا الشأن.

غدًا نخوض في المجهول. هذه الصفحات التي أرسلتها عبر النهر قد تكون آخر كلماتنا، لمن يهتمون بمصيرنا. لقد حددتُ وجهتنا، وفقًا لترتيبنا، إليك يا عزيزي السيد (مكاردل)، وأترك لك حرية الحذف أو التغيير أو أيًّا ما تريد. وعلى الرغم من شكوك البروفيسور (سمرلي) المستمرة، وطريقة البروفيسور (تشالنچر) الغريبة فإني أثق أن قائدنا يعرف ما يقول، وأننا حقًّا مُقبِلون على تجارِب مدهشة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

الحواف البعيدة للعالم الجديد

سيبتهج رِفاقنا في الوطن عندما يعلمون أخبار رحلتنا، وأننا أثبتنا أن ما قاله البروفيسور (تشالنچر) يُمكن التحقق منه، صحيح أننا لم نرتقِ الهضبة ولكنها باتت ظاهرة للعيان. وعلاوة على ذلك أصبح مزاج البروفيسور (سمرلي) المتقلب ثابتًا مؤخرًا، حتى شككنا أنه بصدد الإقرار أن منافسه على حق، أعرض عن مُعارضته المستمرة وحبس نفسه في سجن من الصمت العميق وهو ما لفت انتباه الجميع، إذ إن هذه الأفعال تتنافى مع سجيته.

على كُلٍّ، سأستأنف روايتي من حيثُ توقفت، سأعمد بهذه الرسالة إلى أحد الرفاق الهنود العائد إلى الوطن عقب إصابته، سأرْسلها معه وكلي شك في قُدْرتِه على توصيلها.

آخر مرة كتبتُ عندما كنا على وشك مغادرة القرية الهندية، التي ودَّعنا فيها السفينة (إزميرالد). يتوجب عليَّ استهلال تقريري بالأخبار السيئة، هاك أول مشكلة خطيرة حدثت في هذا المساء، (بالطبع تناسيتُ ذكر المناكفات المستمرة بين سامرلي وتشالنچر). والتي كادت تَنتهي نهاية مأساوية.

سبق وتحدثتُ عن (جوميز) عاملنا الْمُطيع، الذي يتحدث الإنجليزية، وإن كانت شبه ركيكة، ناهيك عن كونه نصف هجين، إنه رقيق المعشر مُطِيع لكنه يُعاني فضولًا مرضيًّا، يُخيل إليَّ أنني مُبْتلى بهؤلاء الفضوليين، وبالطبع يُعَدُّ فضولهم أمرًا شائعًا بين الرجال على شاكلتهم.

في نهاية الأمسية لبث متواريًا بالقرب من الخيمة، حيث كنا نتناقش فيما بيننا حول خطتنا التي ننوي اتباعها، ولكن لسوء حظه وجده (زيمبو)، زنجيًّا ضخمًا معروفًا بالوفاء الشديد وسخطه على السلالات الهجينة، جَذَبَهُ من ملابسه وألقاه أمامنا ولولا قوة (زيمبو) وسرعته لأدركته سكين (جوميز) التي استلَّها من غمدها، أخذ (زيمبو) السكين منه بيدٍ واحدة.

في نهاية المطاف انتهى الأمرُ ببعض عبارات التوبيخ اللاذعة، ثم أجبرناهما على مُصافَحة بعضهم البعض وكأنَّ شيئًا لم يكُن، بيدَ أنَّ الأمور لم تكن كذلك بين السيدين الآخرين، تَفَاقَمَ الأمرُ بينهما وتراكمت سُحُب الضغينة فوقنا، ولكن إحقاقًا للحقِّ يجب الإقرار بأن (تشالنچر) مستفز مُثير للغضب بدرجة عالية، على الصعيد الآخر فلـ(سامرلي) لسان كالأفعى، وهو ما زاد الأمور سوءًا وأخرجها عن مسارِها.

ليلة أمس أخبرنا (تشالنچر) أنه لم يسبِق له السيرُ فوق جسر (التايمز) بغرض تأمُّل النهر، وإنه ليحزنه معرفة أن هذا هدف منشود للبعض. كما أن وجهته الدائمة هناك هي دير (ويستمنستر) (45). انضم (سامرلي) للمحادثة، ارتسمت على وجهه ابتسامة وقحة، قال إنه يعلم أن سجن (ميلبنك)(46) قد دُمِّرَ.

لم يسمح غرور (تشالنچر) الهائل له بإظهار نيران الغضب المتأججة بقلبه. فقط ابتسم ابتسامة فاترة وأخذ يُردِّد بنبرة مُشفقةٍ كالتي يتحدث بها طفل مع طفل آخر:

- حقًا! حقًا!

في الواقع كلاهما أشبه بطفل، أحدُهما ذابِل مُشاكس، بينما الآخر متغطرس ومُرعب. لديهما عقلية فذَّة جعلتهما في مقدمة الركب العلمي. عقل، شخصية، روح. عندما يرى المرء المزيد من هذا العالم الشاسع يُدرك مدى التباين والتمايُز بين شيء وآخر.

في اليوم التالي بدأنا فعليًّا في رحلتنا الاستكشافية الرائعة. وجدنا أن متاعنا وحاجياتنا يكفيها قاربان، قسَّمْنا مجموعتنا لفرق أصغر، ستة في كل زورق من الزورقين، أخذًا بإجراءات السلامة اللازمة وحرصًا على التفرقة بينهما جِئنا ببروفيسور واحد في كل قارب، كنتُ برفقة (تشالچر)، وفي هذا الصباح بَدَا مزاجُه لطيفًا يتنافى مع سجيته، يتحرك بحماس ونشوة صامتة، بينما نضحت ملامحه بالأمل، بالطبع لديَّ خبرة بأحواله الأخرى. مع ذلك عندما تكون أقل اندهاشًا بالظهور المفاجئ لأشعة الشمس الصاعدة من قلب عاصفة رعدية فلا شيء يقدر على مباغتتك. إذا كان مستحيلًا عليه التبسط معك، فمن المستحيل أيضًا أن تجد رفقته مُمِلَّة، بالنسبة لشخص لديه نصف شك دائم من التحول المفاجِئ في أعصابه وحالاته.

ليومين شققنا طريقنا عبر أحد مسارات النهر الْمُتَّسعة، تبلغ جوانبه عدة مئات من الياردات، مياهه داكِنة لكنها شفافة مما مكننا من رؤية القاع، على أي حال نصف أنهار الأمازون على شاكِلة هذا، أما النصف الآخر فعلى النقيض، مياهها بيضاء رقراقة. يرجع ذلك لاختلاف طبيعة البلد التي تتدفق الأنهار عبرها.

تُشير المناطق المظلمة إلى الأعشاب الْمُتعفنة المتحللة، بينما تُشير المناطق الأخرى إلى التربة الطينية. لمرتين قادنا طريقنا إلى المنحدرات، وفي كل مرة انعطفنا نصف ميل أو أكثر لتجنبها.

على ضفتي النهر أشجار شاهِقة، غابات بكر لم تتسلَّل إليها يد إنسان، أخشابها النامية سهلة الاختراق مما جعل المرور منها عملية يسيرة، لم نتكبد الكثير من المتاعِب في أثناء نقل الزوارق خلالها. كيف لي أن أنسى سِرَّها المقدس؟ كان ارتفاع وسُمْك الأشجار خياليًّا لا يُمكن مقارنته بأي شيء سبق أن رأيته في بلدتي. خيم ظلام دامِس على الأجواء إثر تكاتف الأشجار وتلاحمها، النباتات تعلو وترتفع فوقنا كأنها أعمدة شاهقة، نرفع رءوسنا بحثًا عن قدْر ضئيل من أشعة الشمس. هنالك سحابة فردوسية خضراء اللون تُظللنا وبين الفنية والأخرى يتخلل أوراقها شعاع ذهبي من أشعة الشمس فيبدو كخط مُبهر من الضوء وسط غموض مهيب، نسير في هدوء فوق بساط سميك من النباتات المتحللة، خيم الصمت على الجميع وانكب البروفيسور (تشالنچر) يُدون بعض الجمل في مُفكرته.

بالطبع لم يكن لديَّ أدنى معرفة بأسماء هذه النباتات الهائلة فعمدتُ إلى تجاهلها، أما رجُلا العلم السائران بيننا فأخذا يتباريان في الإشارة إلى أشجار الأرز(47)، وأشجار القطن الحريري العظيمة، أشجار الخشب الأحمر(48)، والكثير والكثير من النباتات المختلفة التي جعلت هذه القارة موردًا رئيسيًّا وهبة من هبات الطبيعة للجنس البشري الذي يعتمد على عالم النبات، في حين أنه أقل احتياجًا إلى المنتجات الحيوانية. كانت زهور الأركيد(49) والأشنيات(50) الملونة الرائعة تُحيط بجذوع الأشجار الداكنة. سقط شعاع ضوء هارب على الألمندة الذهبية(51)، وهناك العناقيد النجمية قرمزية اللون للتاكسونيا(52)، أو الأزرق الداكن للإيبوميا(53). إن السير ها هنا بمنزلة رحلة في أرض

الخيال، في أرجاء هذه الغابة المهيبة تكمن الحياة، حياة تمقت الظلام وتكافح من أجل الصعود لأعلى حيث النور. كل نبتة -حتى أصغرهم- تتلوَّى وتتسلَّق حتى تبلغ السقف الأخضر، تتسلق متشبثة بغيرها من النباتات الأقوى والأطول. إن تسلق النباتات عملية فظيعة ومترفة، لكن الأنواع الأخرى التي لم تُعرف قط بقدرتها على التسلُّق باتت تتعلم هربًا من الظِّلِّ الكئيب، نباتات مثل القراص(54)، الياسمين، وحتى نخلة الجاكيتارا يمكن رؤيتهم وهم يدُورون حول سيقان الأرز ويكافحون للوصول. لم تكن الحياة الحيوانية مُزدهِرة هُنا، على طول الممرات المهيبة التي سِرْنَا فيها لم يكن هناك أي حركة على الأرض تقريبًا، بل كانت مستمرة فوق رءوسنا حيث عالم متعدد الطوائف من القردة والثعابين، الطيور وحيوانات الكسلان، الذين يعيشون في الأعالي قريبًا من أشعة الشمس، ينظرون إلى أسفل متفحصين أحجامنا الضئيلة، هيئتنا الكئيبة، وسيرنا المتعثر -بشكل يتعذَّر قياسه- في الأعماق الغامضة الكامنة أسفلهم.

عند الفَجْر وقبيل بزوغ الشمس، عوت القرود بصراخ مشترك ودخلت الببغاوات في حالة من الثرثرة الحادَّة، وسرعان ما خفتت هذه الأصوات، لم يبقَ في ساعات النهار الحارق سوى طنين الحشرات ليُفعم آذاننا بصوته الرتيب المستمر، مثله مثل ضربات الأمواج البعيدة. لم يتحرك أي شيء آخر في هذا المشهد الرتيب للجذوع الهائلة التي تتلاشى في الظلام الذي مكثنا فيه مُحتجزين.

في إحدى المرات، ظهر أمامنا مخلوق له أرجل عريضة ومشية مُترنِّحة، ربما كان آكل نمل(55) أو دب، يسير بشكل أخرق وسط الظلال. كان ظهوره العلامة الوحيدة للحياة التي رأيتها في هذه الغابة الأمازونية العظيمة. ومع ذلك هنالك مؤشرات على أن الحياة البشرية ذاتها لم تكن بعيدة عنا وسط تلك الأحراش الغامضة.

في اليوم الثالث وصل إلينا صوت ضجيج عميق يتردَّد في الأرجاء، إيقاعي ورزين، يأتي ويذهب بشكل متقطع طوال ساعات الصباح. كانت الزوارق على بُعْد أمتار قليلة من بعضها البعض عندما سمعنا هذا الصوت لأول مرة، ظل الهنود ساكنين بلا حراك، وتحول لونهم إلى أصفر شاحب، أرهفوا السمع بينما الرعب ينهش وجوههم.

سألتُ رفاقي:

- ماذا هناك؟

أجابني اللورد (چون) قائلًا بعدم اكتراث وكأنَّهُ يُقِرُّ حقيقة علمية:

- الطبول! إنها طُبول الحرب، سبق أن سمعتهم.

انضم (جوميز) إلى المحادثة، وقال:

- نعم، إنها طبول الحرب يا سيدي، سُلالات الهنود البريَّة شبه الهجينة، قتلة مستأجرون، يُراقبون كل ميل من الطريق ويراقبوننا كذلك، وسيفتكون بنا إذا سنحت لهم الفرصة.

سألته:

- كيف يُمكنهم رؤيتنا؟

طفق يُحَدِّق في الفراغ كتمثال شاخص البصر، وبعد مُدّة هزّ كتفه العريض وقال:

- للهنود طريقتهم الخاصة في معرفة كل شيء، إنهم يراقبوننا ويتحدثون فيما بينهم بلُغَة الطبول، لن يتوانوا عن قتلنا إن وقعنا في أيديهم.

بعد ظُهْر ذلك اليوم تفحصتُ مُفكرتي وظهر لي أننا في يوم الثلاثاء، الثامن عشر من أغسطس. لعدة أيام استمرَّ صوت قرع الطبول عاليًا كئيبًا، وفي يومنا هذا سمعنا ما لا يقل عن ست أو سبع طبول تُقرع في مناطق مختلفة. تارة تُدَقُّ بإيقاع سريع، وتارة بوتيرة بطيئة، وأحيانًا على شكل سؤال وجواب، بيد أن كليهما ردَّدا الأمر ذاته. الأصوات تنبعث من الشرق البعيد عازفة مقطوعة الموت المتحشرجة، ثم يعقبها قرعات عميقة كهزيم الرعد آتية من الشمال. الأعصاب مشدودة كوتر قوس، والأصوات مستمرة تنذر بالويل، بدا وكأنها تُشكِّل الكلمات ذاتها التي تلفَّظ بها (جوميز) الهجين. سنقتلكم إذا استطعنا! سنقتلك إذا استطعنا!

لم نرصد أي حركة في الغابة الصامتة، باتَ كُلُّ السلام والسكينة وسط هذا اللغط كامنين خلف ستار النباتات المظلم. بعيدًا من خلفنا أتتنا الرسالة الوحيدة التي وصلتنا، قال الرجل الموجود في الشرق:

- سنقتُلكم إذا استطعنا.

ردَّ عليه صاحبُه الموجود في الشمال قائلًا:

- سنقتُلُكم إذا استطعنا.

أخذتِ الطبول تُقرع طوال اليوم، تهمس بأسرارٍ لا يفهمها أحدُنا، ومعها تتسارع نبضاتُ القلوب فزعًا، أضْحَتْ وجوه رفاقنا مرآة ينعكس فيها الْهَلَع. حتى أشجعهم، وأكثرهم زهوًا بَدَا خائفًا كفأرٍ في مصيدة. في هذا اليوم أدركتُ أن (سامرلي) و(تشالنچر) يتمتعانِ بنوعٍ مختلفٍ وراقٍ من الشجاعة وقوة الأعصاب، إنها شجاعة العقل العلمي. هناك الروح التي أذرت (داروين) لما نزل بين (الغاوتشو)(56) في الأرجنتين، أو ساعدت (والاس) بين صائدي الرءوس في (مالايا). هذه أشياء مُقدَّرة ومرسومة من قبل قوى الطبيعة الهائلة الرحيمة أحيانًا، مثلًا لا يقدر العقل البشري على التفكير في شيئين في الوقت ذاته، فإذا كان غارقًا في الفضول العلمي أو التأمُّل الفكري فلا مجال لقناعاته الشخصية.

طوال اليوم وسط الخطر الغامض الذي لا ينقضي طفق البروفيسوران يُراقبان كل طائر، وكل شُجيرة، وما بين زمجرة (سمرلي) السريعة وزئير (تشالنچر) العميق دارت رَحَى الجدالات، لكنها كانت خالية من شعور الخطر، ولم يعد أمر الهنود الذين يقرعون الطبول يتعدى كونه أكثر من نقاش في إحدى قاعات نادي الجمعية الملكية في شارع (سانت چيمس). مرة واحدة فقط قرروا ألا يتناقشوا، قال (تشالنچر) وهو يشير بإبهامه نحو الطبول التي يتردَّد صَدَاهَا:

- ربما كانت هذه هي قبائل الميرانا أو الماجواكا آكلي لحوم البشر.

أجابه (سامرلي) قائلًا:

- الحق ما تقول يا سيدي, إنني أتوقع أن هذه القبائل وما على شاكلتها لا يكونون إلا من الفصيلة المنغولية أو الهندية.

قال (تشالنچر) مُتساهلًا:

- بالتأكيد، هُنالك الكثير من اللغات مُتعدِّدة التراكيب هنا، لا يُمكنني معرفة نوع آخر من اللغات في هذه القارة، لقد لاحظتُ أكثر من مئة حتى الآن. ومع ذلك إنني أنظر إلى النظرية المنغولية بريبة شديدة.

قال (سامرلي) بلهجة يشوبها المرارة:

- لقد ظننتُ أنه حتى معرفة محدودة بعلم التشريح الْمُقارن قد تساعد على التحقق من الأمر.

رفع (تشالنچر) عقيرته التي تتموج في حركات عدائية حتى بات وجْهُه كُلُّه عبارة عن قُبعة، وقال:

- لا شك أن للمعرفة المحدودة هذا التأثير الذي تقول عليه، لكن عندما تكون معرفة المرء شاملة تظهر له استنتاجات أخرى.

تبادلوا نظرات عدائية متحفِّزة، ومن بعيد تنامى همس الطبول مكررًا... سنقتلكم إذا استطعنا، سنقتلكم إذا استطعنا.

في الليل صنعنا مرساةً من الحجارة، أرسينا زوارقنا وسط تيار النهر الجارف، أخذنا حذرنا وقُمنا بكل ما نقدر عليه من استعدادات تحسُّبًا لأي هجوم محتمل، لكنَّ شيئًا لم يحدُث في ساعات البكور استأنفنا طريقنا، بينما صوت الطبول يخفت تدريجيًّا من خلفنا، وأدركنا أننا نبتعد عن الهنود المتوحشين أخيرًا.

في تمام الثالثة بعد الظهر عبرنا منحدرًا نهريًّا يبلغ طوله الميل؛ تحديدًا هذا هو المكان الذي عانى فيه البروفيسور (تشالنچر) الأمرين في أثناء رحلته الأولى. أعترف أن رؤيتي له أثلجتْ صدري، هذه أول علامة -وإن كانت بسيطة- على صِدْق قصته.

وَقَعَ على عاتق الهنود عِبْء حمل القوارب أولًا ثم المؤن والذخائر، التي كانت ثقيلة للغاية حينها، بينما حملنا نحن الأربعة البنادق على أكتافنا ومشينا بينهم مُتأهِّبين لأي خطر آتٍ من الغابة. قبل أن يُسدل ستار الظلام مُعلنًا حلول المساء كنا قد اجتزنا المنحدر بنجاح، طفقنا سائرين في طريقنا قرابة عشرة أميال حتى بلغنا مكانًا قرَّرْنا الرسو فيه هذه الليلة. عند هذه النقطة أجريتُ بعض الحسابات، لقد قطعنا ما لا يقل عن مئة ميل بعيدًا عن فرع النهر الأساسي.

مُبكرًا في صباح اليوم التالي أدركتُ أننا أحرزنا تقدمًا عظيمًا. منذ الفجر والبروفيسور (تشالنچر) مُضطرب للغاية، يتفقد ضفتي النهر باستمرار. على حين غرة صاح والرضا يُكلل ملامحه، أشار إلى شجرة قابعة في زاوية غريبة على الجانب الآخر من الجدول وسألنا قائلًا:

- ما رأيكم في هذه الشجرة؟

أجابه (سامرلي) قائلًا:

- إنها بالتأكيد نخلة الآساي(57).

- بالضبط، إنها نخلة الآساي التي اتخذتها نُقطة استدلال. إن المدخل السري يبعد نصف ميل على الجانب الآخر من النهر. أشجار تلك المنطقة سليمة خالية من الكسور، ولعمري إن هذا لسر جمالها وغرابتها في آنٍ واحد؛ الأشجار خضراء زاهية الألوان، ليست هذه الشُّجيرات ذات الأخضر الداكن، بين أشجار القطن الكبيرة تقبع بوابتي السرية التي تقود إلى المجهول. اندفع خلالها، وسوف تفهم.

بالتأكيد إنه مكان رائع. لم يمضِ الكثير من الوقت حتى بلغنا مكاننا المنشود، يحدُّه خط من الأرض الْمُعشوشبة خضراء اللون. اندفعنا بزوارقنا خلالها لعدة مئات من الياردات، وفي النهاية وصلنا لبُقعة ذات تيار هادئ وضحل، ينساب بوضوح وشفافية كاشفًا قاعًا رمليًّا. يكاد عرضه يبلغ العشرين ياردة ويحده من كل جانب نباتات وارفة. لا أحد لم يلحظ أن البوص حَلَّ محلَّ الشُّجيرات لمسافة قصيرة، ربما توقعتُ وجود تيار مثل هذا أو حلمتُ بأرض الخيال الكائنة وراءه.

بالنسبة لأرض الخيال كانت أروع مما يقدْر عقل إنسان على تخيُّلِه. النباتات الكثيفة تتشابك فوق النهر مُكونة سقيفة طبيعية بهية الطلة، يتسلل من خصاصها ألق الشمس الذهبي صابغًا النهر الشفاف، الجميل في حدِّ ذاته، الْمُتدفق أسفلها بلون أخضر مُنعِش، صبغات غريبة وألوان زاهية ألقاها الضوء عند سقوطه. رأيتُ تلك الألوان واضحة كالبلور، ثابتة كلوح زجاجي، خضراء كحافة جبل جليدي، مُمتدة أمامنا بطول الممر المكسو بالأوراق، كل ضربة من مجاديفنا تُرسل آلاف التموجات عبر سطح النهر اللامع. إنه حقًّا طريق مُناسب لأرض العجائب. اختفت كل العلامات على وجود الهنود خاصة أو البشر عامة، ولكن الحياة الحيوانية باتت أكثر انتشارًا، أضحت المخلوقات حُرَّة نقية كأنها لا تعرف شيئًا يُسمَّى الصياد. هناك القرود الصغيرة الغامضة التي يُشبه فروها المخمل الأسود، أسنانها بيضاء بلون الثلج، وعيونها لامعة ساخرة، ظلت تُثرثر في أثناء مُرورنا. من حينٍ لآخر يقفز تمساح أمريكي من النهر مُخلفًا رذاذًا من الماء.

ذات مرة، حدق بنا تابير(58) أسود اللون، أخرق الطبع من فجوة بين الأشجار، ولم يلبث أن أكمل طريقه عبر الغابة مرة أخرى، وذات مرة حلَّقَت فوقنا بومة صفراء فاقع لونها خافقةً بـأجنحتها وسط الأدغال. أمست عيونها خضراء اللون المفعمة بالكراهية تحدِّق في وجوهنا. إن أنواع الطيور وافرة هنا، خاصة الطيور الخواضة مثل اللقلق، والبلشون، وأبو منجل، وجُلُّها تتجمع في مجموعات صغيرة، وتتنوع ألوانها ما بين الزرقاء، والقرمزية، والبيضاء. أما المياه البلورية الرقراقة أسفلنا فممتلئة بالأسماك من كل نوع ولون.

لثلاثة أيام كاملة شققنا طريقنا في النَّفق الْمُضَاء بأشعة الشمس الصفراء الضبابية. على فترات طويلة عجزنا عن تبين نهاية المياه الخضراء الممتدة أمامنا وبداية الممر الأخضر المنتظر في الأفق البعيد. إن السلام العميق لهذا الممر المائي الغريب لم يُدنس بأي علامة تدل على وجود البشر.

قال (جوميز):

- لا يوجد أحد من الهنود هنا؛ إنهم يهابون الكروبوري.

أمسك اللورد (چون) بزمام الحديث وقال موضحًا:

- (كروبوري) هي روح الغابة. إنه اسم يُطلق على أي نوع من الشياطين. بالطبع هذه هي آراءُ الفقراءِ المتسولين، الذين يظنون أن هناك شيئًا مُريعًا في هذا الاتجاه؛ لذا يتجنبونه.

في اليوم الثالث، بَدَا واضحًا أن رحلتنا على مَتْن الزوارق لن تدومَ طويلًا؛ إذ إن مجرى المياه أصبح أكثر ضحالةً. مرتين خلال عدة ساعات قليلة علِقنا في القاع. في النهاية سحبنا القوارب وقضينا ليلتنا على ضفة النهر. في الصباح سِرْتُ أنا واللورد (چون) لمسافة مِيلين في الغابة، بمحاذاة الجدول، ورأينا أن النهر أصبح أكثر ضحالةً من أي وقت مضى؛ لذا عُدنا أدراجنا وأبلغناهم، كما أن (تشالنچر) ظن أننا وصلنا إلى أقصى نقطة يُمكن أن تبلغها الزوارق. حملناهم من النهر، ثم أخفيناهم بين الأشجار وميَّزنا هذه المنطقة بفئوسنا، حتى يتسنى لنا العثور عليها ثانيةً. قسمنا ما أحضرناه معنا من متاع بيننا؛ بنادق، وذخيرة، وطعام، وخِيام، وبطانيات إلى آخره، حملناهم فوق أكتافنا، وبدأنا المرحلة الأكثر مشقة من رحلتنا.

لسوء الحظ استهللنا المرحلة الجديدة من رحلتنا بشجار مُؤسف. منذ اللحظات الأولى لانضمام (تشالنچر) لنا وهو يُصدر التوجيهات للمجموعة كلها، وهو ما أثار سخط (سامرلي) بطريقة واضحة. الآن، عند تكليفه ببعض المهام من قِبل زميله البروفيسور (مجرد أمر بسيط هو حمل البارومتر) (59)، عند هذا الحدِّ بلغ السيل الزُّبَى.

قال (سامرلي) بهدوء، وصوته مُحمل بالضغينة:

- هل لي أن أسألك سؤالًا يا سيدي؟ من الذي أعطاك الحق في إصدار هذه الأوامر؟

أجابه (تشالنچر) بزهو:

- إنها مهامي كوني قائدًا لهذه الحملة أيها البروفيسور (سامرلي).

- إنني مضطر لإخبارك يا سيدي بأنني لا أراك أهلًا لهذا الأمر.

انحنى (تشالنچر) بطريقة ساخرة وقال:

- حقًّا! لربما كنتَ راغبًا في تحديد موقعي بالضبط.

- حسنًا يا سيدي، أنت رجل يُخْتَبَر صدق أحاديثه، وهذه اللجنة هنا لاختبار صدقها. يُمكنك وحدَك السير وفق حكمك.

انتحى (تشالنچر) جانبًا وجلس على إحدى الزوارق، وقال:

- عزيزي! في هذه الحالة ستذهب أنت في طريقك، وسأتبعك في وقت فراغي. ما دمتُ لستُ قائدكَ فلا تطلب مني القيادة.

فلنحمد الله أن بيننا رجالًا عاقلين -اللورد (چون روكستون) وأنا- ليحبطوا حماقات ومشاكسات أساتذتنا المتعلمين، ويحُولون دون إرجاعهم إيَّانا إلى لندن خاليين الوفاض.

مَرَرْنا بهكذا جدال، ترفع، شرح قبل أن نتمكن من تهدئتهم! في النهاية تقدم (سامرلي) سائرًا إلى الأمام وغليونه يتدلَّى من فمه ووجهه تعلوه أمارات السخرية، ثم أتى (تشالنچر) مُتدحرجًا خلفه، مُتذمِّرًا. ابتسم الحظ لنا عندما علمنا بمرور الوقت أن رجلينا لديهما ذات الرأي السيئ -حقيقةً هو أسوأ الآراء على الإطلاق- عن الدكتور (إلينجوث) المقيم في أدنبره. من حينها ونحن نُعول سلامتنا على هذا الأمر، كُل موقف مررنا به خفَّفْنا مِن وطأتِه عن طريق تحويل الحديث إلى عالم الحيوان الإسكتلندي، الكراهية المشتركة لهذا الزميل هي السلاح الذي استخدمناه لتشكيل تحالف وصداقةٍ مؤقتةٍ بين البروفيسورين.

تقدَّمنا مجموعات مُنفردة بطول ضفة النهر، الذي أخذ يضيق شيئًا فشيئًا حتى باتَ مجرد غدير صغير، في النهاية وَجَدْنَا أنفُسنا في مُستنقع أخضر كبير قوامه طحالب إسفنجية خُضنا فيها حتى رُكبنا. هناك سُحُب من فوقها سُحُب من البعوض، وكل الآفات الطائرة تكسو المكان؛ لذا كُنَّا سعداء لما بلغنا الأرض الصلبة مرة أخرى وهو ما مكننا من الدوران حول سياج الأشجار، ومن ثم أعطانا القدرة على الالتفاف حول المستنقع المروع، الممتلئ بالحشرات.

وفي اليوم الثاني بعد تركنا زوارقنا، تبيَّن أن طابع البلد كله تغيَّر. كان الطريق صاعدًا باستمرار، ومع تَوَغُّلِنا صارت الغابة أَرَقَّ، وفَقَدَتْ خُصُوبَتَها المدارية. شكَّلت أشجار السهل الأمازون الضخمة مَوْطنًا للعنقاء وأشجار جوز الهند، التي تنمو في كُتل مُتناثرة، وبينها حِزم من الأغصان. في التجاويف العميقة أوغل نخيل موريشيا جذوره بينما تدلَّى سعفُه فوقَنا.

سافرنا اعتمادًا على البوصلة، ولمرة أو اثنتين حدث اختلاف في الرأي بين (تشالنچر) ومُساعدينا الهنود، عندها، دعْني أقتبس كلام البروفيسور الساخط، عندما وافقت المجموعة كلها «أتثق في غرائز المتوحِّشين الزائفة الذين لم تمتد لهم يدُ التطور بدلًا من أفضل المنتجات الأوربية الحديثة؟». تبين لنا ما يبرر فعلتنا في اليوم الثالث، عندما أَقَرَّ (تشالنچر) بأنه عرف العديد من المعالم البارزة لرحلته السابقة، وفي إحدى المناطق عثرنا على أربعة أحجار سودتها نار التخييم.

لا يزال الطريق صاعدًا لأعلى، عَبَرْنَا مُنحدرًا صخريًّا استغرق اجتيازه يومين. من جديد تغيرت النباتات، ولم يبقَ سوى شجرة العاج، وكمية كبيرة من السحلبيات رائعة الشكل، التي علمتني معرفة نبتة (نوتونيا يكسيلاريا) النادرة وأزهار الـ(كاتْليا)(60) الوردية والقرمزية، و(أودونتوجلوسم) (61). تصادف مرورنا عدة مرات بجداول تموج قِيعانها بالحصى، وعلى ضِفاف المياه الضحلة نَمَت السراخس باضطراد، بينما اتخذت الخوانق من أعلى التَّلِّ مكانًا لها، وَجَدْنَا أماكن تصلح للتخييم كل مساءٍ على ضفاف بعض البِرك الْمُزدانة بالصخور، وصنعنا من أسراب الأسماك الصغيرة زرقاء الظهر، التي تُشبه سمك السلمون المرقط الإنجليزي من حيث الشكل والحجم، عشاءً لذيذًا.

في اليوم التاسع لتركنا الزوارق، تعمقنا -كما أظن- نحو مئة وعشرين ميلًا، بدأت الغابة تتعرَّى من الأشجار، تَفْقِد طابعها الاستوائي، رويدًا رويدًا تضمحل الأشجار وتصغُر حتى غَدَتْ شُجيرات. تسيَّد الغابة نوع من الخيزران البري، الذي أخذ كفايته من النمو وبات سميكًا حتى إننا لم نقدر على اختراقه إلا بشق طريق باستخدام مناجل وخطافات الهنود. أمضينا وقتًا طويلًا في اجتياز هذه العقبة تقريبًا من السابعةِ صباحًا حتى الثامنة مساءً، استرحنا خلال هذه المدة مرتين لم تزد إحداهما عن ساعة. لم يكن

بوسعنا تخيُّل أي شيء أكثر رتابة مما نحن بِصَدَدِهِ، حتى في أكثر الأماكن المفتوحة لم أرَ أكثر من عشر أو اثنتي عشرة ياردة فقط، بينما أغلب الوقت كانت رؤيتي تقتصر على الجزء الخلفي من سترة اللورد (چون) القطنية، وعلى الجدار الأصفر الذي يقع على مسافة قدم مِنِّي ويُحيط بي من كلا الجانبين. من فوقنا أرسلت الشمس أعمدتها الذهبية الرقيقة، كُنا قادرين على رؤية قِمَم البوص تبعد عن رءوسنا مسافة خمسة عشر قدمًا وهي تتمايل في زُرقة السماء العميقة. لا أعرف أيَّ نوع من المخلوقات يسكن في غابة كهذه، لكننا سمعنا مرات عديدة صوت حيوانات كبيرة وثقيلة تقترب مِنَّا. أصغى اللورد (چون) لأصواتها، وأصدر حُكمه بأنها نوع من الماشية البرية. عندما حَلَّ الليل، استخدمنا أعواد الخيزران، لصنع معسكر مُرتجل، هجعنا فيه نُعاني إنهاك عمل النهار الذي لا نهاية له.

صباح اليوم التالي، ومع أول خطوط النهار كنا على أقدامنا من جديد، وجدنا طابع البلد وقد تغيَّر مرة أخرى. خلَّفنا وراءنا حائطًا في سِياج الخيزران، واضح ومحدَّد كأنه يرسم مسارَ نهرٍ. أمامنا ظهر سهل مفتوح مُنحدر قليلًا إلى أعلى ويتخلَّله كُتَل من السراخس، التي تُشكل قوسًا، تنتهي بسلسلة طويلة من التلال الشبيهة بالعجلة. وصلنا هنُاك عند منتصف النهار، فقط لنجد واديًا ضحلًا وراء الأفق، مرة أخرى يرتفع الطريق لميل كامل، بَدَتِ السماء كأنها لوحة من الخطوط المرتفعة والمنخفضة. هنا، بينما نعبر أول هذه التلال وقعت حادثة قد تكون أو لا تكون مهمة.

وقف البروفيسور (تشالنچر) برفقة اثنين من الهنود في طليعة المجموعة، استدار فجأةً وأشار بحماس شديد إلى اليمين. بينما يفعل ذلك رأينا -على مسافة ميل أو نحوه- شيئًا ما بَدَا كأنه طائر رمادي هائل يُرفرف بجناحيه مبتعدًا عن الأرض، ويُحلِّق بسلاسة، يطير على ارتفاع منخفض، في خط مستقيم، تابعناه حتى اختفى بين الأشجار.

صاح (تشالنچر) مُبتهجًا:

- هل رأيت ذلك يا (سامرلي)! هل رأيته؟

تجمَّد البروفيسور (سامرلي) في مكانه ولبث مُحدقًا في المكان الذي اختفى فيه المخلوق، بعد برهة قال:

- أخبرني عن مزاعمك بصدد هذا الشيء.

- حسب اعتقادي، إنه الزاحف المجنح.

لم يتمالك (سامرلي) نفسه، ودخل في نوبة من الضحك الساخر، لما هدأ قليلًا قال:

- بل هراء مُجنح! إنه مجرد لقلق، إذ رأيتُ واحدًا من قبل.

بلغ غضب (تشالنچر) الحد الذي أعجزه عن الكلام. فقط أرجح حقيبته على ظهره وواصل سيره. دنى اللورد (چون) مني، نظرتُ لوجهه فبدا أحمر مما يبدو عليه عادةً. في يده استقر مِنظاره الْمُقرب. قال لي:

- لقد تابعته وركزت نظري عليه قبل أن يتخطى الأشجار، لن ألزم نفسي بتحديد نوعه، لكنني سأخاطر بسمعتي كوني رياضيًّا وأقول إنه لا يشبه أي طائر رأيته في حياتي.

ها هي ذي المسألة القائمة. هل نحن حقًّا واقفون على حافة المجهول، نواجه الحواف البعيدة لهذا العالم المفقود، التي تحدث عنها قائدنا؟ لقد وصفتُ لكم الواقعة كما وقعت، ومن ثم فأنتم تعرفون بقدر ما أعرف أنا. إنها حادثة مفردة؛ لأننا لم نرَ ما هو أكثر من هذا حتى نُسميها إشارة.

والآن يا قرائي الأعزاء -لو كان لديَّ قراء بالطبع- لقد اصطحبتُكم إلى أعلى النهر الواسع، وأسفل النفق الأخضر، وصعودًا حيث المنحدر الطويل المحفوف بأشجار النخيل، عبرنا حواجز الخيزران، ومررنا بسهل من الأشجار السرخسية. وأخيرًا أصبحت وجهتنا قاب قوسين أو أدنى. فور عبورنا الحافة الثانية رأينا أمامنا سهلًا غير منتظم مُرصَّع بأشجار النخيل، ثم خط من المنحدرات الحمراء العالية كالتي رأيتها في الصورة. إنها تكمن هناك، حتى وأنا أكتب هذه الكلمات، لا يُساورني أي شك أن هذا هو ذات المكان بعينه. أقرب نقطة تبعد سبعة أميال عن مُعَسْكرِنا الحالي، وتُكمل طريقها مُنحنية وممتدة بقدْر ما أرى. (تشالنچر) يتمايل مُنتشيًا كأنه طاووس، (سامرَلي) صامِت ومتشكك. من شأن يوم آخر أن يضع حدًّا لشكوكنا.

في هذه الأثناء، كان (جوزيه)، الذي أصابته إحدى قطع الخيزران المكسورة في يده، يتجهز للعودة، سأضع هذه الرسالة في عُهْدَتِه، وآمل فقط أن تصل إلى اليد المعنية في نهاية المطاف. سأكتب مرة أخرى حسب المناسبة. سأرفق مع هذه الرسالة مُخططًا يدويًّا لرحلتنا، والذي قد يجعل الأحداث التي أرويها أيسر في الفهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

مَنْ يُمكنه التنبؤ بهذا؟

شيء مُروع حَدَثَ لنا. مَنْ يُمكنه التنبؤ بهذا؟

لا يُمكنني التنبؤ بأي نهاية لمشكلاتنا. لربما حُكم علينا بقضاء حياتنا كلها في هذا المكان الغريب الذي يتعذَّر الوصول إليه. ما زِلتُ مرتبكًا لدرجة أنني بالكاد أستطيع التفكير بوضوح في حقائق الحاضر أو فُرص المستقبل.. بلغتَ دهشتي مَدَاهَا حتى إنني أشعر بأن أحدهما فظيع والآخر أسود حالِك مثل الليل.

لا أظن أن هنالك رجالًا -أي رجال- وَجَدُوا أنفسهم في وضع أسوأ مِن هذا، لا فائدة من الكشف عن موضعنا الجغرافي الدقيق، ومطالبة أصدقائنا بإغاثتنا. حتى لو بمقدورهم إرسال فريق إنقاذ، فسيتحدَّد مصيرُنا بجميع احتمالاته قبل وقْتٍ طويل مِنْ وصوله إلى أمريكا الجنوبية.

حقيقةً إننا بعيدون كل البُعْد عن أيِّ عون بشري كما لو أننا نسير على سطح القمر. إذا أردنا النجاة، فلن يحدث هذا إلا بصفاتنا ودهائنا الذي يُمكنه إنقاذنا. إنني برفقة ثلاثة رجال رائعين، لديهم عقول قوية، وشجاعة لا تتزعزع. وهنا يكمن أملنا الوحيد. عندما أُطالع وجوه رفاقي التي تبدو كسماء صافية لا تعكس ما في داخلهم، وبين الحين والآخر أرى في الظلام وميضًا مما يتأجَّج داخلهم. إنني شديد الثقة على أني أبدو غير مُهتم مثلهم، ظاهريًّا على الأقل. أما داخليًّا فأنا ممتلئ بالخوف.

اسمحوا لي أن أُقدِّم لكم أكبر قدْر ممكن من التفاصيل، الأحداث المتسلسلة التي أدَّتْ بنا إلى هذه الكارثة.

ذكرتُ في رسالتي الأخيرة، أننا كنا على بُعْد سبعة أميال من خط المنحدرات الصخرية الهائلة، التي -وبلا شك- تُحيط بالهضبة التي تحدَّث عنها البروفيسور (تشالنجر) لما اقتربنا منهم كفايةً بدا لي طولهم، أكبر مما ذُكر -بلغ طول أجزاء بعينها ألف قدم على الأقل- وكانوا مُخططين بشكل غريب، بطريقة ما أظن أنها إحدى سمات الأحجار البازلتية. أشياء مثل هذه يُمكن رؤيتها في (ساليسبري كراجز)(62) الموجودة في إدنبرة. أما القمة فمكسوة بالنباتات النضرة، الحافة تُطوقها الشُّجيرات، وإلى الخلف قليلًا هناك صف من الأشجار العالية. لم نتمكن من رؤية أي علامات تدل على الحياة.

في تلك الليلة أقمنا معسكرنا تحت الجرف مباشرة في بقعة نائية ومهجورة للغاية. لم تكن الصخور فوقنا عمودية فحسب، بل مُنحنية بارزة للخارج كلما صعدت لأعلى، وهو ما جعل التسلُّق فكرة غير واردِة. قريبًا منا حيث القمة العالية الرفيعة هناك صخرة أظن أنني ذكرتها سابقًا خلال السَّرْد؛ إنها تبدو تمامًا مثل برج كنيسة أحمر واسع، قمته في مستوى الهضبة، بيد أن هناك هوة كبيرة بينهما. تنمو على قمته شجرة واحدة عالية. يُخيل إليَّ أن كُلًّا من القمة والحافة منخفضان نسبيًّا- حوالى خمسمئة أو ستمئة قدم.

أشار البروفيسور (تشالنجر) إلى الشجرة وقال:

- لقد جرى الأمر هنا، كان الزاحف المجنح جاثمًا على هذه الشجرة. لما تسلقتَ منتصف الطريق الصخري، قبل أن أطلق النار عليه. أظن أن متسلق الجبال الجيد مثلي يمكنه الصعود إلى القمة، على الرغم من هذا فإنه لن يكون قريبًا من الحافة عندما يفعل ذلك.

عندما تحدث (تشالنچر) عن زاحفه المجنح، نظرت ناحية البروفيسور (سمرلي)، ولأول مرة بدا أنني أرى علامات التَّصْديق والمدم. اختفت أمارات السخرية من على شفتيه الرقيقتين، وعلى عكس عاداته، ارتسمت على وجهه نظرة ضبابية تقطر إثارة ودهشة. (تشالنچر) أيضًا رآها، واستمتع بمذاق نصره الأول. قال بسخريته المعهودة وغطرسته:

- بالطبع عندما أتحدث عن الزاحف المجنح، سيفهم البروفيسور (سمرلي) أنني أعني اللقلق؛ فقط هو نوع اللقلق الذي يملك بدل الريش جلدًا، أجنحة غشائية، وأسنان في فكيه.

ابتسم (تشالنچر) بغموض، وانحنى للبروفيسور الذي التفت وسار مبتعدًا.

في الصباح، تناولنا إفطارًا متواضعًا من القهوة وجذور الْمنيهوت (63) -بات لزامًا علينا الاقتصاد في مخزوننا- ثم عقدنا مجلسًا لمناقشة أفضل السُّبل الممكنة حتى نصل إلى الهضبة الرابضة فوقنا.

ترأس (تشالنچر) المجلس وبدأه بصفة رسمية كأنه رئيس القضاة الواقف أمام هيئة المحكمة. فقط تخيله جالسًا على صخرة، بينما تميل قبعة القش الصبيانية السخيفة التي يعتمرها على الجزء الخلفي من رأسه، تُطل علينا عيونه المتسلطة من بين جفونه المتدلية، ولحيته السوداء الهائلة تهتز ببُطء وهو يشرح وضعنا الحالي وحركاتنا المستقبلية.

أسفل منه يُمكنك رؤية ثلاثتنا؛ أنا بحروق الشمس التي أعانيها، شابًّا، ممتلئ بالحيوية بعد تسكعنا في الهواء الطلق؛ ثم (سمرلي)، بهيئته الرزينة لكنه ما زال انتقاديًّا، يتدلَّى من فمه غليونه الأبدي؛ أخيرًا اللورد (چون)، حريص مثل حافة سكين، بشخصيته المرنة واليقظة، يُمسك بندقيته بيده، وعيناه مثبتتان تمسحان الفراغ خلف مُحدِّثنا بتأهب وصبْر فارغ. وراءنا جلس اثنان من مُعاونينا الهجناء ورابطة صغيرة من الهنود، بينما احتلت تلك الأضلاع الصخرية الضخمة، وردية اللون الأفق أمامنا حائلة بيننا وبين هدفنا.

قال قائدنا:

- لا حاجة بي للقول، إنه في زيارتي الأخيرة هنا استهلكتُ كل وسيلة ممكنة لتسلق الهاوية، ومع ذلك فقد فشلتُ ولا أظن أن أي شخص آخر قد ينجح، وذاك لأني مُتسلِّق جبال بارع. وقتها لم يكن مع أي من مُعدات تسلق الصخور، لكنني اتخذت الاحتياطات اللازمة لإحضارها الآن. بمساعدتهم، أظن أنه يمكننا تسلق هذا البرج المنعزل وصولًا إلى القمة؛ ولكن طالما بقيت الهاوية الرئيسية فاغرة فاها فمن العبث محاولة الصعود. لما كنتُ هنا سابقًا كنتُ عجولًا بسبب اقتراب المواسم المطيرة، وقلة إمداداتي. هذه الأمور حدَّدت وقتي وقصرته لحد كبير، ولا يسعني إلا الاعتراف بأنني استطلعتُ ستة أميال من الهاوية حتى شرق الموضع الذي نقف فيه، بيد أني لم أجد أي طريقة ممكنة للصعود. إذن ما الذي سنفعله الآن؟

أجابه البروفيسور (سمرلي) قائلًا:

- يُخيَّل إليَّ أن هناك طريقًا واحدًا معقولًا. بما أنك سبق واستكشفت الشرق، فيجب علينا السفر على طول قاعدة المنحدر إلى الغرب، والبحث عن نقطة عملية تصلح للصعود.

انضم اللورد (چون) للمحادثة، وقال:

- هذا كل شيء. هنالك احتمال أن هذه الهضبة ليست كبيرة الحجم؛ لذا سنسافر حولها حتى نجد طريقة يسيرة للصعود، أو نعود إلى النقطة التي بدأنا منها.

قال (تشالنچر):

- لقد سبق وشرحتُ لصديقنا الشاب هنا (لديه طريقة تُلمِّح إليَّ كما لو كنتُ طفلًا يبلغ من العمر عشر سنوات ويرتاد المدرسة)، إنه من المستحيل وجود طريق سهل للصعود في أي مكان، ذلك لسبب بسيط جدًّا أنه إذا كانت القمة غير معزولة، لما حدثت تلك الظروف الاستثنائية التي أحدثت تدخلًا فريدًا في القوانين العامة للبقاء. ومع ذلك، أعترف بأنه قد يوجد أماكن يُمكن لمتسلق بشري خبير أن يصل من خلالها، بشكل جيد إلى القمة، في حين يعجز الحيوان الثقيل الْمُتعب من النزول. مُؤكد أن هناك نقطة صالحة للصعود.

سأله (سمرلي)، بلهجة حادَّة:

- كيف تعرف هذه الأشياء يا سيدي؟

أجابه (تشالنچر):

- هناك من أتى إلى هنا سلفًا، الأمريكي (مابل وايت)، لقد فعل شيئًا كالذي نتحدَّث عنه. وإلا كيف تمكن من رؤية الوحش الذي رسمه في دفتر ملاحظاته؟

قال (سمرلي) بعناد:

- إنك تقدم بعض الأسباب إلى حدٍّ ما على الحقائق المثبتة. أعترف بأن هضبتك موجودة حقًّا؛ لأنني رأيتها؛ لكنني لم أقتنع بعد بأنها تحوي أي شكل من أشكال الحياة.

- ما تعترف به، أو لا تعترف به، يا سيدي له أهمية صغيرة لا يمكن تصورها. يسعدني إدراك أن الهضبة ذاتها تفوقت على ذكائك.

نظر إليها مُطولًا، ثم لدهشتنا، نهض من على الصخرة، أمسك بتلابيب (سمرلي)، أمال وجهه إلى الحافة، صاح فيه بصوتٍ أجش مُفعم بالإثارة:

- الآن يا سيدي! هل أساعدك على معرفة أن الهضبة تحتوي بعض الحياة الحيوانية؟

سبق وقلتُ: إن خطًّا سميكًا من اللون الأخضر يُحد حافة الهاوية. منه خرج جسم أسود لامع. تحرك ببُطء فوق الصدع، وعندها رأينا أنه ثعبان كبير جدًّا برأس مسطح غريب يشبه الرفش. اهتزَّ وارتجف فوقنا لمدة دقيقة، وشمس الصباح تتلألأ على لفائفه الأنيقة المتعرجة. ولم يلبث أن انسحب ببُطء عائدًا، واختفى.

انتاب (سمرلي) اهتمام مفاجئ، لدرجة أنه تخلى عن مقاومته ووقف بلا حراك بينما قرَّبَ (تشالنچر) رأسه من الهواء. الآن نفض يد زميله عنه وعاد إليه رشده. قال:

- يجب أن أكون سعيدًا أيها البروفيسور (تشالنچر)، سأطلب منك إعادة النظر في طريقة شرحك أو إبدائك أي ملاحظات، أتمنى أن يحدث هذا دون إمساكك بذقني. حتى ظهور أصلة(64) صخرية عادية لا يُبَرِّر مثل هذه الفعلة.

قال زميله بانتصار:

- أقلها هناك حياة متشابهة أعلى الهضبة. الآن، وفي ظل هذا الاستنتاج المهم وحتى يكون واضحًا لأي شخص، سواء أكان متحيزًا أم أبلهًا، إنني أرى أنه لا يوجد أفضل من إزالة معسكرنا والسفر غربًا حتى نجد وسيلة للصعود.

إنَّ أرض سفح الهاوية صخرية، صخورها محززة وتشبه الحصى لذا بات تقدمنا بطيئًا وصعبًا. على حين غرة وصلنا إلى شيء أبهج قلوبنا؛ إنه موقع المخيم القديم، هناك العديد من عُلب لحوم شيكاغو الفارغة، وزجاجة كُتب عليها (براندي)، فتاحة عُلب مكسورة، والعديد من الأشياء المحطمة الأخرى التي يُخلِّفُها المسافرون. هناك أيضًا صحيفة بالية مُفتته تأملتها فظهر أنها صحيفة (ديمقراطية شيكاغو)، لكن التاريخ كان مطموسًا.

قال (تشالنچر):

- هذه الأشياء لا تعود إليَّ. يجب أن تكون لـ(مابل وايت).

مكث اللورد (چون) يُحدِّق بفضول في شجرة كبيرة احتلت أغلب المخيم. ثم قال:

- انظر إلى هذا. أظن أنه موضوع هنا كونه علامة.

على الشجرة ثُبِّتَتْ قطعة من الخشب الصلب بواسطة المسامير بطريقة تشير إلى الغرب.

قال (تشالنچر):

- بالتأكيد إنها علامة. ماذا أيضًا؟ لقد وجد رائدنا نفسه في مأمورية خطيرة؛ لذا وضع هذه العلامة حتى يعرف أي أحد يأتي بعده الطريق الذي اتخذه. ربما ستتجلى لنا بعض العلامات الأخرى ونحن نمضي قُدُمًا.

بالفعل مضينا قدمًا، لكن المكان حولنا أصبح ذا طبيعة رهيبة وغير متوقعة للغاية. تحت الجرف مباشرة، ترعرعت رقعة كبيرة من الخيزران العالي، مثل الذي اجتزناه في أثناء رحلتنا. بلغ ارتفاع العديد من سيقانه العشرين قدمًا، وجُلها له قِمَم حادة وقوية، بَدَتْ في وقوفها كأنها رماح هائلة مُشرئبَّة. كنا نسير بمحاذاة حافة هذه الرقعة عندما لفت نظري وميض شيء أبيض بداخله. أقحمتُ رأسي بين السيقان، ووجدتُ نفسي أُحَدِّق في جمجمة عارية من اللحم. في الواقع الهيكل العظمي بأكمله هنا، لكن الجمجمة فُصلت ووضعت بعيدًا عنه، بالقرب من العراء.

بِضع ضربات من مناجل هنودنا، مكنتنا من تنظيف المكان حتى يتسنى لنا دراسة تفاصيل هذه المأساة القديمة. لا يزال ممكنًا تمييز الملابس التي أبلاها الزمن وحوَّلها إلى أشلاء، بقايا الأحذية على القدمين العظميتين، من الواضح أن الرجل الميت كان أوربيًّا. ساعة ذهبية ماركة (هدسون)، من نيويورك، وسلسلة تحمل قلمًا ستايلوجرافي(65)، كامنة بين عظام صدره. أيضًا هناك عُلبة سجائر فضية، كُتب على غطائها (ج. سي)، من (أ. إى. س). دلَّت حالة المعدن على أن الكارثة لم تحدث منذ وقت بعيد جدًّا.

سأل اللورد (چون):

- تُرَى مَن يكون؟ يا لَهُ من شيطان فقير؛ فكل عظمة في جسده مُهشمة.

قال (سمرلي):

- لقد اتخذ الخيزران من أضلاعه المحطمة أرضًا ينمو فيها. إنه نبات سريع النمو، لكن من غير الْمُرجَّح أن تكون هذه الجثة هنا بينما نَمَتِ السيقان وترعرعت ليصبح طولها عشرين قَدَمًا.

قال البروفيسور (تشالنچر):

- فيما يتعلق بهوية الرجل، لا يُساورني أي شك في تلك النقطة. عندما شققتُ طريقي إلى أعلى النهر، قبل أن أصل إليكم في (فازندا)، قمتُ بإجراء استفسارات خاصة جدًّا حول (مابل وايت). في (بارا) لم يعرفوا عنه شيئًا. لكن لحُسْن الحظ، كان لديَّ وجهة محددة، هناك صورة معينة في كُتيب الرسم الخاص به أظهرته في أثناء تناول الغداء مع قس في روزاريو. وقد تمكنتُ من العثور عليه، على الرغم من أنه ذو تفكير جدلي للغاية، كما أنه وجد كلامي عن تأثير العلم الحديث على معتقداته سخيفًا، ومع ذلك قدم لي بعض المعلومات المفيدة. قبل أربعة أعوام مَرَّ (مابل وايت) من روزاريو؛ أي قبل عامين من رؤية جثته. آنذاك لم يكن وحيدًا، بل رافقه صديق، أمريكي يُدعَى (چيمس كولفر)، الذي بقي في القارب ولم يقابل القس؛ لذا أظن وبلا أدنى شك أننا ننظر الآن إلى بقايا (چيمس كولفر).

قال اللورد (چون):

- حسنًا، لا أظن أن هناك الكثيرَ من الشك حول كيفية مقابلته للموت، أليس كذلك؟ لقد سقط أو دُفع من أعلى، فقط ليسقط على أعواد الخيزران التي اخترقته. وإلا كيف بَرَزَتْ من خلال عظامه المكسورة، وكيف أصبح مُعَلَّقًا على هذه العصا العالية فوق رُءوسنا؟

حط علينا صمت كئيب ونحن واقفون حول هذا الرفات المحطم، ومن ثم أدركنا حقيقة كلمات اللورد (چون روكستون). فوقنا بَرَز رأس الهاوية -الشبيه بالخنفساء- مُلقيًا ظله على حقل الخيزران. مما لا شك فيه أنه سقط من هناك. لكن هل سقط حقًّا؟ أكان الأمر حادثًا؟ أو... بدأت الاحتمالات المشئومة والرهيبة بالفعل تتشكل حول هذه الأرض المجهولة.

تحركنا في وجوم، مُحافظين على سيرنا حول خط المنحدرات، مُتساوية لا يقطعها شيء مثل تلك حقول أنتاركتيكا الجليدية الْمُوحشة التي رأيتها مصورة قبلًا، تمتد من الأفق إلى الأفق وترتفع فوق صاري السفينة الاستكشافية.

خمسة أميال كاملة لم نَرَ خلالها صدعًا أو كَسْرًا. ثم رأينا فجأة شيئًا أثلج صدورنا وملأنا بأمل جديد. جوف صخري، محمي من المطر، رُسِم على بدنه سهم بالطباشير، يشير أيضًا إلى الغرب.

قال البروفيسور (تشالنچر):

- (مابل وايت) مرة أخرى. لقد أخذ في الحُسبان أن هناك من سيتبع خطاه عن كثب.

- إذن، كان لديه طباشير؟

- أتذكَّر أني وجدتُ صندوق الطباشير الملون قابعًا بين الحاجياتِ التي وجدتها في حقيبته. أتذكر أن الأبيض وُضِع على الجذع.

قال (سمرلي):

- بالتأكيد هذا دليل جيد. لا يمكننا إلا قبول توجيهاته ومتابعة السير غربًا.

خمسة أميال أخرى انقضت قبل أن نرى من جديد سهْمًا أبيض مرسومًا على الصخور. حَدَثَ هذا عند نُقطة بعينها انقسم فيها المنحدر لأول مرة إلى شق ضيق. داخل هذا الشق وجدنا علامة إرشادية ثانية، والتي أشارت إلى أعلى، كأن البقعة المشار إليها أعلى من مستوى الأرض.

ذهبنا هناك فوجدنا المكان كئيبًا، جدران هائلة وفتحة ضيقة تظهر منها رقعة السماء الزرقاء محجوبة بحاشية مُزدوجة من الخضرة، فقط ضوء خافت غامض وصل إلى القاع. لساعات عِدَّة مكثنا بلا طعام، شاعرين بالضجر الشديد من رحلتنا الصخرية المُنقطعة، بيد أن أعصابنا كانت قوية جدًّا ولم تسمح لنا بالتوقف. أمرنا بنصب المخيم، تركنا هذه المهمة للهنود، بينما أكملنا نحن الأربعة، مع الهجينين الصعود حيث الحلق الضيق.

لم تزد المسافة إلى الفم عن أربعين قدمًا، لكنها سرعان ما أُغلقت مُنتهيةً بزاوية حادة، مستقيمة بشدة وسلسة في الصعود. بالطبع لم يكن هذا هو ما حاول رائدنا الإشارة إليه. كنا عائدين -لم يكن عُمْق الفم بأكمله يزيد عن رُبْع ميل- عندما سقطت عيون اللورد (چون) المنتبه على ما كنا نسعى إليه. فوق رءوسنا، وسط الظلال الداكنة، وجدنا دائرة أكثر إظلامًا. بالتأكيد لا يمكن أن تكون سوى فُتحة كهفٍ.

كانت قاعدة الجُرف مُكدَّسة بالحجارة السائبة، ولم يكن التسلُّق صعبًا. لما وصلنا إليها ماتت شُكوكنا كلها. لم تكن فتحة في الصخرة وحسب، بل على جانبيها، وضعت علامة السهم مرة أخرى. هذه هي النقطة، وهذه هي الوسيلة التي صعد خلالها (مابل وايت) ورفيقه المنكوب.

كنا متحمسين للعودة إلى المخيم، ولكن يجب أن نقوم باستكشاف مبدئي أولًا. لدى اللورد (چون) مصباح كهربي في حقيبته، من شأنه إنارة الطريق. تقدمنا مسلطًا دائرة صغيرة من الضوء الأصفر أمامه، بينما سِرْنا في أعقابه.

من الواضح أن الماء أبلى هذا الكهف، جوانبه ملساء وأرضيته مكسوة بالحجارة المستديرة. حجمُه يكفي لسير رجل واحد مُنحنيًا لمسافة خمسين ياردة امتدَّ الطريق الصخري مستقيمًا أمامنا، ثم أصبح صاعدًا بزاوية خمسة وأربعين. في الوقت الحاضر، أمسى هذا المنحدر أكثر حِدَّةً، وبدأنا نتسلَّق

باليدين وبالركبتين بين الأنقاض السائبة التي ما انفكت تنزلق تحتنا. فجأة هتف اللورد (روكستون) مُتعجبًا:

- إنه مُغلق!

تجمعنا خلفه، رأينا في حقل الضوء الأصفر جدارًا من البازلت المكسور ممتدًّا إلى السقف.

- لقد سقط السقف!

عبثًا سحبنا بعض القطع. التأثير الوحيد الذي أحدثه هذا الأمر هو أن أكبر هذه الصخور انفصلت عن البقية مُهدِّدةً بالتدحرج وسحقنا. بدا واضحًا أن هذه العقبة تحتاج إلى مجهود أكبر مما قد نفعل لإزالتها. لم يعد الطريق الذي صعد منه (مابل وايت) مُتاحًا.

هناك الكثير من الكلام لِيُقال، نزلنا النَّفَق المظلم مُتعثِّرين وَعُدْنا إلى معسكرنا. وقع حادث واحد فقط قبل أن نغادر الفم، ومع ذلك، فهو أمر مهم بالنظر إلى ما جاء بعده.

كنا مُجتمعين في مجموعة صغيرة أسفل الهوة، نحو أربعين قدمًا أسفل مصب الكهف، عندما تدحرجت صخرة ضخمة فجأة إلى الأسفل – قادمة إلينا بقوة هائلة كأنها رصاصة. كان هروب أحدنا أو كلنا آية في الصعوبة. لم نرَ من أين جاءت الصخرة، ولكن خُدامنا من السلالات الهجينة، الذين كانوا كامنين عند مدخل الكهف، قالوا إنها تجاوزتهم، ومع ذلك يجب أن تكون ساقطة من القمة. نظرنا إلى أعلى، لم نتمكن من رؤية أي علامة تدل على الحركة فوقنا حيث الغابة الخضراء التي احتلت المنحدر.

لم يكن هناك شك أن هذه الصخرة كانت مُوجَّهة إلينا؛ لذا فإن هذا الحادث يُشير بالتأكيد إلى وجود أُناسٍ حاقدين أعلى الهضبة.

قُمنا بالانسحاب من الهوة سريعًا، وعقولنا زاخرة بالأفكار عن هذه التطورات الجديدة وتأثيرها في خططنا. لقد كانت الأحوال صعبة بما فيه الكفاية من قبل، ولكن الآن بعدما زادت الْمُعوقات الطبيعية بسبب تدخل الإنسان السافر، فإن قضيتنا في الواقع حالة ميئوس منها. ومع ذلك، عندما نظرنا إلى خط الخُضرة الجميل هذا، الواقع على بعد مئات من الأقدام فوق رءوسنا، لم يكن هناك أحد منا يمكنه تصور فكرة العودة إلى لندن دون استكشافها حتى آخر رقعة فيها.

عند مناقشة الوضع، قرَّرنا أن أفضل مسار لنا هو الاستمرار في السير حول الهضبة- بمحاذاتها تمامًا- على أمل إيجاد وسائل أخرى من شأنها تسهيل الوصول إلى القمة. بدأ خط المنحدرات، الذي انخفض ارتفاعُهُ بشكل كبير، في الاتجاه من الغرب إلى الشمال. لو تصوَّرنا أن مسارنا يُمثل قوس الدائرة، فلن يكون المحيط بأكمله كبيرًا. في أسوأ الأحوال، يجب علينا العودة بعد بضعة أيام إلى نقطة انطلاقنا.

في هذا اليوم بَلَغَ مجموع ما قطعناه اثنين وعشرين ميلًا، من غير أن نحيد عن مسارنا. من الجدير بالذكر أن البارومتر أنبأنا أن المنحدر الذي صعدناه منذ تركنا زوارقنا، ارتفاعه لا يقل عن ثلاثة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر؛ مما سبَّب تغييرات كبيرة في درجات الحرارة والحياة النباتية.

أخافتنا بعض الحشرات الرهيبة التي هي لعنة السفر الاستوائي. هناك عَدَدٌ قليل من أشجار النخيل ما زال حيًّا، والعديد من السراخس، لكننا تركنا الأشجار الأمازونية وراءنا.

كان من اللطيف رؤية اللبلاب، زهرة كرمة العاطفة(66)، البيچونيا(67)، كلها تذكرني بالمنزل، بين هذه الصخور غير الْمُرحبة. هنالك بچونيا حمراء، تُذكرني بلون واحدة من جنسها، موضوعة في وعاءٍ على إفريز نافذة فيلا معينة في ستريثام، يبدو أنني أنجرف لذكريات خاصة.

في تلك الليلة -ما زلتُ أتحدث عن يومنا الأول من السير حول الهضبة- كانت تنتظرنا تجرِبة رائعة، وضعت حدًّا لأي شك قد يُساورنا مستقبلًا عن العجائب القريبة مِنَّا.

ستدرك تميزها لما تقرأ ما كتبتُ عنها يا عزيزي السيد (ماكاردل)، ربما لأول مرة لم ترسلني الجريدة من أجل مُطاردة البط البري، هناك نسخة جيدة لا يمكن تصورها في انتظار العالم، متى حصلنا على إذن البروفيسور للاستفادة منها. لن أجرؤ على نشر هذه المقالات ما لم أتمكن من إعادة براهيني إلى إنجلترا، وإلا سيُشار إلي بوصفي (منخاوزن الصحفيين) في كل العصور. لا شك لديَّ أنك تشعر بذات الشيء، وأنك لن تُبدِّد مال الجريدة بالكامل في محاولة التصدي لموجة النقد والشك التي ستثيرها هذه المواد؛ لذا فإن هذه الحادثة غاية في الروعة، من شأنها جعل مثل هذا العنوان الرئيسي للجريدة القديمة، ينتظر دوره في درج المحرر.

ومع ذلك، انتهى كُلُّ شيء سريعًا كومضة، ولم يكن هناك تتمة له، باستثناء قناعاتنا الخاصة.

إليك ما حدث؛ أطلق اللورد (چون) النار على أغوطي -وهو حيوان صغير يُشبِه الخنازير- أُعْطِي نصفه للهنود، وجلسنا نشوي النصف الآخر على نار التخييم. هناك شيء في الهواء يجعلنا نُصاب بالقشعريرة بعد حلول الظلام، جلسنا جميعًا مُتقاربين دانين من النار. كانت الليلة بلا قَمَر، فقط هناك بعض النجوم، ويمكن للمرء رؤية مسافة قصيرة من السهل.

حسنًا، فجأة من ظلام الليل، انقضَّ علينا شيء يُصدر صوتًا حفيفًا مثل الطائرة. ظُلِّلَت المجموعة كلها بسماءٍ من الأجنحة الجلدية، رأيتُ لوقت وجيز رقبة طويلة تشبه الثعابين، وعينًا شرسة حمراء وجشعة، ومنقارًا عظيمًا، مملوءًا -لدهشتي- بأسنان صغيرة لامعة. في اللحظة التالية اختفى كُلُّ شيء وكذلك عشاؤنا. ظِلٌّ أسود هائل، يبلغ عرضه عشرين قدمًا، ظل ينهش الهواء بجناحيه؛ للحظة اندثرت النجوم بفعل أجنحة الوحش، ثم حلق مُبتعدًا واختفى عند قمة الهاوية فوقنا. جلسنا جميعًا يُحاوطنا الصمت والدهشة حول النار، مثل أبطال (فيرچيل)(68) عندما نزلت الهاربي(69) عليهم.

كسر (سمرلي) الصَّمْت، تحدث قائلًا بلهجة رسمية مُشبعة بالعاطفة:

- بروفيسور (تشالنچر)، أنا مدِين لك بالاعتذار يا سيدي، إنني مخطئ، وأتوسل إليك أن تنسى الماضي.

أحدثت هذه الكلمات التي قِيلت بشكل رائع أثرًا بليغًا، تصافح الرجلان بمحبة لأول مرة. لقد أكسبتنا رؤية الزاحف المجنح الكثير. بالتأكيد يستحق تآلُف هذين الرجلين معًا العشاء المسروق.

إذا كانت حياة ما قبل التاريخ موجودة على هذه الهضبة حقًا، فإنها ليست وفيرة للغاية؛ ذلك لأننا لم نرَ أي لمحة أخرى منها خلال الأيام الثلاثة التالية. استغللنا هذا الوقت في اجتياز بلد قاحلٍ ومنسي، تنوعت أراضيه بين الصحراء الحجرية والمستنقعات الْمُقفرة الممتلئة بالطيور البرية، شمالًا وشرقًا بعيدًا عن المنحدرات. من هذا الاتجاه يستحيل الوصول إلى هذا المكان، ولولا الحافة الصلبة الممتدة بطول قاعدة الهاوية ذاتها، لكان لزامًا علينا العودة. أغلب الوقت خُضنا في وحل وفقاعات -التي وصلت إلى خصرنا- هذا المستنقع القديم شبه الاستوائي. وما زاد الطين بلة أن المكان معقل مُفضل لثعبان (الجاراراكا)(70)، الأكثر سُمِّيَّة وعدوانية في أمريكا الجنوبية. مرارًا وتكرارًا كانت هذه المخلوقات الرهيبة تتلوى وتظهر أمامنا على سطح هذا المستنقع العفن، لم يكن تجاوزها مُمكنًا إلا عن طريق إبقاء بنادقنا جاهزة دائمًا وهو ما أكسبنا بعض الأمان.

شيء ما في هذا المستنقع يُصيب بالاكتئاب، لون أخضر زاهٍ تنتشر به الأشنة، سيبقى هذا الكابوس في ذهني دائمًا كذكرى.

يبدو أننا وقعنا في عُشٍّ للهوام، أمست المنحدرات على قيد الحياة وكلها تتلوَّى قادمة في اتجاهنا؛ لأنه من سمات الجاراراكا مُهاجمة الإنسان من النظرة الأولى. هناك الكثير منهم حتى بِتْنا عاجزين عن إطلاق النار عليهم؛ لذلك أخذنا نركض هاربين حتى أرهقنا. سأتذكر هذا الموقف ما حييتُ، كلما نظرنا خلفنا فأي اتجاه لم نكن نرى إلا رءوس وأعناق مُطاردينا الرهيبين ترتفع وتنخفض وسط أعواد الخيزران. مستنقع (الجاراراكا) هذا هو الاسم الذي أطلقناه على هذا المكان في الخريطة المرتجلة التي رسمناها.

على الجانب البعيد فقدت المنحدرات لونها الوردي، اكتسبت لونًا بُنيًّا كلون الشوكولاتة؛ أضحت النباتات أكثر انتشارًا على قِمَمِها، أغرقت في الارتفاع حتى وصلت إلى ثلاثمئة أو أربعمئة قَدَمًا، ومع ذلك لم نجد في أي مكان نقطة يمكن الصعود خلالها. إذا كان هناك موضع -أي موضع- فهو أكثر استحالة من أول موضوع وَصَلْنَا له. ستكون الصورة التي التقطها في أثناء وجودي في الصحراء الصخرية كافية لبيان مدى انحدارهم المطلق.

جلسنا نُناقش المسألة التي نحن بصددها، قلتُ:

- بالتأكيد، لا بُدَّ أن الأمطار عثرت على طريقها إلى الأسفل بطريقة أو بأخرى. مما لا شك فيه هناك ممرات مائية في الصخور.

قال البروفيسور (تشالنجر)، وهو يُربت على كتفي:

- صديقنا الشاب لديه لمحات من الوضوح.

كررتُ كلامي قائلًا:

- لا بُدَّ من وجود مكان تذهب إليه الأمطار.

- إنه يتشبث بالواقع بقبضة قوية. العيب الوحيد أننا أثبتنا بشكل قاطع مما رأيناه رأي العين أنه لا وجود للقنوات المائية أسفل هذه الصخور.

بلهجة مُصِرَّة سألتَ:

- إذن، أين تذهب هذه المياه؟

- يُمكننا الافتراض بشكل عادلٍ أنها إذا لم تَأْتِ إلى الخارج، فيجب أن تنساب إلى الداخل.

- ثم هنالك بحيرة في مركز الهضبة.

- وهو ما يقود إلى؟

قال (سمرلي):

- من الْمُرجح أن هذه البحيرة عبارة عن حفرة قديمة. التكوين بأكمله بركاني للغاية. ولكن، مهما كان كنهه، فإنني أتوقَّع العثور على سطح تنحدر فيه الهضبة إلى الداخل وفي مركزه كمية كبيرة من الماء، الذي قد يرتشح بواسطة القنوات الجوفية، إلى مستنقع الجاراراكا.

تنبه (تشالنچر) للحديث، فأدلى دلوه:

- أو قد يحافظ التبخر على التوازن.

دخل رِجُلا العِلْم في واحدة من نقاشاتهما العلمية المعتادة، والتي بَدَتْ للشخص العادي كأنها حديثٌ مُرسلٌ يُقال بالصينية.

في اليوم السادس أكملنا دورتنا الأولى حول المنحدرات، مرة أخرى وجدنا أنفسنا في مخيمنا الأول، حيث قمم الصخور المعزولة. إننا شرذمة بائسة؛ لأنه لا يوجد شيء أكثر دِقَّة من تحقيقنا، والآن أصبح مؤكدًا أنه لا وجود لنقطة واحدة قد تُعطي للإنسان الأمل في تسلُّق الجُرف.

أما المكان الذي أشارت إليه علامات (مابل وايت) الطباشيرية حيث وسيلة وصوله الخاصة فقد أصبح غير مُمهدٍ إطلاقًا.

ما الذي نقدر على فعله الآن؟ مؤننا، التي تُضاف إليها أسلحتنا، صامدة في الوقت الحاضر، ولكن عاجلًا أم آجلًا سيأتي اليوم الذي تحتاج فيه إلى تعبئة. في غضون شهرين كما هو متوقع سيبدأ هطول الأمطار، وسنُجبر على تَرْك معسكرنا. إن هذه الصخرة أقسى من الرخام، وأي محاولة لشق طريق للأعلى هي بمنزلة إهدار وقتنا ومواردنا؛ لذا لا عجب أننا في هذه الليلة ننظر لبعضنا نظرة قاتمة كئيبة، بحثنا عن بطنياتنا، التففنا فيها، بالكاد تبادلنا كلمة واحدة. أتذكر أن آخر شيء رأيته قبل أن أسقط في النوم هو (تشالنچر) يجلس القرفصاء -مثل ضفدع الثور الوحشي- بجوار النار، رأسه الضخم بين يديه، غارق على ما يبدو في تفكير عميق، وغامض تمامًا عن الليلة الجيدة التي تمنيتها له.

في الصباح وجدنا (تشالنچر) مختلفًا يستقبلنا، (تشالنچر) يشعر بالرضا والغبطة، وكله زهو بذاته. وقف قُبالتنا ونحن ذاهبون لتناول الإفطار، يُطل من عينيه تواضع كاذِب، ونظرة مُهملة، ولسان حاله يقول: «أعلم أنني أستحق كل ما يمكنك قوله، لكنني أرجو أن تعفيني من الخجل بعدم قوله». لحيتُه

مُنتصبة بشكل مُبهج، صدرُه منفوخ للأمام بفخر، يدُه موضوعة في سُتْرتِه، يرى نفسه بعين الخيال، يُزخرف قاعدة التمثال الشاغرة في ميدان (ترافالجار)، ويضيف هولًا جديدًا إلى أهوال شوارع لندن.

هَتَفَ وأسنانه تتبدَّى من خلف لحيته، مشرقة بابتسامة واسعة:

- وجدتها! أيها السادة، يمكنكم تهنئتي، وبالمثل يُمكننا تهنئة بعضنا البعض. لقد حُلَّتِ المشكلةُ.

- هل وجدت طريقة للتسلق؟

- أجرؤ على التفكير في ذلك.

- وأين هي؟

حتى يُجيب عن سؤالنا أشار إلى القمة الشبيهة بالبرج، المستقرة على يميننا.

سقطت نظراتنا -أو نظراتي على الأقل- في أثناء تفحصه. هذا البرج يُمكن تسلقه، أقلها لدينا تأكيد من رفيقنا. لكن الهاوية الرهيبة تحول بينه وبين الهضبة.

قلتُ وأنا ألهث تأثرًا:

- لا يمكننا العبور أبدًا.

أجابني قائلًا:

- أقلها يُمكننا جميعًا الوصول إلى القمة. عندما نستفيق، قد أتمكن من الإيضاح لك أن موارد العقل الإبداعية لم تنضب بَعْدُ.

بعد تناول الإفطار، قمنا بإفراغ الحزمة التي أحضر فيها قائدنا معدات التسلق. انتقى منها لفة من أقوى وأخف الحبال، طوله مئة وخمسون قَدَمًا، أحذية التسلق، المشابك، وغيرها من الأجهزة.

إن اللورد (چون) مُتسلِّق جبال متمرس، أما (سامرلي) فمارس التسلق في أوقات مختلفة؛ لذا كنت المبتدئ الوحيد فيما يخص الصخور وتسلقها في هذه المجموعة؛ ولكن قوتي ونشاطي عوَّضَا نقص الخبرة.

في الواقع لم تكن المهمة صعبة للغاية، على الرغم من وجود لحظات جعلت شعر رأسي ينتصب فزعًا فإن النصف الأول مَرَّ بسهولة ويُسْر، ثم باتت الأمور وخاصَّة كلما ارتفعنا أكثر حِدَّة، طوال الخمسين قَدَمًا الماضية، كنا نرتقي الصخر متشبثين بأصابع يدينا في الشقوق الصغيرة، مثبتين أقدامنا على الحواف. لم يكن بمقدوري فِعْل هذا، وكذلك (سمرلي)، لو لم يكن (تشالنچر) قد وصل للقمة (كان غريبًا رؤية مثل هذا النشاط في مخلوق غير بري) وقام بتثبيت حبل حول جذع الشجرة الكبيرة التي نَمَت هناك. استخدمنا هذا الحبل كدعامة لنا، وسرعان ما تمكنا من تسلُّق الجدار الخشن، ولم نلبث أن وجدنا أنفسنا على بقعة الأرض المعشوشبة الصغيرة، على بُعد خمسة وعشرين قَدَمًا من كل اتجاه، والتي شكَّلَت القمة.

انطباعي الأول الذي شعرتَ به عندما استعَدْتَ أنفاسي هو مدى استثنائية البلد الذي نَسافر فيه. بدا السهل البرازيلي بأكمله كامنًا تحتنا، يمتد بعيدًا حتى ينتهي بضباب أزرق باهِت في الأفق الأقصى. في مقدمته منحدر طويل، تتناثر فيه الصخور وتتخلَّلها السراخس؛ خاصة في المسافات الوسطى منه، أما التلة الواقعة في ظهره فبالنظر إليها يُمكنني فقط رؤية كُتل صفراء وخضراء من الخيزران الذي عبرنا خلاله؛ تدريجيًّا، زادت النباتات حتى شكلت الغابة الضخمة التي امتدت إلى بعد النظر، وأبعد من ذلك بما لا يقل عن ألفي ميل.

كنتُ أتشرَّب هذه المشاهد الرائعة عندما شعرتُ بيد البروفيسور الثقيلة تُوضَع على كتفي.

قال لي:

- مِن هذا الطريق يا صديقي الشاب، لا يوجد حولنا سوى الفراغ؛ لذا لا تنظر إلى الوراء أبدًا، بل أَبْقِ هدفنا المجيد نُصب عينيك.

لما التفتُّ ألفيتُ مستوى الهضبة هو ذاته الذي نقف عليه، أما الضفة الخضراء، حيث الشجيرات والأشجار العرضية، أمست قريبة جدًّا حتى إن التفكير في تعذُّر الوصول إليها أمسى صعبًا. في تقديري الشخصي -وإن كان تقريبيًّا- تبلغ مساحة الهوة أربعين قَدَمًا، وهو ما استطعتُ رؤيته، ولربما كانت على بُعْد أربعين ميلًا. ثبتُّ ذراعًا واحدة حول جذع الشجرة، وانحنيت متفحِّصًا الهاوية. تبدَّت أشكال مُساعدينا صغيرة ومظلمة، وهم ينظرون إلينا. تبينتُ أن الجدار مُنحدر للغاية، مثل الذي سبق وواجهته.

قال البروفيسور (سمرلي) بصوت كالصرير:

- هذا مُثير للفضول حقًّا.

التفتُّ، فوجدته مُنكبًا على جذع الشجرة التي تشبثتُ بها فاحصًا إيَّاها باهتمام كبير. للحظة بدا لحاؤها الناعم وأوراقها الصغيرة الْمُضلعة مألوفة لي. هتفتُ قائلًا:

- يا إلهي، إنها شجرة خشب الزان!

قال (سمرلي):

- بالضبط. مواطن ريفي في أرضٍ بعيدة.

قال (تشالنچر):

- إنه ليس ريفيًّا فحسب، يا سيدي العزيز، لكنه أيضًا -إذا تكرمت وسمحت لي بالقول- حليف عالي القيمة. ستكون شجرة الزان هذه منقذتنا.

صاح اللورد (چون):

- بحق القديس چورچ! جسر!

- بالضبط يا أصدقائي، جسر! إنها لم تُوضع هنا من أجل لا شيء.

ركزتَ ذِهني في الليلة الماضية في مُحاولة إيجاد حل لوضعنا الراهن. لديَّ ذكرى وحيدة لصديقنا الشاب هنا (ج. إ. ت)(71). دائمًا ما يكون في أفضل حالاته عندما يُحاصر في الزاوية. الليلة الماضية، يجب عليَّ الاعتراف كانت ظهورنا كلنا إلى الحائط. لكن عندما تعمل قوة الإرادة والفكر معًا، فلا بد من وجود مخرج. لا مناص من العثور على جسر متحرك يمكن إسقاطه عبر الهاوية. ها هو ذا!

بالتأكيد إنها فكرة رائعة. هذه الشجرة جيدة ويبلغ ارتفاعها ستين قَدَمًا، وإذا أسقطناها بطريقة صحيحة، فسنعبر الهاوية بسهولة. علق (تشالنچر) فأسًا على كتفه وشرع يتسلَّقها. ثم أعطاه لي وقال:

- صديقنا الشاب هنا لديه عضلات وأوتار قوية؛ لذا أظن أنه أكثرنا مُلاءمة لهذا الدور. ومع ذلك، يجب عليَّ التوسل إليك بألا تُعمِل عقلك، وأنك ستفعل بالضبط ما يُقال لك.

وفق تعليماته أحدثتُ شقوقًا جَسيمة في جانبي الشجرة بما يضمن وقوعها وفق هوانا. بطبيعتها كانت مائلة وبقوة في اتجاه الهضبة؛ لذا لم تكن المهمة عَسِيرة. أخيرًا، أخذتُ أعمل الفأس في الجذع بجدية، مُلتفًّا ومنعطفًا حوله برفقة اللورد (چون).

بعد مُضي ساعةٍ وبضع ساعة كنا نُحدق بصدع هائل في بدن الشجرة، تمايلت للأمام، ثم تحطمت، دافنةً فروعها بين الشجيرات الواقعة على الجانب الآخر. تدحرج الجذع المقطوع حتى الحافة، لوهلة ثقيلة خُيِّل إلينا جميعًا أن الأمر انتهى. لكنه لم يلبث أن وازن نفسه على بُعْد بضع بوصات من الحافة، ثم بات لدينا جسرنا الخاص إلى المجهول.

جميعنا، دون التفوه بكلمة واحدة، صافحنا البروفيسور (تشالنچر)، الذي رفع قبعته المصنوعة من القش وانحنى بشدةٍ لكل واحد منا على حِدَةٍ. ثم قال:

- إنه لمن دواعي شرفي أن أكون أول من يعبر إلى الأرض المجهولة؛ وهو موضوع مناسب -بلا شك- لبعض اللوحات التاريخية المستقبلية.

كان على مبعدة من الجسر عندما وضع اللورد (چون) يده على معطفه. وقال:

- يا صديقي العزيز، لا يمكنني حقًّا السماح بهذا.

- لا يمكنك السماح بهذا! عادت رأسه إلى الأمام ولحيته في أثرها.

تابع اللورد (چون):

- عندما يتعلق الأمر بالعلم، كما تعرف، فإنني أتبع قيادتك بلا مناقشة؛ وذلك لأنك رجل من رجال العلم، لكن وجب عليك الآن أن تتبعني طالما الأمر يتعلق باختصاصاتي.

- اختصاصاتك يا سيدي؟

- لدينا جميعًا مهننا، والجندية لُعبتي. نحن -وفقًا لأفكاري- نغزو بلدًا جديدًا، ربما يكون أو لا يكون ممتلئًا بأعداء من نوع ما؛ لذا لا يُمكننا الخوض فيها بشكل أعمى معدوم الحس السليم والصبر، هذا ليس مفهومي عن الإدارة.

إنه احتجاج معقول للغاية بحيث لا يمكن تجاهُله. أرجع (تشالنچر) رأسه إلى الوراء، رفع كتفيه الثقيلين في لا مبالاةٍ. وقال:

- حسنًا يا سيدي، ما الذي تقترحه؟

قال اللورد (چون) وهو ينظر عبر الجسر مُتفحِّصًا:

- على حدِّ علمي قد تكون هناك قبيلة من أكلة لحوم البشر تنتظر وقت الغداء بين هذه الشُّجيرات بالذات. من الأفضل تعلم الحِكمة قبل الدخول في وعاء الطهي؛ لذا سنكتفي بهذا القدر حاليًّا، ولا أظن أن هناك مشكلة في انتظارنا، وفي الوقت ذاته سنتصرف كما لو كانوا هناك. لذا سننزل أنا و(مالون) مرة أخرى، ونحضر البنادق الأربع، و(جوميز) والآخر. عندها يُمكن لأحدنا المرور بينما يُغطي الباقي تقدُّمه بواسطة البنادق، وما إن يتأكد أن الوضع آمِن حتى نلحق به.

جلس (تشالنچر) على الجذع المقطوع، وندت عنه آهة تدل على نفاد صبره؛ لكن أنا و(سمرلي) كنا نفكر في الأمر ذاته. إن اللورد (چون) هو قائدنا طالما هذه التفاصيل العملية موضع تساؤل.

أصبح التسلُّق أكثر يُسرًا الآن يوجد هذا الحبل المتدلي قُبالة أسوأ جزء يُمكن الصعود منه. في غضون ساعة، رفعنا البنادق والذخيرة. صَعِد مُساعدونا الهجناءِ أيضًا، وبأمر من اللورد (چون) حملوا صُرَّة من المؤن في حالة كون استكشافنا المبدئي طويلًا. كان لدينا شرائط الخراطيش.

لما اكتملت كل التجهيزات قال اللورد (چون):

- الآن يا (تشالنچر)، طالما أنك مُصر حقًّا أن تكون أول من يَعْبُر.

قال البروفيسور بغضب -لأنه لم يكن رجلًا يتسامح مع أي شكل من أشكال السلطة-:

- أنا مدين لك كثيرًا لحصولي على إذنك الكريم؛ حيث إنك جيد بما يكفي لتعطيه لي، فمن واجبي أخْذ الأمر على عاتقي، أن أكون رائدًا فيما نحن بصدده.

جلس (تشالنچر) على الجذع، ساقاه تتدلَّى من كل جانب، علق بَلْطَة على ظهره، وشق طريقه عبر الجذع، سرعان ما وصل إلى الجانب الآخر. وقف يلوح بذراعيه في الهواء.

صاح:

- أخيرًا! أخيرًا!

حدقت إليه بصبر، مُتوقعًا مصيرًا رهيبًا سيخرج من ستار اللون الأخضر الكامن خلفه لملاقاته. لكن كل شيء كان هادئًا، باستثناء أن طائرًا غريبًا زاهي الألوان طار من موضع قريب منه واختفى بين الأشجار.

عبر (سمرلي) تاليًا. طاقته الوترية رائعة في إطار ضعيف للغاية. أَصَرَّ على تعليق بندقيتين على ظهره؛ لذا كان كل بروفيسور من الاثنين مسلحًا عندما عَبَرَ. بعده جاء دوري، حاولتُ جاهدًا عدم

النظر إلى الهوة الرهيبة التي أمر فوقها. أمسك (سامرلي) بندقيته من نهايتها، وبعد هنيهة تمكنتَ من الإمساك بيده.

أما بالنسبة للورد (چون)، فقد سار عبر الجذع في الواقع سار دون دعم! يجب أن تكون أعصابه حديدية ليفعل هذا.

وها نحن ذا، أربعة واقفون في أرض الأحلام، عالم (مابل وايت) المفقود. بالنسبة لنا جميعًا بَدَتْ هذه اللحظة لحظة انتصار فائق. من كان بمقدوره التخمين أنها مُقدمة لكارثتنا العظمى؟ اسمحوا لي أن أسرد لكم بكلماتٍ قليلة كيف سقطت الضربة الساحقة علينا.

كنا قد ابتعدنا عن الحافة، وتوغلنا قرابة خمسين ياردة في الدغل القريب، عندما فاجأنا صوت تحطم مخيف آتيًا مِنْ ورائنا. تُحركنا الغريزة ذاتها هرعنا إلى الوراء من حيث جِئنا. لقد اختفى الجسر!

بعيدًا في قاعدة الهاوية، رأيتُ، لما نظرت خلالها، كتلة متشابكة من الفروع والجذوع المتشظية. كانت هذه شجرة الزان الخاصة بنا. هل انهارت الحافة التي ثبتناها عليها، تاركةً إياها تسقط؟ لمدة وجيزة احتلَّ هذا التفسير أذهاننا. في اليوم التالي، من الجانب البعيد للقمة الصخرية الكائنة أمامنا ظهر وجه داكن، وجه (جوميز) الهجين، يبرز ببطء. نعم، هو (جوميز)، لكنه لم يعد (جوميز) ذا الابتسامة المهذبة والتعبير الثابت الشبيه بالقناع. هذا وجه جديد له عيون وامضة وتقاسيم شائهة، وجه ينضح بالكراهية ونشوة الانتقام المجنونة. شرع يرقص طربًا ويصيح:

- اللورد روكستون! اللورد چون روكستون!

قال رفيقنا المعنيُّ بالنداء:

- حسنًا، ها أنا ذا.

رددت الهاوية الضحك الصارخ.

- نعم، ها أنت ذا، أيها الكلب الإنجليزي، وهناك ستبقى! لقد انتظرت وانتظرت، والآن أتيحت لي الفرصة. لقد واجهت صعوبة في التسلق؛ وستجد صعوبة أكبر في النزول. لقد لعن هؤلاء الحمقى بسببك، أنت مُحاصر، كلكم كذلك!

أقعدتنا الدهشة عن الكلام. فقط كان بمقدورنا الوقوف هناك محدقين فيه بدهشة. أظهر غصن كبير مكسور على العشب حيث أملنا جسرنا. اختفى الوجه، ولكن حاضرًا عاد مرة أخرى، أكثر إثارة من ذي قبل.

هتف:

- كدنا نقتلك بحجر في الكهف؛ لكن هذا أفضل. إنه أبطأ وأكثر فظاعة. ستبقى عظامك البيضاء هنا، ولن يعرف أحد أين رقدت أو يأتي لتغطيتها. بينما تحتضر تذكر أكاذيبك، فكر في (لوبيز)، الذي أطلقت النار عليه قبل خمس سنوات على ضفاف نهر بوتومايو. أنا شقيقه، وعندما يأتي موعدي سأموت سعيدًا؛ لأنني انتقمت لذكراه.

هزّتنا يد غاضبة عنيفة، ثم ساد الهدوء.

لو أن الهجين انتقم منه ببساطة ثم هرب، لربما بَاتَ كل شيء معه على ما يرام. لكن هذا الأحمق، لديه دافع لاتيني لا يقاوم ليكون دراميًّا، وهذا ما أدى إلى انهياره. (روكستون)، الرجل الذي كسب لنفسه اسم (مدراس الرب) في ثلاثة بلدان مختلفة، لم يكن ممن يأمن جانبهم عند السخرية منهم. بمجرد أن بدأ الهجين انحداره على الجانب البعيد من القمة؛ وقبل أن يصل إلى الأرض ركض اللورد (چون) بطول حافة الهضبة حتى وصل إلى نقطة يُمكنه من خلالها رؤية رجله. بندقيته لها ماسورة واحدة، وعلى الرغم من أننا لم نرَ شيئًا فإننا سمعنا الصراخ ثم الصدى البعيد للجسم الساقط. عاد (روكستون) إلينا بوجه خالٍ من التعابير وكأنه قُد من الجرانيت.

قال بمرارة:

- لقد كنتُ أعمى مغفلًا، إنها حماقتي التي قادتكم جميعًا إلى هذه المتاعب. كان يجب عليَّ تَذَكُّر أن لهؤلاء الناس ذكريات طويلة عن العداوة الدموية، وجب عليَّ أن أكون أكثر حذرًا.

- ماذا عن الآخر؟ لقد تطلَّب الأمر اثنين منهم لرفع تلك الشجرة عن الحافة.

- كنتُ قادرًا على إطلاق النار عليه، لكنني تركته يذهب. ربما لم يكن له أي دور فيما حدث. ربما الأفضل لو كنتُ قتلتُه؛ لأنه يجب، كما تقول، أن يكون قد مَدَّ يد العون.

الآن بعد أن أصبح لدينا دليل على عمله، يُمكن لكل واحد أن يُقلِّب في ذاكرته مسترجعًا بعض الأفعال الشريرة التي قام بها هذا الهجين؛ رغبته المستمرة في معرفة خططنا، إمساكه خارج خيمتنا وهو يتنصت، مظهره الغاضب، ونظرة الكراهية التي ينظر إلينا بها من وقتٍ لآخر، وقتها كانت تُشعرنا بالدهشة. كنا نتناقش، ونحاول تكييف عقولنا مع هذه الظروف الجديدة، عندما لفت منظر نادر في السهل أدنانا انتباهنا.

هناك رجل يرتدي ملابس بيضاء، لا يمكن أن يكون سوى الهجين الباقي على قيد الحياة، يركض كما يركض المرء عندما يكون الموت في أعقابه. خلفه، وعلى بُعْد بضعة ياردات فقط، يعدو (زامبو) بشكله الضخم الشبيه بشجر الأبنوس، زنجيُّنا المخلص.

كنا نُراقب ما يحدث، قفز على ظهر الهارب ولفَّ ذراعيه حول رقبته. تدحرجا على الأرض معًا. لحظة واحدة جندله فيها (زامبو) وارتفع فوقه، نظر إلى الرجل الجاثم على الأرض، ثم لوَّح لنا بفرح، أخذ يركض في اتجاهنا. بينما لبث الهجين ساكنًا وسط السهل العظيم.

لقد لاقى الخائنان ما يستحقان، لكن الأذى الذي خلفاه عاش بعدهما. لا يمكننا العودة إلى القمة بأي حال من الأحوال الآن. كنا من مواطني العالم؛ والآن أصبحنا من مواطني الهضبة. بالطبع الأمران منفصلان ومتباعدان. هنالك السهل الذي يقود إلى الزوارق. إنه يكمن هناك خلف الأفق البنفسجي الضبابي، التيار الذي يؤدي إلى الحضارة. لكن الصلة بيننا أَمْسَتْ مفقودة. لا يُمكن للذكاء البشري مهما بلغ أن يجد وسيلة لسد الهوة التي تقف حائلًا بيننا وبين حياتنا الماضية. لحظة واحدة فقط غيرت ظروف وجودنا بالكامل.

في هذا الوقت تعلمْتَ الأشياء التي جعلت رفاقي الثلاثة رزينين؛ إنهم خطيرون، هذا صحيح، لكن لديهم صفاء لا يُقْهَر. في الوقت الحاضر، جلسنا بين الشجيرات صابرين مُنتظرين مجيء (زامبو). أخيرًا بَرَزَ وجهه الأسود الصادق بين الصخور وظهرت شخصيته الهرقلية على قمة الهضبة. صاح قائلًا:

- ماذا أفعل الآن؟ أخبرني وسوف أفعل.

إنه سؤال طَرْحُه أسهل من الإجابة عنه. شيء واحد فقط كان واضحًا؛ إنه رابطنا الموثوق الوحيد بالعالم الخارجي. لا يُمكنه تركنا بأي حالٍ من الأحوال.

من جديد هَتَفَ:

- لا لا! إنني لن أترككم. مهما كلَّفَ الأمر، ستجدونني دائمًا هنا. لكني لن أستطيع إبقاء الهنود. إنهم يقولون: إن (كروبوري) تعيش في هذا المكان، إنهم يعودون إلى المنزل؛ لذا علينا تركهم؛ لأني لا أستطيع إبقاءهم.

الحقيقة أن هنودنا أظهروا في الآونة الأخيرة أنهم سئِموا من رحلتهم وأنهم حريصون على العودة. أدركنا أن (زامبو) يقول الحقيقة، وأنه من المستحيل الإبقاء عليهم.

قلتُ بصوت عالٍ:

- فقط اجعلهم ينتظرون حتى الغد يا (زامبو)؛حتى يتسنى لي إرسال رسالة معهم.

قال:

- جيد جدًّا يا سيدي! أعِدُك بأنهم سينتظرون حتى الغد، لكن ما الذي يُمكنني فعله من أجلك الآن؟

في الواقع هناك الكثير ليفعله، ويالله العجب! لقد فعل تابعنا المخلص ما قِيل له. بادئ ذي بدء، وبناءً على توجيهاتنا، فك الحبل المربوط بجذع الشجرة وألقى إحدى نهايتيه إلينا. لم يكن سُمْكُه يزيد على خيوط الملابس، لكنه تمتع بقوة هائلة، ربما لا نقدر على إقامة جسر منه، بيد أنه سيُمسي لا يُقدَّر بثمن، فقط إذا استطعنا التسلُّق به. ربط نهاية الحبل الأخرى بحزمة الإمدادات التي سبق وأحضرناها، أنكببنا على الحبل نسحبه بكل قوتنا، حتى تمكنا من إيصال الحزمة إلى هنا. ستوفر لنا هذه الحاجيات الاحتياجات الضرورية للحياة لأسبوع أو نحوه، حتى لو لم نجد شيئًا آخر. في النهاية نَزَلَ ثم عاد حاملًا رزمتين أُخريين من البضائع المُتنوعة؛ علبة ذخيرة وعِدَّة أشياء أخرى، والتي وصلت إلينا عن طريق تثبيتها بالحبل ثم سحبها. لما اعتلى القمر عرش السماء، وبدأ المساء صعد إلينا، وأخبرنا -كضمان نهائي- أن الهنود باقون حتى صباح اليوم التالي.

وهكذا قضيتُ ليلتي بأكملها تقريبًا مُفترشًا أرض الهضبة، وبددت الساعات في كتابة تجاربنا على ضوء مصباح ذي شمعة واحدة.

أقمنا معسكرًا مرتجلًا بالقرب من حافة الهاوية، روينا عطشنا بزجاجتيّ (أبولیناریس)(72) كانتا في واحدة من الحزم. من الضروري العثور على الماء، لكنني أظن أنه حتى اللورد (چون) نفسه خاض

ما يكفي من المغامرات ليوم واحد، ولم يكن أحدنا ميالًا للقيام بالخطوة الأولى إلى المجهول. مكثنا صامتين، نُشعل النار ولا يصدر عنا أي صوت غير ضروري.

غدًا (أو اليوم بما أنني أكتب فجرًا) ستكون أول خطواتنا في هذه الأرض الغريبة. عندما أتمكن من الكتابة مرة أخرى، أو إذا كنتُ سأكتب مجددًا، لا أعرف. في الوقت الحالي، يمكنني رؤية الهنود لا يزالون في مكانهم، كُلِّي ثقة في أن (زامبو) المخلص سيكون هنا حتى يتسنى له الحصول على رسالتي؛ إنه السبيل الوحيد المُوثوق لوصول هذه الرسالة.

مُلاحظة: أظن أن موقفنا بات يائسًا. لا أرى أملًا محتملًا في عودتنا. إذا كانت هناك شجرة عالية بما فيه الكفاية بالقرب من الحافة، فلربما أسقطناها مستعملين إيَّاها جسرًا للعودة، لكن لا يوجد أي شيء على بُعْد خمسين ياردةً. حتى قوتنا مجتمعة لا تقدر على حمل جذع لنستخدمه في ذات الهدف. أما الحبل، فقصير جدًّا بالطبع، ومع ذلك لا نقدر على النزول به. إنَّ موقفنا ميئُوسٌ مِنْهُ.. ميئُوسٌ مِنْهُ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

لقد حدثت أغرب الأشياء

لقد حدثت أغرب الأشياء، ولا تزال تحدُث باستمرار، لم يَعُدْ بحوزتي إلا خمسة دفاتر أُدَوِّن فيها الملاحظات والكثير من القصاصات، لم يَبْقَ لديَّ سوى قلم ستايلوجرافي واحد؛ لكن طالما بوسعي تحريك يدي، فإنني سأواصل تدوين تجاربنا وانطباعاتنا؛ لأننا الرجال الوحيدون من الجنس البشري بأسْرِه الذين يَرَوْنَ هذه الأشياء؛ لذا من المهم تسجيلها، بينما لا تزال حاضرةً في ذاكرتي، وقبل أن يحيقَ بنا هذا المصير الذي يبدو وشيكًا.

لا أدري هل يوصل (زامبو) هذه الرسائل عبر النهر، أو أتمكن أنا من حملها بطريقة خارقة، أو لربما يأتي مستكشف جريء، متتبعًا مسارنا ومعه طائرة مِرْوحية، يجب أن نعثُر على هذه المخطوطات، في حالتي، كل ما أكتبه مُقدَّر له للخلود لكونه قصصًا حيَّة لمغامرةٍ حقيقية.

في صباح اليوم التالي من محاصرتنا على الهضبة من قبل (جوميز) الشرير، بدأنا مرحلة جديدة في رحلتنا، هذه ليست الحادثة الأولى التي تُعطيني رأيًا إيجابيًّا عن المكان الذي نتجول فيه. استيقظتُ من غفوة قصيرة قبيل بزوغ الفجر، وقع نظري على مظهر فريد من نوعه على ساقي، انزلق بنطالي، كاشفًا بضع بوصات من بشرتي تمامًا فوق جواربي.

وجدتُ عنبًا أرجوانيًّا هائل الحجم، اندهشتُ من رؤيته، انحنيتُ محاولًا التقاطه لكنه انفجر بين أصابعي، نافثًا الدم في كل اتجاه، نَدَّتْ عني صرخة اشمئزاز، أفاق على أثرها البروفيسوران اللذان كانا يقعان جانبي.

انحنى (سامرلي) على ساقي متفحصًا وقال:

- أمر مثير للاهتمام، قُرادة عملاقة. حسبما أظن لا يوجد تصنيف مُحدَّد لها.

قال (تشالنجر) بأسلوبه الذي لا يخلو من زهوٍ وتحذلقٍ:

- أول ثمار عملنا. لا يسعنا سوى تسميتها (إكسودز مالون)، وأنا واثق يا صديقي الشاب أنك ستتغاضى عن الإزعاج الصغير الذي خلفته العضة، مُقابل الامتياز المجيد المتمثل في إدراج اسمك بسجل علم الحيوان الخالد. مِنْ المؤسف أنك سحقت هذه العيِّنة الجيدة في لحظة شبعها. هتفتُ:

- حشرات قذرة.

رفع البروفيسور (تشالنجر) حاجبيه الكثَّيْن احتجاجًا، ووضع يدَهُ على كتفي محاولًا تهدِئتي. وقال:

- عليك التحلي بعين وعقل عِلميين، بالنسبة لرجل فلسفي الطبع، تبدو القرادة بفمها الشبيه بالإبرة وبطنها المنتفخ عملًا فنيًّا طبيعيًّا جميلًا كالطاووس، أو الشفق القطبي. إنه ليحزنني سماعك تتحدث عنها بطريقة غير لائقة، مع العناية اللازمة، يمكننا الحصول على عينات أخرى.

أزاد (سامرلي) مُتجهمًا:

- ليس عندي شك في هذا، لقد اختفى أحدها للتوِّ خلف ياقة قميصك.

قفز (تشالنچر) في الهواء كالثور، مَزَّق ياقة معطفه وقميصه بهوسٍ حتى يلتقطها. ضحكتُ و(سامرلي)، بالكاد استطعنا مساعدته. في النهاية كشفن الجذع الوحشي (يبلغ أربعة وخمسين بُوصة، بشريط الخياط)، جسده عبارة عن غابةٍ من الشعر الأسود، تُرَى من أي غابةٍ التقطنا هذا القراد المتجول قبل أن يعضه؟ هذه الشُّجيرات ممتلئة بالآفات الرهيبة، من الواضح أننا يجب علينا تغيير مُخيمنا.

لكن قبل كل شيء، يلزمنا ترتيب أمورنا مع الزنجي المخلص، الذي ظهر الآن على القِمَّة حاملًا بعض عُلَب الكاكاو والبسكويت، والتي ألقى بها إلينا.

إنَّ المؤَن الْمُخزنة، والتي ظلَّت في الأسفل من شأنها الإبقاء على حياتنا لشهرين، أما الباقي فسيحصل عليه الهنود كمكافأة على خِدْمَاتهم وعلى أخذ رسائلنا عبر (الأمازون). بعد مُضِيِّ عدة ساعات، رأيناهم يسيرون في مجموعة واحدة في مكان بعيد من السهل، يحمل كل واحد منهم زاده ومتاعه على رأسه، يشق طريقه عائدًا للطريق الذي أتينا منه، هجع (زامبو) في خيمتنا الصغيرة أسفل القمة، مكث هناك، صلتنا الوحيدة بالعالم الواقع أسفلنا.

والآن علينا اختيار حركاتنا المقبلة. لقد غيَّرنا موقعنا من الشجيرات المحملة بالقُراد وصولًا إلى قطعة أرض صغيرة يُحيط بها سياج شجري من جميع الجوانب. هنالك بعض الألواح الصخرية المسطحة في مركزها، جلسنا في رحابها نرتاح قليلًا، ونضع خُططًا مبدئيَّة لغزو هذا البلد الجديد. أتانا صوتُ الطيور من بين الأشجار مُناديًا -أحدُها له صوتُ صياحٍ غريبٌ وَقْعُه جديد علينا- فيما عدا هذه الأصوات لم يكن هناك أي علامات للحياة.

في البداية انصبَّ اهتمامنا على صُنع قائمة بالمؤن، حتى نعلم ما يُمكننا الاعتماد عليه، هناك الأشياء التي حملناها معنا وتلك التي أرسلها (زامبو) بواسطة الحبال، كنا مُجهزين بشكل جيد إلى حَدٍّ ما. والأهم من ذلك كله، تحسبًا للأخطار التي قد تحيق بنا، لدينا أربع بنادق وألف وثلاثمئة طلقة، ومئة وخمسون طلقة رصاص متوسطة الحجم لا أكثر ولا أقل.

فيما يخص التجهيزات، لدينا ما يكفي لعدة أسابيع، مع وفرة في التبغ وبعض الأدوات العلمية، ومِنظار مُقرَّب. جمعنا هذه الأشياء كلها معًا في حاوية واحدة، وكإجراء وقائي أول، قطعنا عدة شُجيرات شائكة مُستخدمين الفئوس والخناجر، ثم كدَّسْناها حولنا في دائرة يبلغ قطرها خمس عشرة ياردة. من المُفترض أن يكون هذا المكان هو مقرنا الرئيسي حاليًّا -ملاذنا من الأخطار المفاجئة- مكان لحراسة مؤننا، أطلقنا عليه اسم (حصن تشالنچر).

انتصف النهار قبل فروغنا من تجهيز أنفسنا، ومع ذلك لم تكن الحرارة مرتفعة. إن الطابع العام للهضبة -سواء في درجة حرارتها أو نباتاتها- معتدل تقريبًا. مثلًا هناك شجر الزان، والسنديان، حتى البِتولا كامنين بين الأشجار المتشابكة التي تُحاوطنا. ضربت إحدى أشجار الجنكو الضخمة، التي تفوق كل الأشجار الأخرى، أطرافها الكبيرة وأوراقها فوق الحصن الذي بنيناه. جلسنا نستظل بظلها

ونواصل مناقشاتنا، بينما اللورد (چون)، الذي سرعان ما تولى زمام الأمور في ساعة العمل هذه، يُدلي بآرائه. قال:

- ما دام لم يَرَنا إنسان أو يسمعنا وحش، فنحن في أمان. منذ اللحظة التي سيعرفون فيها أننا هنا ستهطل المشكلات على رءوسنا. حتى الآن لا يدل شيء على أنهم كشفوا عن وجودنا؛ لذا ستكون لعبتنا التخفي، أقلها لبعض الوقت، سنسير مُتحسِّسين خُطانا حتى نُلقي نظرة فاحصة على جيراننا قبل أن يفطنوا لنا.

غامرتُ بالتعليق قائلًا:

- لكن يجب علينا التقدم.

- سنتقدم بكل الوسائل الممكنة يا بُنيَّ. لكن مع الحسِّ السَّليم. لا يجب الذهاب بعيدًا بحيث تستحيل العودة، والأهم لا يجب إطلاق النار أبدًا، ما لم تكن مسألة حياة أو موت.

قال (سامرلي):

- لكنك أطلقت ليلة أمس

- حسنًا، لم يكن هذا بالأمر الجلَل. الرياح كانت قوية وحملت الصوت خارجًا. من غير المرجح أن يكون الصوت قد انتقل بعيدًا في أرجاء الهضبة، بالمناسبة، أي اسم سنطلق على هذا المكان؟ أظن أن الأمر متروك لنا لتسميته.

كانت هناك عدة اقتراحات، أكثر أو أقل سعادة، ولكن اسم (تشالنچر) كان الاختيار النهائي. قال (تشالنچر):

- هناك اسم واحد فقط يصلح لها. سنُسميها تيمُّنًا باسم الشخص الذي اكتشفها. إنها أرض (مابل وايت)

أصبح اسم المكان أرض (مابل وايت)، وهكذا أرفقتُ الاسم بالمخطط الذي أصبح مهمتي الخاصة. كُلِّي يقين أنه سيظهر في أطلس المستقبل.

التوغُّل السِّلمي في أرض (مابل وايت) هو شُغلنا الشاغل حاليًّا، رأينا رأي العين أدلة لا تُدحض على أن المكان مسكون من قِبل مخلوقات مجهولة، وبالطبع هناك كتاب الرسم الخاص بـ(مابل وايت) الذي أظهر أن الوحوش المروعة بالغة الخطورة مُتوارية في مكان ما هنا تنتظر لحظة الظهور. وعلى الصعيد الآخر بيَّن لنا الهيكل العظمي -الذي لا يُمكنه الوصول إلى مكانه ما لم يُدفع من أعلى- المستقر بين أعواد الخيزران مقدار الحقد البشري الكامن هنا. باتَ واضحًا أن حالتنا ميئوس منها، وأنه لا مَهْرَب لنا من هذه الأرض، المحفوفة بالمخاطر، أيدت الأسباب المحيطة بنا كل التدابير الاحترازية التي اقترح اللورد (چون) تجربتها. على الناحية الأخرى من المستحيل الوقوف على حافة هذا العالم الغامض بينما أرواحنا ذاتها تتوثَب بفارغ الصبر للمُضِيِّ قُدُمًا.

سدَّدنا مداخل ومخارج الحصن عن طريق تكديس الشُّجيرات الشائكة بها، غادرنا ومؤننا مُحاطة بهذا السياج الواقي، بدأنا سيرنا، ببُطْء وبحَذَر، نحو المجهول، تتبعنا مجرى نهر صغير مُتفرع من نهرٍ

يجري بالقرب من دائرة الأشجار حيث ربضنا، من شأنه أن يكون دليلنا في طريق العودة.

بالكاد خطونا خُطوتين وبدأت تُصادفنا علامات تدُلُّ على وجود عجائب في انتظارنا. بعد التعمُّق في الغابة الكثيفة لمئات الياردات، التي تحوي أشجارًا لم يكن أغلبها معروفًا لي، ولكن (سمرلي)، بصفته عالم النباتات في مجموعتنا، أخبرني بأنها أنواع شتى من الصنوبريات والنباتات السيكاداسية التي اختفت من العالم الخارجي منذ فترة طويلة. دخلنا منطقة اتَّسَع فيها الجدول مُشكلًا مستنقعًا كبيرًا. هنالك أجمة كثيفة من نوع غريب من الخيزران الطويل تنمو أمامنا، يُقال: إنه (إيكسيستاسيا)(73)، أو ذيل الفرس، تنتشر بينها السراخس، وكلها تتمايل مع الريح القوية. فجأة توقَّف اللورد (چون)، الذي تقدَّم المسيرة، رفع يديه تعجبًا وقال:

- انظروا لهذا! بحق القديس چورچ، لا يُخلف مثل هذا الأثر إلا والد كل الطيور!

أمامنا في الوَحْل الطري طُبعت خطوات هائلة لثلاث أصابع. هذا المخلوق، أيًّا كان، عبر هذا المستنقع ذاهبًا إلى الغابة. وقفنا جميعًا مُتفحِّصين هذا الأثر الوحشي؛ إذ كان يُعود لطائر -أي حيوان قادِر على ترْك علامة مثل هذه؟- فإن قَدَمَه أكبر كثيرًا من قَدَم النعامة، لو أخذنا في اعتبارنا الارتفاع وذات معايير القياس، فلا بُدَّ أنه هائل. نظر اللورد (چون) حوله مُتلهفًا وضع خرطوشتين في بندقية صيد الأفيال الخاصة به. قال:

- سأُخاطر بسُمْعتي الجيدة كوني مُقْتفيًا للأثر، هذا المسار جديد تمامًا. لقد مَرَّ هذا المخلوق هنا منذ عشر دقائق. انظر إلى الماء إنه لا يزال يتسرَّب لتلك الطبعة الأعمق! بالله عليك انظر، هاك هذه علامة واحد صغير! من المؤكد أن هذه الآثار الصغيرة ذات نفس الشكل تسير موازية الآثار الكبيرة.

هتف البروفيسور (سمرلي) مُبتهجًا:

- ولكن ما رأيك في هذا؟

أشار إلى شيء بدا وكأنه أثر ضخم لخمس أصابع بشرية تظهر بين علامات الأصابع الثلاث.

صاح (تشالنچر) مُنتشيًا:

- ويلدن! لقد سبق ورأيتهم في طين ويلدن، إنه مخلوق يمشي مُنتصبًا على ثلاث أصابع، وأحيانًا يضع كفوفه خُماسية الأصابع على الأرض. إنه ليس عصفورًا يا عزيزي (روكستون)، ليس عصفورًا.

- وحش؟

- لا؛ بل زاحف؛ ديناصور. لا يوجد شيء آخر يمكنه ترْك هذه الخطوات. لقد حيرت هذه الآثار طبيبًا فائق الذكاء من مقاطعة (ساسكس) قبل تسعين عامًا؛ لكن مَنْ في العالم كله تمنَّى رؤية مشهد كهذا؟!

قِيلَت كلماته الأخيرة بصوت خافت أقرَب للهمس، سلسلتنا جميعًا الدهشة فلم نَقْوَ على الحراك. ثم بدأنا اقتفاء الآثار، تركنا المستنقع، مَرَرْنا عبر أيكة شجرية صغيرة. وراءها هناك مساحة مفتوحة، هناك

وجدنا خمسة من المخلوقات الأكثر استثنائية التي رأيتها في حياتي. مَكَثنا نَراقبهم جاثمين بين الأشجار.

هناك، كما قلتُ، خمسة منهم، اثنان بالغان وثلاثة صغار. حجمها هائل. حتى الصغار كاد حجمهم يُقارب الفيلة، أما الكبيرَان فحجمهما أبعد كثيرًا عن كُلِّ المخلوقات التي رأيتها. لهم جلد بلون الأرجواز، يتلألأ كالسحلية، ويبرق حين تشرق الشمس عليه. جلس خمستهم موازنين أنفسهم على ذيولهم العريضة القوية، وأرجلهم الخلفية الضخمة ثلاثية الأصابع، بينما تمسكوا بالأغصان التي يستعرضونها بأرجلهم الأمامية الصغيرة خُماسية الأصابع. لا أعرف طريقة أفضل لوصفهم لكم وأنتم جلوس في المنزل سوى القول إنهم يُشبهون كنغرًا وحشيًّا، طوله عشرون قَدَمًا على الأقل، وجلده حرشفي أسود مثل التماسيح.

لا أعرف كم الوقت الذي قضيناه مُحدقين في هذا المشهد الرائع بلا أي اختلاجةٍ. هَبَّتْ رياح عاتيةٌ ونحن مُتخفون مستكينون جيدًا، لم يكن هناك أي فرصة للاستكشاف. ومِنْ وقت لآخر كان الصغار يلعبون حول آبائهم بطريقة ثابتة صَعْبة المنال، هذه الوحوش العظيمة تطير في الهواء وتسقط على الأرض مُرَفْرِفة. بَدَتْ قوة الوالدين خيالية لا حُدود لها، لو واجه أحدهما صعوبة في الوصول إلى أوراق الأشجار النامية على الأغصان الكبيرة، كل ما عليه فعله هو وضع أقدامه الأمامية حول الجذع وتمزيقها كأنها شُجيرة. هذا الحدث، كما أظن لا يُظهر تطورًا هائلًا في عضلاته فقط، ولكن أيضًا عقله الصغير؛ لأن الوَزْن كله سَقَطَ على قامته، أطلق سلسلة من الصرخات الحادة الْمُتألمة؛ لأنه مهما كان حجْمُه، فهناك حد لما يُمكنها تحمُّله. يبدو أن هذه الحادثة جعلته يتصور أن هذه المنطقة خطِرة، أخذ يترنَّح بِبُطْء سائرًا عبر الغابة، ثم تبعته زوجته وأطفاله الثلاثة الهائلون. رأينا وميض جلدها بين جذوع الشجرة، ورءوسها المتموجة عاليًا فوق الأشجار، سرعان ما اختفوا عن أنظارنا.

تأملت رفاقي، رأيتُ اللورد (چون) يقف محدقًا في الاتجاه الذي سارت فيه المخلوقات وأصبعه مُعلقة على زناد بندقية صيد الأفيال الخاصة به، روح الصياد الْمُتلهف تتأجج في عينيه الضاريتين. لم لا يتخلى عن حذره ليضع رأسًا كهذا بين المجدافين الْمُتقاطعين فوق الرفِّ في غرفته! ومع ذلك كبح زمام نفسه؛ ذلك لأن بقاءنا في هذه الأرض المجهولة وقدرتنا على استكشاف عجائبها مُتوقِّف على جهل سكانها بنا. أمسى البروفيسوران في نشوة صامتة وفي غُمرة حماسهما أمسك كُلٌّ منهما بيد الآخر دون علمه، وقفا مثل طفلين صغيرين أمام أعجوبة، بَرَزَ خدي (تشالنچر) في ابتسامة ملائكية، أما وجه (سامرلي) الساخر أصبح، في الوقت الراهن، مُتعجبًا مُتبجلًا.

أخيرًا هتف قائلًا:

- نونك ديمتيس!(74) تُرَى ما الذي سيقولونه عن هذا في إنجلترا؟

قال (تشالنچر):

- عزيزي (سمرلي)، يُمكنني إخبارك بثقة كبيرة ما سيقولونه بالضبط في إنجلترا؛ سيقولون: إنك كاذب جهنمي، ودجَّال علمي، بالضبط كما قلت أنت والآخرون عَنِّي.

- وماذا عن الصور؟

- أولم تكن معي صور؟ سيقولون إنها مُلفقة يا عزيزي (سمرلي)، مُلفقة بشكل أخرق.

- لربما تقف العيِّنات في وجه طوفان الشك هذا!

- آه، هنا قد نتمكن من الإيقاع بهم؛ (مالون) وزملائه القذرين المقيمين في شارع (فليت)، لربما ما زالوا يهتفون بمديحنا حتى الآن. الثامن والعشرون من أغسطس، اليوم الذي رأينا فيه خمسة (إيغواندون)(75) على قيد الحياة في ساحة أرض (مابل وايت. دوِّنها في مذكراتك يا صديقي الشاب، وأرْسِلها إلى جريدتك.

قال اللورد (چون):

- وكُنْ مستعدًّا للحصول على نهاية التحرير في المقابل، الأمور تبدو مختلفة قليلًا في لندن، أيها الريفي الصغير. هناك العديد من الرجال الذين لم يخبروا عن مغامراتهم أبدًا؛ لأنهم لا يملكون الأمل في أن تُصدق. من يقدر على لومهم؟ سيغدو الأمر لنا كحُلم بعد شهر أو شهرين. أخبرني ماذا يكونون؟

أجابه (سامرلي):

- (إغوانودون)، ستجد آثار أقدامهم مُنتشرة فوق رمال (هاستينجز)، في كينت، وساسكس. لقد عمروا جنوب إنجلترا عندما كان هناك الكثير من الأشياء الخضراء الخصبة الكفيلة بإبقائهم على قيد الحياة. لكن الظروف تغيَّرت والوحوش ماتت. يبدو أن الأحوال لم تتغيَّر هنا، وأن الوحوش عاشت.

قال اللورد (چون):

- إذا قُدِّر لنا الخروج من هنا على قيد الحياة، يجب أن أحصل على رأس أحدهم. يا إلهي، ستتحول حشودُ الصوماليين والأوغنديين إلى حَبَّة بازلاء جميلة إذا رأوها! لا أعرف ما تظنونه يا رِفاق، ولكن يُدهشني أننا نقف على جليد رقيق طيلة هذا الوقت.

راودني نفس الشعور الغامض، والإحساس بالأخطار حولنا. وفي الظلمة بَدَتِ الأشجار تهديدًا مستمرًّا، ولما نظرنا إلى أوراقها الغامضة تسلَّلت الرعدة والخوف إلى قلوبنا. صحيح أن هذه المخلوقات التي رأيناها كانت متوحشة، غير مؤذية، من المرجح ألا تؤذي أي شخصٍ، ولكن في عالم العجائب هذا، مَنْ يعلم أي أهوال شَرِسة، جاهزة للانقضاض على الناجين من عرينها الكامن بين الصخور أو الدغل؟ كنتُ أعرف القليل عن حياة ما قبل التاريخ، ولكن عندي ذكريات واضحة من كتاب واحد قرأت فيه عن المخلوقات التي تقتات على الأسود والنمور، كما يقتات القط على الفئران، ما الذي سيحدث لو وُجدت هذه أيضًا في غابة أرض (مابل وايت)!

كان مُقدَّرًا لنا في هذا الصباح -أول خُطواتنا في البلد الجديد- أن نكتشف الأهوال الغريبة التي تُحيط بنا. لقد كانت مغامرة كريهة، وأحد الأشياء التي أكره التفكير فيها. إذن -كما قال اللورد چون- كانت فسحة الإغواندون ستبقى كحلم بالنسبة لنا، فمن المؤكد أن مستنقع الزواحف المجنحة سيكون كابوسنا إلى الأبد. اسمحوا لي أن أقصَّ عليكم بالضبط ما حَدَث.

٥

ببُطء شديد سِرْنا عبر الغابة، ويرجع جزء من السبب لكون اللورد (روكستون) سارَ في الطليعة مُسْتَكْشفًا قبل أن يسمح لنا بالتقدم، أما باقي السبب فلأنه في كل خُطوة إضافية يسقط بروفيسور من الاثنين أرضًا مُطلِقًا صرخة تعجُّب، أمام زهرة أو حشرة تُمثل له نوعًا جديدًا. ربما سافرنا ميلين أو ثلاثة، مُحافظين على مسارنا يمين الجدول، عندما صادَفنا فُتحة كبيرة في الأشجار. أجمة تؤدي إلى مجموعة من الصخور. الهضبة بأكملها مُغطاة بالجلاميد. خُضْنا بين الشُّجيرات التي وصلت للواحد منا إلى خصره، مُتقدمين نحو هذه صخور، لاحظنا فجأةً صوت ثرثرة تبعه صفير غريب، ضج المكان بصخب مستمر، بَدَا أنه آتٍ من بُقعة أمامنا مباشرة. رفع اللورد (چون) يَدَه في إشارة مفادها التوقف، أنحنى وهَرْوَل نحو الصخور. عكس المتوقع رأيناه يتخشب ويُطالع شيئًا ما بِعَجَبٍ واضح. طفق يحدق فيما أمامه وبدا أنه نسينا، لقد كان مذهولًا تمامًا بما رآه. أخيرًا لوَّح لنا بإحدى يديه لنأتي وبالأخرى أشار إشارةً تحذيرية. جعلتني حركتُه أشعر بأن هناك أمرًا جللًا أو خطرًا ينتظرنا.

تسلَّلنا إلى جانبه ونظرنا فوق الصخور، وقفنا نُحدق فيما اتضح أنه حفرة، وربما، في أيامها الأولى، كانت واحدة من أصغر الحفر البركانية في الهضبة. كانت على شكل وعاءٍ، وفي قاعها، على بُعد مئات الياردات من المكان الذي نقف فيه، هناك برك من المياه الخضراء الآسنة. هذا المكان غريب بحد ذاته، لكن ساكِنيه جعلوه يبدو كمشهد من جحائم دانتي(76) السبع. المكان بأكمله عبارة عن مغدفةٍ للزواحف المجنحة! هنالك المئات منهم تجمعوا حتى سدُّوا الأفق. حتى قاع الحفرة المحيط بحافة الماء كان مكدسًا بالصغار، والأمهات بشعات الخلقة اللواتي يرقدن على بيضهن ذوي القوام الجلدي واللون الأصفر. صدر عن كتلة الزواحف البشعة هذه الصخب الصادم الذي ملأ الأرجاء، والرائحة الكريهة، التي عبقت الهواء بعفونة رهيبة جعلتنا نمرض. في الأعالي، يتكئ كل واحدٍ منهم على حجره الخاص، طويلًا، رماديًّا، ذيله يتحرك بجنون، يبدو أقرب للعينات الميتة والمجففة منه للمخلوقات الحية فعلًا، جلس الذكور الْمُفزعون، لا يتحركون على الإطلاق باستثناء اختلاجة عيونهم الحمراء التي تحدث من حين إلى آخر، أو فتح مناقيرهم الشبيهة بخطم التنين. ضمت أجنحتها الغشائية الضخمة عن طريق طي أذرعها، ظهرت في جلستها هذه كنساءٍ عجائز عملاقة، مُلتَفَّات بشيلان شبكيةٍ بشعة، ورءوسهن المشوهة بارزة. سواء الكبير منها أو الصغير، هناك ما لا يقل عن ألفٍ من هذه المخلوقات القذرة يرقد في الحفرة أمامنا.

بكل سرور الدنيا كان البروفيسوران سيمكثان هنا طوال اليوم، كانا مذهولين للغاية؛ لأنه أتيحت لهما فرصة دراسة حياة ما قبل التاريخ. أشارا إلى الأسماك والطيور الميتة التي يرقد رفاتها بين الصخور إثباتًا للطبيعة الغذائية لهذه المخلوقات، وسمعتهم يهنئون بعضهم البعض لاكتشافهم سبب العثور على عظام هذا التنين الطائر بأعداد كبيرة في مناطق محددة بوضوح، كما هو الحال في رمال (كامبريدچ جرين)؛ ذلك لأنها -وكما يظهر أمامنا- تعيش بطريقة اجتماعية مثل طيور البطريق.

في النهاية كان (تشالنچر) عازمًا على إثبات نقطة ما اعترض عليها (سمرلي)، دفع رأسه فوق الصخور جالبًا الدمار علينا جميعًا. في ذات اللحظة، أطلق أقرب الذكور إلينا صفيرًا عميقًا، طار في الهواء مُرفرفًا بأجنحته الجلدية التي يبلغ طولها عشرين قَدَمًا. احتشد الإناث والصغار معًا بجوار الماء، بينما ارتفعت دائرة الحراس بأكملها وحلَّقوا واحدًا تلو الآخر في السماء، إنه منظر نادِر أن ترى ما لا يقل عن مئة مخلوق من هذا الحجم الهائل والمظهر البشع تنقض مثل طيور السنونو

ضاربة الهواء ضربات سريعة بأجنحتها مُقبلة علينا؛ سرعان ما أدركنا أنه لا يُمكننا البقاء أكثر من هذا. في البداية حلقت المخلوقات المتوحشة الكبيرة في حلقة ضخمة، كأنها تتأكد من مدى الخطر. ثم هبطوا لأسفل وأصبحت الحلقة أضيق، حتى طافوا فوقنا تمامًا، رفيف أجنحتها الضخمة -الجافة- ذات الألوان الأرجوازية الذي يملأ الهواء بامتداد الصوت، جعلني أفكر بمطار (هندون) الذي زُرْته في يوم سابق.

هَتَفَ اللورد (چون) وهو يُمسك ببندقيته:

- احتموا بالأشجار وابقوا معًا، هذه الوحوش تبغي الأذى.

في اللحظة التي حاولنا فيها التراجُع، أُغلقت الدائرة علينا، حتى لامست أطراف الأجنحة الأقرب إلى وجوهنا. أفرغنا فيهم مخزون بنادقنا، لكن لم يكن هناك شيء جامد أو ضعيف عُرْضة للتصويب. على حين غرة بَرَزَ عنق طويل من دائرة الأردواز، ثم بدأ يندفع نحونا بمنقاره الشرس. وتبعه آخرون. صرخ (سمرلي) ووضع يدَه على وجهه أثر تدفق الدم منه. شعرتُ بوخزة في مؤخرة عنقي، ثم سببت لي الصدمة دوارًا عنيفًا. سقط (تشالنچر) على الأرض، انحنيتُ محاولًا رفعه، مرة أخرى تلقيتُ ضربةً من الخلف أسقطتني على البروفيسور. في نفس اللحظة سمعتُ صوت قذيفة بندقية صيد الأفيال الخاصة باللورد (چون)، وعندما نظرت إلى أعلى رأيتُ أحد المخلوقات بجناحه المكسور يُصارِع على الأرض، يبصق ويقرقر في وجوهنا بمنقار مفتوح وعيون ملطخة بالدماء كأنه شيطان خارج من لوحات القرون الوسطى، حلق رفاقه عاليًا لما سمعوا الصوت المفاجئ، كانوا يدورون فوق رءوسنا.

زعق اللورد (چون) قائلًا:

- الآن، الآن من أجل حياتنا!

سِرنا مُترنحين عبر الأجمة، حتى عندما وصلنا إلى الأشجار كانت الهاربات فوقنا مرة أخرى، سقط (سمرلي)، لكننا حملناه وهرعنا هاربين بين الجذوع، لمرة أخرى صِرْنا آمنين؛ لأنه لا مكان بين الأغصان لهذه الأجنحة الضخمة حتى تُحلق فيه، في أثناء عودتنا إلى المخيم، شعرنا بأننا مدمرون ومرتبكون، لوقت طويل شاهدنا الوحوش تعتلي السماء الزرقاء العميقة فوق رءوسنا مُحلِّقَة فيها على علو شاهق، يحلقون في دوائر وعيونهم تتابع -بلا شك- تقدُّمنا. لما بلغنا أخيرًا الغابة الكثيفة، تخلو عن مطاردتنا، ولم نرهم مرة أخرى. قال (تشالنچر) بينما هو واقف بجوار الجدول يغسل ركبته المصابة:

- تجربة مثيرة للاهتمام ومقنعة للغاية، لقد أصبحنا نعلم -علم اليقين وبشكل استثنائي يا (سمرلي)- عاداتَ الزاحف المجنح الغاضب.

أخذ (سمرلي) يُنظِّف جرح جبهته ويمسح الدم عنه، بينما كنتُ أضمد رقبتي التي تلقيتُ فيها طعنة بمنقار هذه المخلوقات، قام اللورد (چون) بخلع معطفه، وتبين أن أسنان المخلوق بالكاد خدشت لحمه.

تابع (تشالنچر) قائلًا:

- من الجدير بالملاحظة أن صديقنا الشاب تلقى طعنة لا شك فيها، في حين تمزق معطف اللورد (چون) بفعل قضمة. في حالتي الخاصة، ضربوا رأسي بأجنحتهم؛ لذا لقد حضرنا عرضًا رائعًا لِمُختلف أساليبها في الاعتداء.

قال اللورد (چون) بلهجة خطرة:

- إنه أمر مؤثر حقًّا، لا أستطيع التفكير في ميتة أسوأ من الموت على يد هذه الآفات القذرة. إنني أعتذر لإطلاق النار عليها، لكن، بالله عليكم! لم يكن هناك خِيار آخر.

قلتُ باقتناع:

- ما كنا لنكون هنا لو لم تفعل.

قال:

- لربما لا يكون هذا بالأمر الجلَل. بين هذه الأشجار هنالك العديد من الأصوات الصاخبة الناتجة عن انشقاق الأشجار أو سقوطها، هذه الأصوات مثل صوت البندقية بالضبط. والآن إذا طلبتم رأيي، لقد حظينا بإثارة كافية ليوم واحد، من الأفضل تفقُّد صندوق الأدوية في المعسكر بحثًا عن الكاربوليك. من يدري نوع السُّم الموجود في فك هذه الوحوش البشعة؟

لكن من المؤكد أن رجلًا لم يحظَ بيوم مثل هذا منذ بدأ العالم. عندما وصلنا أخيرًا كانت هناك مفاجأة جديدة تنتظرنا. تتبعنا مجرى النهر، حتى وصلنا في النهاية إلى الفسحة التي أقمنا فيها معسكرنا، رأينا الحاجز الذي أقمناه، ظننا أن مغامرتنا الجريئة وصلت إلى نهايتها، لكن لدينا شيء آخر نفكر فيه قبل أن نرتاح. وجدنا بوابة (حصن تشالنچر) سليمة لم تُمَسَّ، الجدران لم تُكسر، ومع ذلك زارها مخلوق غريب وقوي في غيابنا، لم يظهر أي أثر يدل على طبيعته، فقط بين غصن شجرة الجنكو الضخم كيف أمكنه المجيء والذهاب؛ قوته الغاشمة تركت أدلة وافرة في مخازننا. تناثرت المؤن بعشوائية مُغطيةً الأرض، هناك عُلبة لحم واحدة سُحقت إلى قطع لاستخراج محتوياتها. تحطمت عُلبة الخراطيش وأصبحت في حجم أعواد الثقاب، قبعت بجانبها إحدى القذائف النحاسية الممزقة إلى قطع. ومرة أخرى، لفنا شعور بالرعب والغموض، نظرنا حولنا بعيون فزعة مُحدقين في الظلال والظلمة المحيطة بنا، تُرَى أي شيء مخيف كامن فيها؟ لكم كان جيدًا سماع صوت (زامبو) المُرحب بنا، ذهبنا إلى حافة الهضبة، ورأيناه جالسًا على الحافة المقابلة يبتسم لنا في وداعة. قال:

- الأمور على ما يُرام يا سيد (تشالنچر)، كل شيء بخير! سأبقى هنا. لا داعي للخوف. ستجدني دائمًا عندما تريد.

وجهه الأسود النقي، الذي يشع إخلاصًا، والمنظر الهائل أمامنا، الذي أعادنا في منتصف الطريق إلى ثراء الأمازون، ساعدانا على تذكُّر أننا واقفون على هذه الأرض حقًّا في القرن العشرين، ولم ننقل بواسطة السحر إلى كوكبٍ بكر في أقدم عصوره وأكثرها جموحًا. إنه لأمر صعب، إدراك أن الخط البنفسجي الواقع في الأفق البعيد هو الطريق لذلك النهر العظيم الذي تُبحر فيه البواخر الهائلة، ويتحدث الناس عن شئون الحياة التافهة، بينما نهرب نحن من مخلوقات الماضي السحيق، يمكننا فقط التحدِيق فيه، تواقين لكل ما يعنيه!

ما زال في جعبتي ذكرى أخرى عن هذا اليوم الرائع، سأختم بها هذه الرسالة. وقع خلاف بين البروفيسورين، اللذين أصبح مزاجهما حادًّا مؤخرًا؛ وذاك راجع -بلا أدنى شك- إلى الجراح التي أصابتهما، كان الخلاف عن ماهية المخلوقات التي هاجمتنا أكانت من جنس الزاحف المجنح أم الديمورفودون، تبع ذلك كلمات عالية. لتجنب المشاجرات ابتعدا قليلًا عن بعضهما، جلستُ أُدخِّن على جذع شجرة ساقطة، فيما يسير اللورد (چون) مُقْبِلًا عليَّ.

قال لي:

- مرحبًا (مالون)، هل تتذكر المكان الذي رأينا فيه هذه الوحوش؟

- بوضوح شديد.

- إنه نوع من الفُوهَّات البركانية، أليس كذلك؟

قلتُ:

- بالضبط.

- هل لاحظت التربة؟

- صخرية.

- لكن حول الماء، أين كانت أعواد الخيزران؟

أجبته قائلًا:

- لقد نما في تربة زرقاء باهت لونها بدت مثل الطين.

- أنت محق تمامًا. فوهة بركانية ممتلئة بالطين الأزرق.

سألته:

- ما الذي يعنيه هذا؟

قال:

- آه، لا شيء، لا شيء.

انتهى من كلامه واستدار عائدًا إلى حيث ارتفعت أصوات رجال العلم المتنافسين. نغمة صوت (سمرلي) العالية الحادة ترتفع وتهبط على رأس (تشالنچر). وجب عليَّ عدم التفكير مطولًا في ملاحظات اللورد (چون) تلك مرة أخرى، لكني سمعته يهمس لنفسه قائلًا: طين أزرق، طين في فوهة بركانية! هذه كانت آخر كلمات سمعتها قبل أن أسقط في سبات عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

لمرَّةٍ كنتُ البطل

كان اللورد (چون روكستون) مُحِقًّا في ظنه، مناقير المخلوقات المرعبة التي هاجمتنا كانت مغمورة بالسموم. في الصباح وبعد مغامرتنا الأولى في أرض الهضبة شعرت أنا و(سمرلي) بحُمَّى وألم بالغ، بينما تقرحت ركبة (تشالنچر)، بالكاد أمكنه المشي بعرجةٍ ظاهرة. مكثنا في المعسكر طيلة اليوم؛ لذا شغل اللورد (چون) نفسه بمحاولة زيادة ارتفاع وسُمك الجدران الشائكة التي تُمثل دفاعنا الوحيد. أتذكر أني طيلة اليوم اعتراني شعورٌ بأننا مراقبون عن كثب، لكن من يُراقبنا أو كيف لا أدري.

مع ذلك كان الشعور قويًّا لدرجةٍ دعتني لإخبار البروفيسور (تشالنچر) بشكوكي لكنه أرجأ الأمر لاعتلال عقلي إثر الحمى. تارةً إثر أخرى، رنيتُ بعيني سريعًا وظننت أني سأرى شيئًا فلم أُبْصِر سوى كتلة السواد المتشابك القابعة خلفنا أو العتمة الخانقة للأشجار المهولة التي تشابكت غصونها فوق رءوسنا. لاحقًا زادت قوة شعوري، هنالك -في رأيي- شيء يَقِظ، خبيث يترصدنا إبان مكوثنا. فكرتُ بالأسطورة الهندية (كروبوري) روح الغابة المريعة السائرة بين الأشجار، أمكنني تخيل حضورها المريع، تتصيد الذين اقتحموا أبعد ملاذها الأبعد، قدس أقداسها.

في تلك الليلة -ثالث ليلة لنا بأرض (مابل وايت)- مررنا بتجربة تركت آثار الذعر محفورة بعقولنا، وجعلتنا ممتنِّين للورد (چون) الذي جعل هروبنا ممكنًا، كُنَّا نِيامًا جوار النار الخافتة وإذ بنا نُفاجأ بعدَّة أصوات تصرُخ وتنتحب، في حياتي كلها لم أسمع شيئًا مُفزعًا أكثر منها.

لم أعرف صوتًا يُمكنني مقارنته بتلك الجلبة التي بَدَتْ آتية من على بُعد مئات الفراسخ من معسكرنا، صوت عميق يشق الآذان كأنه مُحرِّك قاطرة، ومن حيث أتى صاحبه صوت ميكانيكي حادّ أكثر شدة ينضح بألوان الأسى والرُّعب. غطينا آذاننا بأيدينا علَّنا نتقي تلك الهالة الفاتكة بالأعصاب. بدأتُ أتصبب عرقًا باردًا من كل مسام جسدي، ألم الإعياء برأسي، كل آهات عذابات الدنيا، كل الذنوب بالسماوات العليا، كل مآسيها التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى بَدَتْ مُجتمعة في تلك الصرخات المُروعة المتألمة. ثم، بعد هذا الصوت ذي التردد العالي، أتى آخر متقطع ومنخفض، ضحكة عميقة، حشرجة فزعة شكلت مع الصوت الآخر الذي أصابنا بالذعر مزيجًا مُشَوَّهًا. لثلاث أو أربع دقائق استمرت ثنائية الخوف هذه بينما تساقطت أوراق الأشجار إبان نفور الطيور الْمُهتاجة.

وكما بدأت هذه الأصوات فجأة سكتت فجأة، لمدة طويلة ظللنا جالسين، مرعوبين، صامتين، رمى اللورد (چون) بحزمة أغصان إلى النار ليتأجج الوهج الأحمر كاشفًا خبايا وجوه رفاقي، متألقًا على الأغصان المهولة التي غطت رءوسنا.

غمغمت قائلًا:

- ما كان هذا؟

قال اللورد (چون):

- سنعرف صباحًا. أمسك عن الكلام حينًا ثم أردف:

- لم تكن هذه الأصوات بعيدة عنا، بدت لي آتية من السهل.

قال (تشالنچر):

- لقد نِلْنَا شرف سماع مأساة مما قبل التاريخ، ذلك النوع من الدراما التي حدثت في أحراش الخيزران على حدود البحيرات الجوراسية، عندما مَرَّغ التنين الأكبر نظيره الأصغر بالوَحْل. سكت بُرهة متفكرًا ثم استطرد بجدية لم أعهدها بنبرته قط:

- بالطبع يعلم البشر أنهم يتذيلون ترتيب الخليقة، في العصور المغرقة في القدم كانت هناك قوى عمرت الأرض لم تكن شجاعة الإنسان أو أي من تكنيكاته لتنفع معها، ما الذي سيحميه من القوى التي شهدناها الليلة، مقلاعه، رمحه أم ربما قوسه؟ حتى مع البندقية الحديثة كل الحظوظ تميل لكفة الوحش.

همس (اللورد چون):

- أظن أنني أؤيد صديقنا الصغير.

رفع (سمرلي) يده ناهرًا:

- صمتًا! متأكد أني سمعت شيئًا؟

ومن قلب الصَّمْت البهيم سُمِعَتْ قعقعة منتظمة، وطأة حيوان ما، إيقاع خُفٍّ ثقيل ناعم على الأرض، سارت بِبُطْء حول المخيم قبل أن تتوقف قُبالة طريق البوابة.

علا في المكان صوت صفير تلاه شهيق وزفير منخفض، هذا صوت تنفس المخلوق. لم يفصلنا عن هذا الرعب الذي ساد الليل سوى سور واهنٍ، تمسكنا ببنادقنا، اقتطع اللورد (چون) شُجيرة صغيرة ليصنع سياجًا.

همس قائلًا:

- بحق القديس جورج! أظن أنني أراه.

توقفتُ ورنوتُ فوق كتفيه مُتطلِّعًا عبر الفجوة، نعم، أمكنني رؤيته أيضًا، بعيدًا بجوار ظل الشجرة وُجِد ظِلٌ أقْتَم، أسود، بدائي، مُبهم، رابض بوضع ممتلئ بالوحشية والوعيد، قامته لا تتعدى الحصان، ومن الحدود الباهتة لجسده بدا ذا حجم وقوة هائلتين.

يصدر عنه صوت هسيس لاهِث منتظم، غليظ كعادم الْمُحرِّك، إننا نتحدثُ عن وحْشٍ كاسِر. في أثناء تحركنا ظننتُ أنني رأيت عينيه الخضراء الْمُريعة، تعالَى صوت الحفيف المتقطع كأنه يزحف نحونا ببطء. شرعتُ أُلقِّم بندقيتي، قلتُ:

- أظن أنه سيثب علينا.

همس اللورد (چون):

- لا تُطْلق النار، في هذا الليل الهادئ سيردد الصدى صوت البندقية لمئات الأميال، اجعل هذه الخطوة ورقتنا الأخيرة.

بصوتٍ مرتعشٍ ضاحكٍ قال (سمرلي): إذا وصل للسياج فقد انتهى أمرنا.

هتف اللورد (چون) بصوت كالزئير:

- لا يُمكن أن يجتازه. ومع ذلك لا تطلقوا النار حتى آخر لحظة، علني أستطيع فِعْل شيء ما، على كُلٍّ حالٍ سأُجرِّب.

بالتأكيد هذا أشجع فعل رأيتُ إنسانًا يُقدم على فعله، وقف أمام النار، التقط فرعًا مشتعلًا وانسلَّ بسرعةٍ وخفةٍ عبر البوابة التي صنعها مُسبقًا. تقدم ذلك الشيء بزمجرته المرعبة إلا أن اللورد (چون) لم يتردَّد، بل ركض نحوه بخطوات مُتسارعة حثيثة دافعًا الجذع المشتعل في وجه المخلوق. لوهلة خُيِّل إليَّ أنني رأيتُ قناعًا رهيبًا يبدو كوجه ضفدع عملاق آكله الجذام، فم رخو مُخضب بدماءٍ طازجة، بعدها حَدَثَ انهيار أسفل الأشجار، ذهب زائرنا المرعب.

مشى اللورد (چون) عائدًا، تسبقه ضحكاته. قال:

- ظننت أنه لم يَرَ النار من قبلُ.

ألقى الفرع المشتعل بين جذوات النار، هدرنا به قائلين:

- ما كان عليك المخاطرة هكذا!

- لم يكن هناك شيء آخر يُمكننا فِعْلُه، لو حدث ودخل ها هنا لأطلقنا النار على بعضنا البعض في محاولة قتله، على الصعيد الآخر، لو أطلقنا النار عبر السياج وأصبناه، فمن شأن هذا أن يصيبه بالهياج. عندها نكون قد ضيعنا أنفسنا. على كُلٍّ أظن أننا خرجنا من الموقف بطريقة جيدة. إذن ما هذا المخلوق؟

رَمَقَ الرجال الْمُتعلمون بيننا بعضهم بعضًا بنظرة مترددة، قال (سمرلي) وهو يُشعل غليونه:

- عن نفسي لا أملك تصنيفًا يقينيًّا لهكذا مخلوق.

قال (تشالنچر) بلهجة رقيقة بعض الشيء:

- إنَّ عدم تصريحك بتكهنات لا أساس لها يُعَدُّ تصرفًا علميًّا لائقًا.

- عامةً لا أملك ما أقول، سوى أن ما رأيناه الليلة نوع من الديناصورات آكِلة اللحوم. كنتُ قد توقعتُ مُسبقًا وجود شيء من هذا القبيل على هذه الهضبة.

وازاد:

- يجب الأخذ في الاعتبار، إننا لم نَقابِل الكثير من كائنات ما قبل التاريخ؛ لذا فتسمية كل شيء يصادِفنا يُعَدُّ تسرُّعًا.

- بالضبط، التصنيف العام أفضل ما يمكننا فِعْله الآن، فيما بعد ربما تتوفر أدلة دامغة تُرشدنا إلى تصنيف محدَّد، في الوقت الحالي أرى أن نعود إلى مُعسكرنا المهجور.

قال اللورد (چون) بصوت حازمٍ:

- ليس دون حراسة. لا يُمكننا تحمل كُلفة تجربة حظنا في هكذا بلد. سنتقاسم نوبات الحراسة؛ ساعتين لكل واحد.

قال البروفيسور (سمرلي):

- سأكون الأول ريثما أنهي غليوني.

من وقتها لم نشعر بالاطمئنان مرة أخرى إلا في وجود من يحرسنا.

في الصباح، لم نستغرق وقتًا طويلًا لنعلم سبب الجلبة المريعة التي أعيتنا ليلًا.

كانت فُسحة الإغوانودون عبارة عن مشهدٍ لمجزرة بشعة. تناثرت بِرَك الدماء وقطع اللحم العملاقة في كل حدَب وصَوْب، مغطيةً البساط الأخضر. في البداية تخيلنا أن عددًا من الحيوانات قد قُتل، لك بعد فحص ما تبقى عن كثب اكتشفنا أن تلك المجزرة سببها أحد تلك الوحوش صعبة المراس، والتي كانت ممزقة حرفيًّا لمئات الأجزاء، على يد كائن ربما ليس أكبر، لكنه أشرس منها بمراحل.

انهمك العالمان في جدال طويل، مُختبرين قطعة تلو الأخرى، والتي أوضحت علامات أسنان فتاكة ومخالب عملاقة. قال البروفيسور (تشالنچر) وهو يضرب بيده على ركبته:

- يجب أن يظل حُكمنا مُعلَّقًا. تُشير الدلائل إلى وجود نمر ذي أسنان حادَّةٍ مهولة، كالتي لا تزال موجودة في كهوفنا البريشية، لكن المخلوق الذي شاهدناه بالفعل، أضخم ويبدو أقرب للزواحف، شخصيًّا أقول إنه ألوصور(77).

غمغم سمرلي: أو ميغالوصور(78).

ضحك (تشالنچر) بصوت عالٍ مغرور، على الرغم من أن روح الدعابة لديه شبه معدومة فإنه حَرَّك شفتيه بصوتٍ أقرب للزئير قائلًا:

- بالضبط، إن ما نشاهده هو واحد من تلك الديناصورات اللاحمة لا محالة، تجدُ بينهم أكثر الفصائل فتكًا في المملكة الحيوانية، ربما لُعنت الأرض بهم أو زينوا قاعة مُتحف.

قال اللورد (روكستون) باقتضاب:

- كلما قلَّت الضوضاء بات الوضع أفضل، إننا لا ندري أي مخلوقاتٍ تتسكع جوارنا، لو أن ذاك الضاري عاد هنا فلن يكون هناك شيء نضحك عليه. بالمناسبة، ما هذه العلامات المنتشرة على جلد الإغواندون؟

على الجلد الحرشفي أردوازي اللون، تحديدًا فوق الكتف، ظهرت دائرة واحدة سوداء، بَدَتْ مصنوعة من القار، لم يدر أي منا كنهها ولم يُحاول التوقع، فكر (سمرلي) في أنه رأى شيئًا مُشابهًا على واحد من صغار هذه المخلوقات قبل يومين.

لم ينبسْ (تشالنچر) ببنت شفة، لكنه بدا مَزْهوًّا مغترًّا، كأنه يملك الجواب لكنه لن يُفصح إلا إذا أراد، في النهاية سأل اللورد (چون) عن رأي قاطع.

قال (تشالنچر) بسخريته المعهودة:

- إذا سمح لي سيادتكم مُتلطفين بالحديث، فسأكون سعيدًا بالتعبير عن مشاعري، لستُ معتادًا على المداهنة، لكنها إحدى تقاليدكم. لم أكن أعلم أنه من الضروري الحصول على موافقتكم قبل الابتسام في مجاملة غير مؤذية.

لم يكن صديقنا الحساس ليُضني نفسه حتى يتلقى اعتذاره، عندما هدأت أحاسيسه الْمُهتاجة أخيرًا، حدثنا -كما اقتضت العادة- وهو جالس فوق جذع واحدة من الأشجار، كأنه يُعطِي خلاصة علمه لفصل به ألف طالبٍ. قال:

- بعد تفحص العلامات أميل للاتفاق مع صديقي البروفيسور (سمرلي)، تلك البقع الْمُتكونة من القار، حالها كحال هذه الهضبة، بُركانية بطبيعتها، وبما أن القار مادة لها علاقة بالقوى البلوتونية(79)، لا يُساورني شك أنها موجودة في حالتها السائلة الحرة، ربما صادفت هذه المخلوقات بعضها. هنالك مشكلة أخرى أهم حتى نتساءل عنها، بلا شك يُوجد وحوش لاحمة(80) هنا وقد تركت طرائدها بهذه الفُسحة، بالكاد نعلم أن هذه الهضبة ليست أكبر من مقاطعة إنجليزية متوسطة. وبهذه المساحة المحدودة يُوجَد عدد مُحدَّد من المخلوقات، أغلبها فصائل انقرضت في العالم الخارجي، وقد عاشت جنبًا إلى جنب عددًا لا يُحصى من السنين. والآن بات واضحًا لي أن آكلات اللوم تلك ظلت تتكاثر دونما رادع، وهو ما أدى في النهاية لاستهلاك موارد طعامهم، مُجبرًا إياهم إما على تغيير نظامهم الغذائي أو الموت جوعًا. لم يكن الحال فيما مضى كما نراه الآن؛ لذا لا يسعنا سوى تخيل التوازن الطبيعي وهو يُعيد الأمور إلى نصابها، عن طريق وضع مانعٍ يحدُّ من تكاثر تلك الكائنات الشرسة. ومن ثم فإن واحدة من أكثر مشكلاتنا إثارة للاهتمام، التي تنتظرُ حلها، هي اكتشاف ماهية ذاك المانع وكيف يعمل. أجرؤ على الظن أننا قد نحظى ببعض الفرص المستقبلية لدراسة الديناصورات آكلة اللحم عن كثب.

قلتُ:

- أجرؤ على قول إننا قد لا نعيش لنفعل ذلك.

رفع البروفيسور (تشالنچر) حاجبيه بازدراء، كما يفعل مدير المدرسة مع طالب مشاغب ثم قال:

- ربما يود البروفيسور (سمرلي) التعليق عما قِيل. سرعان ما احْتَدَمَ النقاش بينهما في جو علمي صافٍ، أغلبها عن احتمالات انخفاض معدل المواليد وما قابله من انخفاض في الإمدادات الغذائية في الغابة، وهو ما أثر في إعداد هذه الحيوانات.

في الصباح رسمنا خريطة مُرتجلة لجزءٍ صغيرٍ من سفح الهضبة، وتجنبنا ذكر مستنقع الزواحف المجنحة، جاعلين الجدول إلى شرقنا بدلًا من الغرب. في ذاك الاتجاه لا يزال البلد ذا أشجار كثيفة، تنتشر وسطها الكثير من الحشائش والشُّجيرات السميكة التي جعلت تقدمنا بطيئًا للغاية.

كنتُ قد نسيتُ أو تناسيتُ أهول أرض (مابل وايت)؛ وهذا راجع لسبب وجيه، ففي أثناء تجولنا ذلك الصباح أحاطتنا الزهور الجميلة التي تدرجت ألوانها ما بين الأبيض والأصفر، أوضح البروفيسوران أن هذه زهور ظلِّ بدائية بكر. في العديد من الأماكن فُرشت الأرض كلها بغطاء مِهَن، يصل ارتفاعها إلى ركبنا في بعض الأحيان، وبينما نحن سائرون على سجادة الزهور الرائعة هذه، كانت هناك رائحة مُسكرة من شدة حلاوتها وكثافتها. وسمعنا أزيز النحل الإنجليزي المنزلي يُحلق في كل مكان حولنا. العديد من الأشجار التي مررنا تحتها انحنَتْ فروعها تحت وطأة الفاكهة، بعضها من أنواع مألوفة، والبقية أصناف أخرى غريبة. راقبنا أيها تأكله الطيور وهكذا استطعنا تجنب الفواكه السامة، ملأنا احتياطي الطعام لدينا بمجموعة جديدة متنوعة ولذيذة. في أثناء مشينا في الغابة رأينا العديد من المسارات الواضحة التي خلفتها الحيوانات البرية، وفي الأماكن الأكثر طينيةً رأينا وفرة من آثار الأقدام الغريبة، بما في ذلك العديد من آثار الإغوانودون.

في إحدى المرات رصدنا قطيعًا من الإغوانودون يرعى، رصد اللورد (چون) بمنظاره الْمُقرب علاماتٍ من القار عليها، والتي كانت في أماكن مختلفة في جسدها عن تلك التي درسناها صباحًا. لا يُمكننا تصور ما تعنيه هذه الظاهرة.

رأينا العديد من الحيوانات الصغيرة، مثل القنفذ، وآكل النمل، وخنزير بري أبقع له أنياب مُنحنية طويلة. مرة، ومن خلال فرجة في الأشجار، رأينا أطلال تلٍّ أخضر على بُعد مسافة منا، رأينا حيوانًا رماديَّ اللون يتحرك عبره بوتيرة سريعة. لقد مَرَّ بسرعة أعجزتنا عن تحديد ماهيته، لكن لو أنه غزال، كما يدعي اللورد (چون)، فيجب أن يكون كبيرًا مثل تلك الأيائل الأيرلندية الوحشية التي لا تزال حفرياتها تظهر من وقت لآخر في مستنقعات بلادي.

منذ تلك الزيارة الغامضة التي تعرض لها مُخيمنا، ونحن نعود إليه دائمًا مُحمَّلين بالهواجس. ومع ذلك لم يحدث شيء غير اعتيادي هذه المرة. في المساء تناقشنا باستفاضة عن وضعنا الحالي وخططنا المستقبلية، والتي يجب عليَّ وصفها بإسهاب؛ لأنها مكنتنا من الحصول على معلومات أكثر قيمة عن أراضي (مابل وايت) مما قد يأتي من أسابيع عديدة من الاستكشاف. (سمرلي) هو من بدأ النقاش، طوال اليوم وهو مُتوجِّس ومتخوِّف، وبعد حديث اللورد (چون) عما يجب فعله في الغد ضاقت به الأرض بما رحبت. قال:

- ما يجب علينا فِعْلُه يومًا بعد يوم، طوال الوقت، هو إيجاد طريقة للخروج من الفَخِّ الذي سقطنا فيه. أنتم جميعًا تفكرون في كيفية التوغل في هذا البلد. أما أنا فأفكر في كيفية الخروج منه.

قال (تشالنچر) مُتعجبًا، يُمشط لحيته:

- أنا مندهش يا سيدي، أي رجل من رجال العلم يجدر به منع هذه المشاعر من التحكُّم به. هذه أرض خصبة تقدم كمًّا هائلًا من المعلومات والمعرفة عن الطبيعة منذ بدء العالم كما لم يحدث في أي مكان

من قبل، وأنتَ تقترح تركها ببساطة قبل الإلمام بمعرفتها ومحتوياتها. لقد خاب ظني بك أيها البروفيسور (سمرلي).

قال (سمرلي) بانزعاجٍ واضح:

- يجب عليك التذكُّر، أن لديَّ فصلًا كبيرًا في لندن وطلابه في الوقت الحاضر تحت رحمة أستاذ بديل. هذا يجعل وضعي مختلفًا عن وضعك يا بروفيسور (تشالنجر)، بما أنك، على حد علمي، لم يُعْهَدْ إليك بأي مسئولية تعليمية.

قال (تشالنجر):

- بالضبط، لقد شعرتُ بأن توجيه الدماغ الذي هو قادر على القيام بأعلى البحوث العلمية إلى شيء أقل قيمة لهو تدنيس لقدسية العقل. ولهذا السبب رفضتُ بقوة أي مسئولية تعليمية قُدِّمَت لي.

سأله (سمرلي) بلهجة ساخرة:

- على سبيل المثال؟

لكن اللورد (چون) حرص على وأْد هذه المحادثة في مهدها. وقال:

- إنه لأمر مؤسِف، العودة إلى لندن قبل معرفة المزيد عن هذا المكان.

تحدثتُ قائلًا:

- إنني لا أجرؤ على العودة إلى ذلك المكتب الخلفي في مبنى صحيفتي ومواجهة مكاردل العجوز. (هلا عذرتني يا سيدي عن إهمالي في كتابة هذا التقرير؟). لن يسامحني أبدًا على ترك هذه المعلومات القيمة خلفي. إلى جانب هذا، بقدر ما أستطيع الرؤية، فهذا موضوع لا يستحق المناقشة؛ لأننا لا نستطيع النزول من هنا، حتى لو أردنا.

قال (تشالنجر):

- صديقنا الشاب يُعوِّض العديد من ثغراته الفكرية الواضحة عن طريق ما تُمليه عليه غريزته وحسه البدائي، إن مصالح مهنته اليائسة لا تُهمنا؛ ولكن -كما قال- لا يمكننا النزول على أي حال؛ لذلك فمناقشة الأمر مضيعة للطاقة.

هدر (سمرلي) بصوت غليظ وهو يدخن غليونه:

- بل فعل أي شيء آخر مضيعة للطاقة، اسمحوا لي أن أذكركم بأننا جئنا إلى هنا في مهمة محددة تمامًا، عُهِد إلينا بها في اجتماع معهد علم الحيوان في لندن. وكانت تلك المهمة هي اختبار حقيقة أقوال البروفيسور (تشالنجر). هذه الأقوال، لا بُدَّ لي من الاعتراف بأننا الآن في وضع يسمح لنا بتأييدها؛ ولذلك فإن عملنا الظاهري قد انتهى. أما فيما يتعلق بالتفاصيل التي يتعين التعامل معها على هذه الهضبة، فهي هائلة بحيث إن رحلة استكشافية كبيرة فقط، مع معدات خاصة جدًّا، يمكنها أن تتعامل معها. وإذا حاولنا فعل ذلك بأنفسنا، ستكون النتيجة الوحيدة المؤكدة أننا لن نعود أبدًا مع كم

المعرفة العلمية التي اكتسبناها بالفعل. لقد ابتكر البروفيسور (تشالنچر) وسائل للوصول بنا إلى هذه الهضبة عندما بدا أنه لا يمكن الوصول إليها؛ أظن أنه ينبغي لنا الآن دعوته إلى استخدام براعته في إعادتنا إلى العالم الذي أتينا منه.

أعترف بأنه عندما ذكر (سمرلي) وجهة نظره بَدَتْ لي معقولة تمامًا. حتى (تشالنچر) تأثر بفكرة أنَّ أعداءه لن يقفوا مكتوفي الأيدي إذا لم يصل قريبًا تأكيد بأقواله المشكوك فيها. وقال:

- إن مشكلة الهبوط من هنا، تبدو من النظرة الأولى مشكلة هائلة. لكنني لا أشك في أن بعض الذكاء والحيلة يستطيعانِ حلَّها. إنني مستعد للاتفاق مع زميلنا على أن إطالة الإقامة في هذه الأراضي أمر لا يُنصح به، قريبًا سيتعين علينا مواجهة مشكلة العودة. ومع ذلك، أرفض تمامًا المغادرة حتى نقوم -على الأقل- بفحص سطحي لهذا البلد، ونتمكن من عمل رسم تخطيطي له.

أخرج البروفيسور (سمرلي) شخيرًا يدل على نفادِ صبْرِه وقال:

- لقد أمضينا يومين طويلين في الاستكشاف، لم نصبح أكثر حِكْمة الآن فيما يتعلق بالجغرافيا الفعلية للمكان مما كنا عليه عندما بدأنا. من الواضح أن المكان كله ممتلئ بالأشجار الكثيفة، والتي ستستغرق شهورًا لاختراقها، وتعلم علاقة كل جزء من المنطقة بالآخر. لو كان هناك جزء مركزي مرتفع عن الهضبة لاختلف الأمر، لكنها آخذة في الانحدار إلى أسفل، وكما هو واضح كلما ابتعدنا قَلَّ احتمال حصولنا على نظرة عامة للمنطقة.

في تلك اللحظة رشفتُ من رحيق الإلهام. لمحت عيناي الضوء الساقط على الجذع الهائل لشجرة الجنكو التي أسدلت فروعها الضخمة فوقنا. إذا كان جذعها أكبر من الباقين فبالتأكيد ستكون أطول منهم. بما أن هذه الهضبة في الواقع هي أعلى نقطة، فلربما تصلُح هذه الشجرة الجبارة بُرجًا للمراقبة يُطل على البلاد كلها، أليس كذلك؟ منذ صِغري لما كنتُ أركض في برية أيرلندا، وأنا متسلق أشجار جريء وماهر. قد يكون رفاقي أفضل مني على الأرض، لكنني أعرف أنني سأكون الأفضل بينهم فوق الأغصان. لو أمكنني فقط وضع قدمي على بعض الفروع القريبة، ربما يمكن الاستعانة بصناديق الذخيرة. في الواقع سيكون أمرًا غريبًا، إذا لم أتمكن من شق طريقي إلى القمة. ألفيتُ رفاقي سعداء بفكرتي.

قال (تشالنچر) وهو يُداعب خدَّيْه المحمرين:

- صديقنا الشاب قادر على الإتيان بحركات بهلوانية، مستحيلة لرجل أكبر سِنًّا. إن اقتراحه يدل على روحه القيادية وإنني أحيي قراره.

قال اللورد (چون) وهو يربتُ على ظهري:

- بحق القديس جورج، أيها الشاب، لقد وجدتها! لِمَ لَمْ نصل إلى هذه الفكرة قبلًا؟ لا أستطيع التخيل! لم يتبقَّ سوى ساعة من ضوء النهار، خُذ دفتر ملاحظاتك معك، لربما تستطيع رسم بعض الرسوم التقريبية للمكان. سنضع صناديق الذخائر الثلاث تحت هذه الفرع، وسأساعدك على ارتقائها.

وقف اللورد (چون) على الصناديق بينما كنتَ قبالة الجذع، أخذ يرفعني بلطف ثم تقدم (تشالنچر) إلى الأمام وأعطاني دفعة كبيرة بيده الضخمة بدا كأنه أطلقني إلى الشجرة -كأني عيار ناري- مشبكًا ذراعيه على فرعها. دفعتُ قدمي بقوة حتى استطعت رفع جسدي في البداية، ثم وضعتُ ركبتي على الأغصان. كانت هناك فوق رأسي ثلاثة أغصان ممتازة، مثل درجات سلم ضخمة، ومجموعة متشابكة من الفروع الثابتة وراءها؛ لذا تسلقتُ بسرعة كبيرة لدرجة أني فقدتُ رؤية الأرض، ولم أستطع رؤية أي شيء تحتي سوى أوراق الشجر.

بين الحين والآخر كنتُ أقف متفحصًا مساري، ثم أكمل تسلقي لمدة ثمانية أو عشرة أقدام، لقد حققتُ تقدمًا ممتازًا، تعالَى صوت (تشالنچر) لكنه بَدَا قَادِمًا من مسافة بعيدة أسفل مني. ومع ذلك، كانت الشجرة لا تزال هائلة، وبالنظر إلى الأعلى، عجزتُ عن رؤية أي ضوء مُتسَلِّل من خصاص الأوراق. وجدتُ كتلة سميكة تشبه الشجيرة، والتي يبدو أنها طفيلي ملتصق على الغصن الذي أمسكه. أدنيتُ رأسي منه لأرى ما وراءه، وكدتُ أسقط من فرط دهشتي ورعبي مما رأيته.

وجدتُ وجهًا يُحدِّق في وجهي، لا يبعد عني أكثر من قدم أو قدمين فقط، جَثَمَ المخلوق الذي يملكه خلف الطفيلي وبادَلَني النظر في ذات اللحظة التي نظرتُ إليه فيها. إنه وجه بشري -أو على الأقل أكثر إنسانية من أي قرد رأيته في حياتي- طويل الجذع، أبيض اللون، ومغطى بالبثور، أنفه مسطح، وفكُّه السفلي دقيق بارز، هنالك شُعيرات خشنة حول ذقنه. عيونه المستقرة أسفل زوج من الحواجب السميكة الثقيلة، لها نظرة بهيمية شرسة، فتح فمه مزمجرًا فخرج منه صوت يبدو كأنه لعنة ستصيبني، لاحظتُ أن لديه أسنانًا وأنيابًا منحنية وحادة. للحظة رأيتُ الكراهية والشر في عينيه. ثم، بأسرع ما يمكن، حَلَّ محلَّهم تعبير مِن الخوف الطاغي. تحطم الغصن وسقط الحطام بعنف إلى الأرض. بينما هرب هو وسط دوامة من الأوراق والفروع، لمحت جسده مُشْعرًا كأنه خنزير أحمر.

صاح (روكستون) من الأسفل:

- ماذا يحدث؟ هل حَدَثَ شيء لك؟

هتفتُ وذراعاي ملتفان حول الشجرة، وجُلُّ أعصابي مُرهفة:

- هل رأيت ذلك؟

- سمعنا صوتًا، وخُيِّل إلينا أن قدمك انزلقت. ما كان هذا؟

لقد صدمني هذا الظهور المفاجئ والغريب لرجل الغاب، لكنني ترددتُ بين النزول لأقصص تجربتي على رفاقي، الصعود. لكنني كنتُ في نقطة مرتفعة من الشجرة بالفعل، وبدا لي أنها إهانة لذاتي إذا تراجعتُ الآن.

بعد توقف طويل، التقطتُ أنفاسي واستعدتُ شجاعتي، واصلت صعودي. حَدَثَ مرة أن وضعتُ وزني على غصنٍ فاسد فتأرجح لبضع ثوانٍ وكدتُ أسقط، لكن خلاف هذا أضحى التسلُّق سهلًا. تدريجيًّا انحسرت الأوراق من حولي، وكنتُ على دراية، من الرياح التي تهب في وجهي، أني ارتقيتُ فوق كل أشجار الغابة. ومع ذلك، كنتُ مُصمِّمًا على عدم النظر حولي قبل الوصول إلى أعلى نقطة؛ لذا تسلقتُ حتى وصلت بعيدًا لدرجة أن الفرع العلوي بات مُنحنيًا تحت ثِقَلي. توقفتُ هناك

واستقريتَ على غَصْن مناسب، وجدتَ نفسي أتوازن بشكل آمن. الآن أصبح لديَّ مشهد بانورامي رائع لهذا البلد الغريب الذي وَجَدْنا أنفسنا فيه.

كانت الشمس تغرب، المساء يتقدم بوضوح، رأيتُ الهضبة كلها واقعة أسفل مني، واتضح لي من هذا الارتفاع، أنها ذات محيط بيضاوي، يبلغ طوله نحو ثلاثين ميلًا وعرضه نحو عشرين. شكلها العام هو شكل قمْع مقعر، تنحدر جميع جوانبه إلى بحيرة كبيرة في المركز. ربما يبلغ محيط هذه البحيرة عشرة أميال، بَدَتْ خضراء للغاية وجميلة في ضوء المساء، يُحد أطرافها حافة كثيفة من الخيزران، سطحها مكسو بالرمال الصفراء، التي تلمع كالذهب في أشعة شمس الغروب. هناك عدد من الأشياء الداكنة الطويلة، التي بَدَتْ كبيرة جدًّا لتكون تماسيح وأكبر من أن تكون زوارق، مكثت على هذه الحواف الرملية. استعملتُ منظاري الْمُقرب، عندها رأيتُ بوضوح أنها مخلوقات حية، ولكني عجزتُ عن تخيل ماهيتهم.

من جانب الهضبة التي قبعنا فيها، هناك منحدرات من الأدغال، تنتشر بها الفسح العرضية، تمتد لأسفل، مدة خمسة أو ستة أميال حتى البحيرة الوسطى. رأيتُ في الطرف الأقصى فسحة الإغوانودون، وأبعد منها فُرجة الأشجار التي ميزت مستنقع الزواحف المجنحة. أما على الجانب الآخر أظهرت الهضبة جانبًا مُغايرًا تمامًا. منحدرات بازلتية بركانية خرجت من جوف الأرض، لتشكل جرفًا يبلغ ارتفاعه نحو مئتي قدم، أسفل منه آخر شجري. على طول قاعدة المنحدرات الحمراء هذه، لمسافة فوق مستوى سطح الأرض، أمكنني رؤية عدد من الثقوب المظلمة بمساعدة المنظار، والتي توقعتُ أنها كهوف. في مدخل واحد منهم هناك شيء أبيض متلألئ، ولكني عجزتُ عن معرفة ما هو. جلستُ أرسم تضاريس هذا البلد حتى أدركني الغروب، أمسى الظلام دامسًا لدرجة أعجزتني عن تمييز التفاصيل. بدأت رحلة النزول للأسفل حيث رفاقي الذين ينتظرونني بشغفٍ عند جذع الشجرة العظيمة. وحدي فكرت في هذا، وحدي قُمت به؛ وفي يدي يوجد الرسم الذي من شأنه توفير شهور من التخبط الأعمى بين المخاطر غير المعروفة. لما نزلتُ أخيرًا صافحني كل واحد منهم على حِدَة، مصافحة رسمية باليد. ولكن قبل أن يناقشوا تفاصيل خريطتي، كان على أخبارهم عن لقائي مع إنسان الغاب الذي وجدتُه بين الفروع. قلتُ:

- لقد مكث هناك طوال الوقت.

سألني اللورد (چون):

- كيف تعرف هذا؟

- لأنه لم يغادرني ولو للحظة واحدة ذلك الشعور بأنَّ شيئًا ما يحدق فينا ويراقبنا. لقد سبق وذكرتُ هذا للبروفيسور (تشالنچر).

- لقد قال صديقنا الشاب شيئًا من هذا القبيل بالفعل. يبدو أنه يتمتع بحاسة سادسة تجعله حسَّاسًا لمثل هذه الأشياء.

قال (سمرلي):

- نظرية التخاطر. ثم شرع يحشو غليونه.

قال (تشالنچر) بجدية:

- الموضوع عميق للغاية ولا يُمكن مناقشته الآن.

سكت قليلًا ثم بدأ يسألني كأنه رجل دين يختبر طفلًا صغيرًا:

- هل كان هذا المخلوق يضع إبهامه على راحة يده؟

- لا، في الواقع لم ألاحظ.

- هل له ذيل؟

- لا.

- هل كانت أقدامه مُتمسكة بالأغصان؟

- لا أظن أن بإمكانه الانطلاق بهذه السرعة بين الفروع إذا لم يتمكن من السيطرة على قدميه.

- هناك في أمريكا الجنوبية -إن لم تخُنِّي ذاكرتي، سوف يؤكد البروفيسور (سمرلي) كلامي- نحو ستة وثلاثين نوعًا من القرود، لكن قرد الأنثروبويد(81) غير معروف. ومع ذلك، فمن الواضح أنه موجود في هذا البلد، إنه ليس من النوع المشعِر الشبيه بالغوريلا، الذي لا يُرى أبدًا خارج أفريقيا أو الشرق. (كنت أميل إلى الظن وأنا أنظر إليه، بأنني رأيت ابن عمه الأول في كنسينغتون). هذا نوع ذو جلد باهت عديم اللون، تُشير خصائصه التي وقفنا عليها مؤخرًا إلى حقيقة أنه يقضي أيامه في عُزْلَة شجرية. السؤال الذي يجب طرحُه: هل هو أقرب للقرد أم للرجل؟ إذا كانت الحالة الأخيرة هي الإجابة فنحن أمام ما يسميه العامة (الحلقة المفقودة). إنَّ حَلَّ هذه المشكلة هو واجبنا الفوري.

قاطع (سمرلي) الكلام فجأةً وقال:

- إنه ليس شيئًا من هذا القبيل. الآن، من خلال ذكاء ونشاط السيد مالون (لا يسعني إلا الاقتباس من الكلمات)، لقد حصلنا على رسمنا التخطيطي، واجبنا الفوري الوحيد هو الخروج بأنفسنا آمِنين وسالِمِين من هذا المكان الفظيع.

قال (تشالنچر) مُتأوِّهًا:

- يا لعلماء الحضارة المدللين.

- بل العلماء المنطقيون يا سيدي. مهمتنا هي تسجيل ما رأيناه، وترك المزيد من الاستكشاف للآخرين. هذا ما وافقتم عليه جميعًا قبل حصول السيد مالون على الرسومات.

قال (تشالنچر):

- حسنًا، أعترف بأن ذهني سيكون أكثر صفاءً عندما أكون على يقين من أن نتيجة بعثتنا قد نُقِلت إلى أصدقائنا. على كُلٍّ، كيف سنهبط من هذا المكان، ليس لديَّ أدنى فكرة عن هذا. ومع ذلك لم أواجه أي مشكلة بعد، عجز دماغي الابتكاري عن حَلِّها، أعدكم بأنني سأحول انتباهي كاملًا إلى مشكلة هبوطنا.

وهكذا انتهى النقاش، ولكن في ذلك المساء، وعلى ضوء شمعة واحدة، وضعت أول خريطة للعالم المفقود. كل التفاصيل التي دوَّنتها من برج المراقبة رُسِمَتْ في مكانها النسبي. حام قلم (تشالنچر) فوق بقعة فارغة كبيرة اتفقنا أنها البحيرة. سألنا:

- ماذا نُسميها؟

قال (سمرلي) بطريقته الساخرة:

- بالطبع، تريد استغلال الفرصة لتخلد اسمك؟

قال (تشالنچر) بعصبية:

- أنا على ثقة يا سيدي، أن اسمي سيخلد عن طريق اكتشافات أخرى على مدار الأجيال المقبلة، أي جاهل يمكنه تخليد ذكراه عديمة القيمة بوضع اسمه على جبل أو نهر. لا أحتاج إلى مثل هذا النُّصُب التذكاري.

كان (سمرلي) الذي على وجهه ابتسامة ملتوية، على وشك القيام بهجمة مرتدة عندما عجل اللورد (چون) بالتدخل. قائلًا:

- إن الأمر متروك لك أيها الشاب لتسمية البحيرة، لقد رأيتها أولًا، وبحق القديس جورج، إذا اخترت تسميتها (بحيرة مالون) فلا أحد يقدر على الاعتراض.

- بكل سرور. دعْ صديقنا الشاب يُسميها.

قلتُ وقد تخضبت وجنتاي بحمرة الخجل، سأكون جريئًا وأقولها ثانية، كما قلتها لهم:

- فليكن اسمها بحيرة جلاديس.

قال (سمرلي):

- ألا تظن أن اسم (البحيرة المركزية) سيكون دقيقًا أكثر؟

- إنني أُفَضِّل بحيرة جلاديس.

نظر إليَّ (تشالنچر) بتعاطُف، وهَزَّ رأسه العظيم في رفضٍ وقال:

- حقًّا سيظل الأطفال أطفالًا! إذن هي بحيرة جلاديس، فليكن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

أمسى الوضع مريعًا في الغابة

حدثتُ نفسي، وربما لم أفعل لأن ذاكرتي تحتال عليَّ بطريقةٍ حزينةٍ هذه الأيام. قائلًا: إن وجهي أشرق لما شعرتُ بالفخر، عندما شكرني ثلاثة رجال مثل رفاقي على إنقاذ الموقف أو على الأقل لأني ساعدتُ بشدة. على الرغم من كوني الأصغر وليس فقط من حيث العمر فإنما أيضًا في الخبرة والشخصية والمعرفة، وفي أي شيء من شأنه صُنع رجل, إلا أنني كنتُ بارزًا للغاية منذ البداية.

وها أنا ذا عائد وحيدًا. تحمستُ للغاية بينما كنتُ أتفكر. واحسرتاه! على الفخر الذي يتبخر قبل الانهيار! ذلك الوهج الخافت من الرضا عن النفس، هذا المعيار الإضافي من الثقة بالنفس على وشك قيادتي تلك الليلة بالذات إلى التجرِبة الأكثر رعبًا في حياتي، والتي انتهت بصدمة تجعل قلبي ينقبض كلما فكرتُ فيها.

قِصَّتنا تبدأ على النحو الآتي؛ لقد كنتُ متحمسًا للغاية لتلك المغامرة التي تسلقتُ فيها الشجرة، وبدا النوم كحلم مستحيل. هذا دور (سمرلي) في الحراسة، ألقيتُ عليه نظرة فوجدته، جالسًا مُنحنيًا قُبالة نارنا الصغيرة. واضعًا بندقيته على ركبتيه متخذًا تلك الهيئة المتأهبة الغريبة، كانت لحيته المدببة -التي تُشبه لُحى الماعز- تهتز مع كل إيماءة مرهقة برأسه. استلقى اللورد (چون) بهدوء، متلحفًا بمعطفه الأمريكي الجنوبي الذي يرتديه، أما (تشالنچر) فغاص في نوم عميق، وأخذ يُشخر بصوت يُشبه الخشخشة، تردَّد صداه عبر الغابة. اعتلى القمر السماء، مكتملًا، يُشع بريقه وسط النجوم، هب الهواء محملًا ببرودةٍ شديدة، يا لها من ليلة تصلح للنزهة!

على حين غِرَّة تسلَّلت تلك الفكرة إلى عقلي، وسرعان ما سيطرت عليه. لِمَ لا؟ لنفترض أني تسللتُ بعيدًا بهدوء، لنفترض أني شققتُ طريقي نحو البحيرة المركزية، لنفترض أنني عدتُ في وقت الإفطار بعد أن تفحصتُ المكان قليلًا. في هذه الحالة، ألن أكون رفيقًا أكثر جدارةً؟ فيما يلي، لو قادنا (سمرلي) للعثور على سبيل للهرب، سيتعين علينا العودة إلى لندن وقد اطلعنا بشكل مباشر على لغز التلة الأساسي، وحينها سأكون الوحيد من بين كل الرجال الذي سبر أغواره. فكرتُ في (جلاديس) وهي تُردِّد مقولتها «هنالك بطولات في كل مكان حولنا» بدا لي وكأنني أسمع صوتها في التو واللحظة، فكرتُ كذلك في (مكاردل). يا لها من مقالة من ثلاثة أعمدة للصحيفة! يا لها من بداية لمسيرتي المهنية كوني مراسلًا! حينئذٍ ستكون كل الحرب العظمى الْمُقْبِلة في متناول يدي، أخذت مسدسًا وملأتُ جيوبي بالخراطيش، تسللت بخفية من بين الشجيرات الشائكة الواقعة عند مدخل المعسكر. بنظرة خاطفة سريعة لمحت (سمرلي) وقد غاب عن الوعي، أغلب الذين يقضون نوبات الحراسة لا طائل منهم، سوى هز رءوسهم -مثل الألعاب الميكانيكية- أمام النيران المشتعلة.

لم أكد أبتعد لمسافة مئة ياردة، حتى ندمتُ بشدة على اندفاعي. لربما ذكرتُ سابقًا خلال سردي للأحداث أنه من الخيال كوني رجلًا شجاعًا بحق، بينما في الواقع يتملكني خوف شديد من الظهور بمظهر الخائف أو الجبان، كانت تلك هي القوة التي تحملني الآن على الْمُضِيِّ قُدُمًا. بكل بساطة لم أستطع العودة أدراجي دون فِعْل أي شيء، حتى لو لم يلاحظ رفاقي غيابي، فيجب ألا يعلموا أبدًا

نقطة ضعفي، وإلا سيظل قابعًا في نفسي شعور لا يُطاق بالعار. ومع كل ذلك وجدتني أرتجفَ من هول الموقف الذي وجدتُ نفسي فيه، وكنتُ على استعداد لأعطي كل ما أملكه في تلك اللحظة لأتخلص بشرف من تلك المسألة بأكملها.

أمسى الوضع مريعًا في الغابة، نَمَتِ الأشجار بكثافة شديدة وانتشرت أوراقها على نحو واسع حتى إنني عجزتُ عن رؤية أيٍّ من ضوء القمر، اللهم إلا النذر اليسير الذي انسَلَّ من بين تلك الأغصان الطويلة الممتدة المتشابكة هنا وهناك التي شكَّلت تعريشة مُتشابكة قُبالة السماء المرصعة بالنجوم. لما اعتادت عيناي على الظُّلمة أدركتُ وجود درجات مختلفة من الظلام بين الأشجار، بعضها أضحى مرئيًّا بالكاد، بينما امتدت بقع شديدة السواد كالفحم بين جنبات تلك الأشجار أشبه ما يكون بأفواه الكهوف، انكمشتُ رعبًا وأنا أعبر خلالها. لا أعلم لِمَ فكرتُ في تلك الصرخة اليائسة التي أطلقتها وحوش الإغواندون المعذبون، تلك الصرخة المريعة التي تردَّد صداها عبر الغابة، فكرتُ أيضًا في تلك النظرة الخاطفة التي لمحتها سريعًا على ضوء شعلة اللورد (چون)،حيث ظهر خطم حيوان غريب منتفخ ممتلئ بالثآليل وملطخ بالدماء. على الرغم من كوني الآن ضمن نطاق صيد ذلك الوحش المجهول المرعب الذي قد يثب عليَّ من بين الظلال في أية لحظة فإنني توقفتُ ثم التقطتُ خرطوشة من جيبي وفتحت مؤخرة سلاحي، ولكن حينما لمست ذراع البندقية فوت قلبي عدة ضربات. لقد أخذت بندقية صيد الطيور بدلًا من تلك الخاصة بالوحوش.

مرة أخرى تضخمت داخلي دوافع الانسحاب، باتَ لديَّ الآن وبكل تأكيد مبرر دامغ لفشلي، سبب كافٍ لئلَّا ينتقص مني أي شخص، ولكن مرة أخرى حارب كبريائي الأحمق ضد هذه الكلمة بالذات. لا أستطيع -بل لا يجب- أن أفشل. بعد كل شيء على الأرجح لم تكن بندقية صيد الوحوش لتكون ذات فائدة ترجى، تمامًا مثل بندقية الطيور التي أمسكها في مواجهة الخطر الذي قد أواجهه. لو أني عدتُ أدراجي نحو المخيم لتبديل سلاحي فلا أتوقع أن أدخل وأخرج مرة أخرى دون افتضاح أمري، وحينئذٍ سيكون هنالك العديد من التفسيرات لتقديمها ولن يؤول الفضل في تلك المحاولة لي وحْدِي. عند هذا الحد تخاذلت شجاعتي وأكملتُ طريقي وسلاحي عديم الفائدة تحت ذراعي.

إنَّ ظلام الغابة يُنذر بخطر محدق، لكن بياضها أسوأ وأشد خطورة، ما زال ضوء القمر ينساب في فُسحة ديناصورات الإغواندون المفتوحة. اختبأتُ بين الشُّجيرات مراقبًا إيَّاها، لكن لم يكن هنالك أي وجود لتلك الوحوش العظيمة، لربما جعلها الحدث المأساوي الذي حاق بإحداها تبتعد عن أرض الصيد خاصتها. في هذه الليلة الفضية الضبابية لم أرَ أي علامة على وجود كائن حي، مرقتُ بسرعة خلال الأدغال وعلى الجانب البعيد أمكنني رؤية النهر مرة أخرى وقد اتخذتُ منه مرشدًا. هذا النهر يصلح رفيقًا مُبهجًا، يُقهقه ويقرقر في أثناء سريانه، ذكرني بذلك الجدول الصغير العزيز في غرب البلاد، حيث اعتدتُ الصيد ليلًا في طفولتي. طالما أني أسير بمحاذاته نازلًا فسوف أصل إلى البحيرة، وعند عودتي سأتبعه عائدًا أدراجي إلى المخيم. في بعض الأحيان غاب النهر عن بصري بسبب شُجيرات الغابة المتشابكة التي تحجب عني الرؤية، لكنه دائم الحضور في حواسي الأخرى بسبب رنين مياهه وتناثرها.

في أثناء تعمُّقي في المنحدر نازلًا لأسفل أصبحت الأشجار أرق، وأخذت الأشجار العالية الْمُترامية تحل محلَّ الدغل شيئًا فشيئًا. وهو ما ساعدني على التقدم بشكل جيد، بالإضافة إلى أنها أكسبتني مخبأ

يمكنني مراقبة الأجواء منه من غير أن يراني شيء ما. مررتَ قريبًا من مستنقع الزواحف المجنحة وبينما أنا على هذه الشاكلة برز أحد تلك المخلوقات العظيمة من مكان ما بالقرب مني -يبلغ عشرين قدمًا على الأقل من أوله لآخر أطرافه- وحلق في السماء بينما تُجلجل أجنحته الجافة المجعدة الجلدية في الهواء. في أثناء مروره على وجه القمر، سطع ضوءه متلألئًا بكل وضوح خلال أجنحته الغشائية. بدا وكأنه هيكل عظمي يُحلِّق أمام شعاع الضوء الأبيض المداري. سرتُ منخفضًا بين الشُّجيرات، وذاك لأني أعلم من تجربةٍ سابقة أنه بصرخة واحدة من ذلك المخلوق يمكنه جمع المئات من رفاقه البغيضين حولي. على كلٍّ بعد استقرار ذلك المخلوق مرة أخرى تجرأتُ وتابعتُ رحلتي من جديد.

لما بدأتُ رحلتي ألفيتُ الليل ساكنًا للغاية، ولكن مع توغُّلي أكثر رصدتُ صوت همهمة منخفض، عميق ومستمر، وكلما تقدمتُ أكثر أصبح الصوت أعلى فأعلى حتى أصبح أخيرًا على مقرُبة مِنِّي، على نحوٍ واضح وكبير، نهضتُ واقفًا، لا يزال الصوت ثابتًا لم يحدث فيه تغيير؛ لذا بدا لي آتيًا من مصدرٍ ساكنٍ غير متحرك، إنه أشبه بصوت غليان أو صوت فقاعات تتصاعد من إناءٍ كبير. لاحقًا وصلتُ إلى مصدر الصوت. في وسط مساحة صغيرة عثرتُ على بحيرة، أو بالأحرى على بركة صغيرة تُشبه حمام السباحة؛ لأنها على الأرجح لم تَتَخَطَّ في حجمها حوض النافورة في ميدان (ترافالجار). سطحها مُكوَّن من مادة سوداء تُشبه القار، ترتفع وتهوي على هيئة فقاعات غازية متفجرة. كان الهواء أعلاها مُتلألئًا شديد الحرارة، وكانت اليابسة حولها ساخنة للغاية حتى إنني لم أقدر على تحسُّسها بيدي. من الواضح أن الثوران البركاني العظيم الذي شكَّل هذه الهضبة منذ سنين عديدة لم يستنفد قوته كاملة بعد. بالفعل رأيتُ صخورًا سوداء وأكوامًا من الحمم البركانية تتلألأ متسربةً بين النباتات وافرة النماء التي غمرتها. لكن بركة القار الكامنة في الأدغال تُعَدُّ العلامة الأولى على وجود نشاط حقيقي عند سفوح الفوهة البركانية القديمة. لم يكن لديَّ مُتسع من الوقت لفحصها كما ينبغي، لقد كنتُ في حاجة للإسراع طالما أني أريد العودة إلى المخيم بحلول الصباح.

لقد كانت جولة مروعة ستظل عالِقة في ذاكرتي لأطول فترة مُمكنة. على ضوء القمر العظيم تسللتُ بين الظلال الواقعة على أطراف الغابة، ظللتُ أزحف مُتقدِّمًا، كنتُ أتوقف وقلبي يخفق بشدة كلما سمعتُ صوت تحطم الأغصان وكلما مَرَّ أحد وحوش البرية عليها أو مررتُ عليها. بين الحين والآخر تلوح ظلال كبيرة في الأق للحظة ثم تختفي. بَدَتْ هذه الظلال كبيرة، ساكنة كأنها تتجول على أقدام مُبطنة. على أي حالٍ كلما توقفتُ وهممتُ بالعودة، غلب كبريائي خوفي في كل مرة، أرسلني مجددًا لتحقيق أهدافي.

في النهاية (أظهرت ساعتي أنها الواحدة صباحًا) رأيتُ بريق المياه وسط فُتحات الأدغال، وبعد مرور عشر دقائق أصبحتُ بين حزم الحشائش الطويلة الواقعة على حدود البحرية المركزية. شعرتُ بجفافٍ شديد؛ لذا جلستُ وأخذتُ شربة طويلة من مياه البحيرة الْمُنعشة الباردة. في هذه البقعة التي عثرت عليها يوجد ممر واسع به العديد من الآثار، من الواضح أنها واحدة من الأماكن التي يقصدها الحيوانات للسَّقْي. على حافة البحيرة هناك كتلة بركانية معزولة. تسلقتُ تلك الكتلة وجلستُ على قمتها مما أعطاني رؤية ممتازة للمكان من حولي.

غمرني الذهول من أول شيء وقعتْ عليه عيناي. عندما وصفتُ المشهد من قمة الشجرة العظيمة ذكرتُ أني رأيتُ العديد من البقع المظلمة على طول الجُرف الصخري البعيد وكأنها أفواه كهوفٍ.

لكن لما نظرتَ الآن إلى ذات الجرف رأيتَ أقراصًا من الضوء في كل اتجاه، بَدَتْ كأنها بُقع حمراء محددة، أو نوافذ سفن مُتراصةٍ في خط واحد وسط الظلام. لوهلة ظننتُ أنه توهج بعض الحمم البركانية الناتجة عن نشاط بركاني ما؛ لكن سرعان ما أدركتُ استحالة ظُنوني. مؤكد أن أي نشاط بركاني سيكون قابعًا في الأسفل حيث القاع، ولن يكون مرتفعًا هكذا بين الصخور. إذن ما هذه؟ لقد كانت رائعة. أقلها في تلك اللحظة. يجب أن تكون هذه البقع الحمراء انعكاسًا لنيران مشتعلة داخل الكهوف، هذه النيران لا يُمكن إشعالها إلا بفعل إنسان! إذن هنالك بشر، هنا على الهضبة. لكم كانت رحلتي مُثمرة! أصبحنا الآن نملك ما يكفي من الأخبار لنحملها معنا إلى لندن!

لمدة طويلة استلقيتُ مراقبًا تلك البقع الحمراء المرتعشة من الضوء. افترضتُ أنها تبعُد عني مسافة عشرة أميال تقريبًا، حتى من هذه المسافة يُمكن للمرء الملاحظة من وقت لآخر كيف تُومض أو تُحجب عندما يمر شخص أمامها. تُرَى ماذا سيحدث لو أمكنني الزحف إليهم حتى ألقي نظرة خاطفة، ومن ثم أعود لرفاقي مُحملًا ببعض المعلومات عن شكل وصفات العرق الذي يسكن هذا المكان الغريب؟! حتى اللحظة لم يكن هذا أمرًا واردًا. من المؤكد أننا لا نستطيع مغادرة الهضبة، حتى نحصل على بعض المعرفة الواضحة حول تلك النقطة.

بحيرة جلاديس- بحيرتي الخاصة- تمتد أمامي كرقاقة زئبقية، خاصة مع ضوء القمر البراق المنعكس على سطحها. كانت ضحلة وذاك لأني لمحتُ العديد من الكتل الرملية المنخفضة في أماكن مُتفرقة بارزه فوق سطح المياه. على سطحها الساكن أمكنني رؤية علامات تدل على وجود الحياة في كل مكان، أحيانًا أرى حلقات وتموجات في المياه، أو بريق سمكة ذي جوانب فضية كبيرة تلمع في الهواء، أو ظهر مقوس أردوازي اللون لوحش عابر. ذات مرةٍ رأيتُ مخلوقًا غريبًا وكأنه بجعة ضخمة ذات عنق طويل مرنٍ وجسد غير متزن يسير على الشاطئ الرملي الأصفر جارًّا قدميه بالقُرْب من حواف البحيرة. في الوقت الحالي قفز في الماء، ولبعض الوقت كنتُ قادرًا على متابعة رقبته المقوسة ورأسه التي تتحرك ذهابًا وإيابًا بينما يشق المياه حتى غطس بالكامل واختفى عن ناظري كُليةً. سرعان ما تشتت انتباهي بعيدًا عن هذه المشاهد القصية، وتوجه صوْب ما يحدث بالقُرْب مني. هبط مخلوقان يشبهان حيوان المدرع كبير الحجم ناحية منطقة الشرب، كانا يجلسان عند حافة الماء بينما ألسنتهما الطويلة المرنة تنطلق كالشرائط الحمراء للداخل والخارج بينما يلعقان المياه. هبط أيل ضخم تُزَيِّن رأسه قرون متفرعة، مخلوق رائع أبرز نفسه وكأنه ملك، يسير برفقة أُنثاه واثنين من صغاره، أخذ يشرب بجوار حيوانات المدرع التي أتت قبله. لا يُوجد أي أيل على ظهر الكرة الأرضية يُشبه ما رأيت، حتى الموظ أو أيائل الألك بالكاد يبلغ كتف ذلك المخلوق. حاليًّا أطلق الأيل سيلًا من الصرخات التحذيرية وابتعد هو وعائلته بين الحشائش الطويلة، بينما توجهت حيوانات المدرع للبحث عن ملجأ لتختبئ فيه، وافد جديد، حيوان أكثر وحشية آتٍ عبر الممر. لبرهة اعتراني شك مفاجئ، تُرَى أين شاهدتُ هذا الشكل الغريب قبلًا، هذا الظهر المقوس وهذه الأهداب المثلثة المنتشرة بطوله، الرأس الغريب القريب من الأرض الذي يشبه رأس الطيور. أتتني الذكرى طواعيةً، إنه الإستيجوصور، ذلك المخلوق بالذات دونه (مابل وايت) في كتاب رسوماته وهو أول شيء جذب انتباه (تشالنجر). إنه هنا من المحتمل أنه من السلالة التي واجهها الفنان الأمريكي. كانت الأرض ترتجُّ تحت ثقله الهائل، ودوى صوت ابتلاعه المياه خلال الليل الساكن عميقًا عاليًا. لخمس دقائق أمسى قريبًا للغاية من الصخرة التي مكثتُ أعلاها، لدرجة أنني لو مددتُ يدي خارجًا لأمكنني

لمس الأهداب المتموجة بشعة المنظر الكامنة على ظهره، بعدها ابتعد عني بثقل شديد حتى اختفى تدريجيًّا بين الصخور.

نظرتُ إلى ساعتي، رأيت أنها الثانية والنصف، إذن حان الوقت المناسب للعودة. لم تواجهني صعوبة في تحديد الاتجاه الذي يجب عليَّ سلكه للعودة، طالما أتتبع النهر الصغير الموجود على يساري والذي يبدأ من البحيرة المركزية. بدأتُ رحلتي مِن الصخرة التي كنتُ راقدًا عليها بروح معنوية عالية؛ وذلك لأني شعرتُ بأنني قمتُ بعمل جيد، سأعود إلى رفاقي بمجموعة لا بأس بها من الأخبار المثيرة. أبرزها بكل تأكيد منظر الكهوف الْمُتقدة والتي لا تدع مجالًا للشك بأن بعض الأعراق الكهفية يسكن فيها. ولكن إلى جانب هذا لديَّ القدرة على رواية تجربة البحيرة المركزية والشهادة بأنها كانت ممتلئة بالمخلوقات الغريبة، لقد رأيتُ العديد من أشكال الحياة البدائية والتي لم نواجه مثيلًا لها قط. في أثناء سيري تساءلتُ، إن قلة من الرجال حول العالم يمكنهم قضاء ليلة أكثر غرابة وأن يضيفوا أيضًا العديد من المعرفة للبشرية في سياقها.

شردتُ متفكرًا في هذه الأشياء التي جالَتْ بذهني وأنا سائر على المنحدر، وصلت لنقطة ما على ما أظن تقع في منتصف طريق العودة، عندما قطع حبل أفكاري ضوضاء غريبة آتية من خلفي. صوت مُنخفض ما بين الهدير والشخير، عميق ومخيف للغاية. مِنَ الواضح أن هنالك مخلوقًا غريبًا على مقرُبة مني. مع ذلك لم أستطع رؤية شيء، لكني تابعتُ مسيري بخطوات حثيثة. قطعتُ مسافة نصف ميل أو نحو ذلك عندما تردَّد ذلك الصوت عائدًا، إنه ما زال خلفي لكنه أعلى وأكثر رُعْبًا هذه المرة. غَزَا الذعر قلبي عندما أدركتُ أن هذا الوحش أيًّا كانت ماهيته يتتبعني. شعرتُ ببرودة تكتنفني وانتصب الشعر على مؤخرة عُنقي لما فكرتُ أن هذه الوحوش مزقت بعضها البعض لأشلاءٍ، كجزء من صراعهم الغريب من أجل البقاء. لكن أن ينقلبوا على الإنسان العصري، أن تتعقب الإنسان الْمُهيمن وتطارده وتصطاده، إنها فكرة صادِمة ومرعبة للغاية. عاد ذلك الوجه الملطخ بالدماء الذي رأيناه سابقًا على وهج شعلة اللورد چون وكأنها رؤية مرعبة من أعماق الجحيم، يحتل تفكيري. أصابت الرعدة جسدي، وأمست ركبتاي ترتجفان، توقفتُ، التفتُّ وأمعنتُ النظر في الطريق المضاء بنور القمر. ألفيتُ كل شيء هادئًا للغاية، كأني أشاهد منظرًا طبيعيًّا خلَّابًا، مساحات مفتوحة صبغها القمر بصبغة فضية، بقع سوداء من الشجيرات الصغيرة، عجزتُ عن رؤية أي شيء غير مألوف. ثم خرج من وسط السكون ذلك النعيق الخفيف المرعب المنذر بخطر وشيك، أعلى وأقرب من كُلِّ المرات السابقة. لم يعد هنالك شك، ثمة شيء يتبع أثري، ويقترب مني شيئًا فشيئًا في كُلِّ لحظة.

وقفت كرجل مشلول، مُحدِّقًا في الأرض التي اجتزتها. وفجأة رأيتُه. كانت هناك حركة بين الشُّجيرات الموجودة على الطرف البعيد من المساحة المفتوحة التي اجتزتها. ظِل مهول حرَّر نفسه ووثب عاليًا خلال ضوء القمر الصافي، قلتُ (وثب) عن عمدٍ؛ لأن ذلك الوحش يتحرك مثل الكنغر، كان يقفز للأعلى وللأمام في وضع مستقيم معتدِل على أرجله الخلفية القوية بينما ظلت أرجله الأمامية مثنية أمامه. إنه مهُول الحجم والقوة كفيل، لكن على الرغم من حجمه فإن تحركاته كانت رشيقة للغاية، لوهلة، عندما رأيت شكله، تمنيتُ لو أنه إغوانودون. مسالم كما أعلم، لكنني كنتُ جاهلًا، سرعان ما رأيت أنه مخلوق مختلف للغاية. عِوضًا عن المخلوق العشبي ذي الثلاثة أصابع والرأس الوديع الذي يشبه رءوس الغزلان، يمتلك هذا الوحش وجهًا عريضًا يُشبه العلجوم، مثل الذي أثار قلقنا في المخيم

سابقًا. أكدت لي صرخته الشرسة وقدرته الرهيبة على المطاردة أنه -وبكل تأكيد- أحد الديناصورات الهائلة آكلة اللحوم، وهو أكثر الوحوش التي وطِئت الأرض فظاعةً. يقفز هذا الوحش الضخم للأمام، ثم يهوى على أطرافه الأمامية واضعًا أنفه على الأرض كل عشرين ياردةً أو نحو ذلك، متتبعًا رائحتي. أحيانًا -للحظات قليلة- ضلَّ الطريق، ولكنه التقط الرائحة مرة أخرى، وقفز مسرعًا على الطريق الذي سلكته.

حتى في وقتي الحالي، ينضح جبيني بالعرق عندما أفكر في ذلك الكابوس. ما الذي كنتُ قادرًا على فعله؟ إن سلاح صيد الطيور عديم الفائدة قابع بين يدي. كيف يُمكن لذلك الشيء إسعافي؟ نظرتُ حولي يائسًا باحثًا عن صخرة أو شجرة، لكني كنتُ في غابة كثيفة لا يوجد بها على امتداد بصري ما هو أكثر ارتفاعًا من شُجيرة صغيرة، كنت على يقين أن ذلك المخلوق الذي يتتبعني باستطاعته إسقاط شجرة عادية وكأنها عود خيزران هش.

إن الهروبَ هو فُرصتي الوحيدة الممكنة للنجاة. لم أستطع التحرُّك بسرعة فوق الأرض الوعرة، لكن عندما نظرتُ حولي يائسًا رأيتُ طريقًا محددًا ممتدًّا أمامي. شعرتُ بحلقي يوشك على الانفجار بسبب نقص الهواء، ومع ذلك بسبب الهول الكامن ورائي، ركضتُ، وركضت، وركضت.

أوقفني التَّعَب، بالكاد كنتُ قادرًا على الحركة. للحظة ظننتُ أني تخلصتُ منه. أمسى الطريق خلفي خاليًا، ثم سمعتُ فجأةً صوت تحطم الأغصان، ودوى أقدام عملاقة، شهيق رئتي الوحش. إنه قاب قوسين أو أدنى مني. عند هذا الحد فقدتُ عقلي ورحتُ أركض كالمجنون. مجرد وقوفي لألتقط أنفاسي يُعَدُّ ضربًا من الجنون، حتى هذه اللحظة ما زال الوحش يقتفي أثري، بيد أن حركته كانت بطيئة. لما وقفتُ رآني، وانتقلت المطاردة لتصبح بصرية بدلًا من الشم، لم يُساعدني الطريق، وبات عالِمًا إلى أين ذهبتُ بالضبط.

انحنى الطريق ومعه مسار المطاردة، عندما اقترب من المنحنى، رأيته يُهرول بسرعة عالية، أضاء القمر كل شيء، أمكنني رؤية عينيه الهائلتين، أسنانه الضخمة في فمه المفتوح، والمخالب اللامعة على ساعديه القصيرين القويين. صرختُ رعبًا وكاد قلبي يثب خارجًا من صدري، بينما استمررتُ في الهرب. بَدَتْ أنفاس المخلوق المشعر قريبة مني أكثر من أي وقت مَضَى، تعالَتْ ضربات قدميه الثقيلة بجانبي، كنتُ أتوقع في أي لحظة الشعور بقبضته تُمزق ظهري. ثم فجأة اختفى كل شيء، وشعرتُ بنفسي أسقط في الفضاء، لم يبقَ إلا الظلام.

فتحتُ عيني، بدأ الظلام ينجلي قليلًا، يبدو أنني فقدتُ وعيي، وعلى ما أظن لم أفقده إلا لبضع دقائق. أول ما لاحظته كانت الرائحة البشعة الثقيلة التي تملأ المكان، حاولتُ تحسُّس الموجودات حولي، وقعتْ يدي على شيء بَدَا من ملمسه أنه كتلة ضخمة من اللحم، في حين لمست يدي الأخرى عظمة كبيرة. فوقي تمامًا هناك دائرة ممتلئة بالنجوم، تبينتُ منها أني مستلقٍ في قاع حفرة عميقة. ببُطء، وبطريقة مترنِّحة حاولتُ الوقوف على قدمي، شعرتُ بالآلام تغزو جسدي. لكن لحسن حَظِّي لم يكن هنالك طرف في جسدي لا يتحرك، أو مفصل لا ينحني. بدأ عقلي يستعيد ما حدث وحينها أدركتُ أني سقطتُ في البئر في أثناء هروبي. رفعتُ عيني ناظرًا برعب، متوقعًا رؤية رأس الوحش المرعب تُظلِّلها النجوم. لكني لم أجد أي علامة تدل عليه، كما لم أسمع أي أصوات غريبة آتية من الأعلى.

بدأت المشي متروياً، أستشعر ما حولي في كل اتجاه لمعرفة كنه هذا المكان الغريب، الذي دلفته في الوقت المناسب.

كما قلت، إنه حفرة، جُدرانها منحدرة بشكل حادّ، وطولها يُقارب العشرين قدمًا. قاعها ممتلئ بكتل لحم كبيرة الحجم، معظمها في حالة مُتقدمة من التعفن مما جعل الجو سامًّا وفظيعًا. تعثرتُ مرارًا بهذه الكتل العفنة، فجأة صدمني شيء صلب، ارتأيتُ أنه عمود قائم مُثبت بإحكام في وسط الحفرة. بلغ طوله الحدَّ الذي أعجزني عن الوصول إلى قمته بيدي، وبدا أنه مغطى بالشحم.

فجأة تذكرتُ عُلب الكبريت التي أملكها في جيبي. أشعلتُ واحدًا منها، سقط نوره على الحفرة مُضيئًا إيَّاها، على هذا الوهج المتذبذب كونتُ فكرة عامة عن المكان الذي أنا فيه. لا يوجد شك فيما أقوله. هذا فخٌّ صنعه إنسان، طول العمود تسعة أقدام، ويبدو أن طرفه العلوي مشحوذ، لونُه أسود بسبب بقايا الدم المتجلط الخاص بالمخلوقات التي وقعت عليه. هذه البقايا المتناثرة حولي تعود للضحايا، لقد قُطعت وأنزلت عن العمود يدويًّا حتى يُصبح الفخ جاهزًا للضحية التالية. تذكرتُ قول (تشالنچر) بأن البشر لا يمكنهم العيش على الهضبة؛ لأنهم لا يقدرون على مجابهة الوحوش المهيمنة على الهضبة بأسلحتهم الضعيفة. لكن الآن، باتَ واضحًا بما فيه الكفاية كيف أمكنهم التعايُش هنا. مثلت الكهوف الضيقة ملاذًا للسكان الأصليين، أيًّا مَنْ كانوا، التي لم تقدر الوحوش الضخمة على اختراقها. ومع تطور عقولهم أصبحوا قادِرين على وضْع فخاخٍ مثل هذه، مموَّهة بالأغصان والأوراق، اعتادوا نصبها في المسارات التي تمشي فيها الحيوانات، من شأن السقوط في الفخ القضاء على أي وحشٍ أو حيوان ما بلغت قوته. سيسود البشر دومًا.

لم يكن صعبًا على رجل ذي لياقة عاليةٍ تسلُّق الجدار المنحدر للحفرة، لكنني ترددتُ قبل وضع ثقتي في جسدي المجهد. وأيضًا كيف أعرف ما إذا كان المخلوق كامنًا بين الشُّجيرات متربصًا، لينقض عليَّ ويقتلني أم أنه ذهب.

لما تذكرتُ محادثة (تشالنچر) و(سمرلي) بشأن عادات الوحوش عادت الشجاعة تدفق في عروقي. تذكرتُ اتفاقهم على أن الوحوش عمليًّا لا عقل لها، وأنه لا يوجد مجال للمنطق والتفكير في تجاويفهم الدماغية الصغيرة، وأنهم إذا انقرضوا من العالم، فمن المؤكد أن ذلك راجع لغبائهم؛ لذا بات التكيف مع الظروف المتغيرة أمرًا مستحيلًا بالنسبة لهم. يتطلب الأمر فهمًا وإدراكًا لما حدث حتى ينتظرني، وبالطبع يتطلب هذا تفكيرًا وعقلًا وليس مُجرد غريزة مفترسة شرِهة. الأرجح أنه تخلى عن المطاردة لما اختفيت، ربما توقف للحظات متأملًا ما حَدَث ثم ارتحل بحثًا عن فريسة أخرى.

تسلَّقتُ جدران الحفرة ناظرًا إلى أعلى. كانت النجوم تتلاشى، والسماء تكتسي بالأبيض، هبَّت رياح الصباح الباردة على وجهي باعثة الطمأنينة في نفسي. لم أتمكن من رؤية أو سماع الوحش، صعدت ببُطء وجلستُ فترة على الأرض، كُلِّي استعداد للعودة إلى الحفرة حال ظهور أي خطر. بعدما شعرتُ بالسكون يعم الأرجاء حولي، ضوء الشمس المتزايد، استجمعتُ شجاعتي ورحتُ أسلك الطريق الذي جئتُ منه. بعض النذر اليسير من المشي وجدتُ بندقيتي، التقطتها وتابعتُ سيري لمسافة قصيرة حتى رأيتُ جدول الماء الذي يُمثل مرشدي. سرتُ جعلته بجواره عائدًا للمعسكر.

وفجأة حصل شيء ذكرني برفاقي. في الهواء الطلق البعيد، وبكل وضوح سمعت صوتًا حادًّا بدا أنه طلقات بندقية. توقفت وأرهفتُ السمع، لكني لم أسمع أكثر من هذا. استولى عليَّ هاجس جعلني أرتعب، لربما حَلَّ بهم خطر مفاجئ، لكني اهتديتُ لتفسير أبسط وأكثر طبيعيةً. لا شك أنهم لاحظوا غيابي خاصة في ضوء النهار. ربما تصوَّروا أني ضائع في الغابة، ومن ثم أطلقوا هذه الطلقة حتى ترشدني للطريق الصحيح. على الرغم من اتخاذنا قراراتٍ صارمة بشأن إطلاق النار إذا شكوا بأنني في خطر فلن يترددوا. وقع على عاتقي الآن الإسراع بقدر ما يُمكنني حتى أطمئنهم.

كنتُ مرهقًا بشدة؛ لذا لم يكن تقدمي سريعًا كما تمنيتُ؛ في النهاية وصلت إلى منطقة مألوفة. ألفيتُ مستنقع الزواحف المجنحة عن يساري وفُسحة الإغوانودون أمامي. لقد وصلتُ إلى حزام الأشجار الذي يفصلني عن حصن (تشالنچر).

رفعتُ عقيرتي مُناديًا بنبرة مُبتهجة علَّني أُهدئ من روعهم. لكن أحدًا لم يرُد، عادت المخاوف لتغزو قلبي وغرقتُ في صمت مشئوم.

أجدتُ السير حتى وصلت إلى الحصن، وجدتُ البوابة مفتوحة. هرعت إلى الداخل، وفي جو الصباح البارد رأيتُ مشهدًا مُخيفًا أذى عينيَّ. أغراضنا كانت مُبعثرة في كل مكان؛ أما رفاقي فقد اختفوا. بالقرب من رماد النيران الخامدة أضحى العشب مُلطخًا بلون قرمزي اتضح أنها بِرْكة من الدم. لقد أذهلتني هذه الصدمة المفاجئة لدرجة أنني كدتُ أفقد عقلي. ظننتُ لوهلة أنني أعيش ذكرى ضبابية أو ربما هو حُلم سيئ. تمالكتُ نفسي ورحتُ أتخبط في جميع أرجاء المخيم الفارغ، مُناديًا رفاقي بأعلى صوتي لكن الصمت فقط ما حصلتُ عليه.

راودتني فكرة مروعة أنه لربما لا أراهم مرة أخرى، إنني قد لا أجدهم أحياءً، ومع عدم وجود طريقة ممكنة نهبط بها إلى العالم الطبيعي أدناه، تخيلتُ نفسي أصارع من أجل البقاء على قيد الحياة ما بقي من عمري في هذا البلد الكابوسي، قادني كل هذا إلى اليأس. باتَ ممكنًا تمزيق شعري أو ضرب رأسي من شدة اليأس.

الآن فقط أدركت مقدار اعتمادي على رفاقي، أعتمد على الثقة الهادئة بالنفس لدى (تشالنچر)، وعلى فطنة، برود، وروح دعابة اللورد (چون روكستون). دونهم كنتُ كطفلٍ في الظلام، لا حول لي ولا قوة. لا أدري ماذا أفعل أو كيف أفعله.

بعد فترة جلستُ فيها مُحتارًا، قررتُ محاولة اكتشاف الفاجعة المفاجئة التي ألَمَّت برفاقي. أظهر المشهد المضطرب للمخيم بالكامل أن هجومًا من نوع ما حَدَث هنا، يبدو أن طلقة البندقية بمنزلة علامة تُشير إلى الوقت الذي حدث فيه. طلقة واحدة فقط ثم انتهى كل شيء فورًا. لكن البنادق كلها مُلقاة على الأرض، واحدة منهم -الخاصة باللورد چون- ألفيتُ خرطوشتها فارغة. أشارت بطانيات (تشالنچر) و(سمرلي) الموضوعة بجانب النار إلى أنهم كانوا نائمين لما حدث ما حدث. الأرض مفروشة بعُلب الطعام والذخيرة الفارغة المتناثرة هنا وهناك، جنبًا إلى جنب مع كاميراتنا سيئة الحظ وحاملات الصفائح التي لم يُفقد أي منها. من ناحية أخرى، اختفت كل العُلب التي لا تتطلب فتحًا. إذن الوحوش هي التي هاجمت المعسكر، وليس السكان الأصليون، بالتأكيد هذا الأخير لم يكن ليترك شيئًا وراءه.

لكن سواء أحدث الهجوم على يد مجموعة من الوحوش أم وحش رهيب واحد، فماذا حل برفاقي؟ لو امتدت إليهم يدُ وحش مسعور لأهلكهم بالتأكيد تاركًا أشلاءهم، صحيح أن هناك بركة بشعة من الدماء، تشير إلى حدوث مواجهة، لكن لو أنه ذات الوحش الذي لاحقني ليلًا، لأمكنه اختطاف أحدهم بسهولة، ثم الهروب به كما تهرب القطة بفأر. في هذه الحالة بالذات سيجد الآخرين الوقت الكافي ليأخذوا بنادقهم ويطاردوه، لكن لو حدث هذا فَلِمَ تركوا بنادقهم في العراء؟ كلما حاولتُ التفكير في الأمر، خاصة بدماغي المرهق المرتعب كلما قَلَّتْ إمكانية العثور على تفسير معقول. فتَّشتُ الغابة حول المعسكر، لكني عجزتُ عن رؤية أي آثار يمكنها مساعدتي في الوصول إلى استنتاج. حَدَثَ لمرة أني تُهت في الدغل في أثناء بحثي، ولكن لحُسْن حظي، بعد ساعة من التجوال وجدتُ المخيم.

فجأة ومضت في عقلي فكرة جلبت الراحة إلى قلبي. لم أكن وحيدًا في هذه الغابة. أسفل هذه الهاوية، وعلى بُعد نداء مني، يمكثُ (زامبو) منتظرًا. ذهبتُ إلى حافة الهضبة ونظرتُ إليه، ألفيته يجلس القرفصاء بين بطانياته بجانب نيرانه في معسكره الصغير. لكن بلغت دهشتي مداها لما رأيتُ رجلًا آخر يُجالسه. لهنيهة قفز قلبي من الفرحة، ظانًّا بأنه أحد رفاقي، وقد شق طريقه إلى هناك بأمان، ولكن بعدما أمعنتُ النظر تبدَّدت آمالي. ألقت الشمس أشعتها الحمراء على جلد الرجل. اتضح أنه هندي. على كُلٍّ صرختُ بصوت عالٍ مُلَوِّحًا بمنديلي، نظر (زامبو) إلى الأعلى، ولوَّح بيده، ثم صعد إلى القمة. وبعد مُدة وجيزة وقف قريبًا مني، يستمع بحزن عميق إلى القصة التي أرويها.

حدثني قائلًا:

- لقد تمكَّن منهم هذا الشيطان بالتأكيد، يا سيد مالون. لقد دخلتم عرين الشيطان يا سيدي، وهو لن يترككم قبل التخلُّص منكم جميعًا. أتريد نصيحتي يا سيدي؟ اهرب كأن الشيطان في أثرك؛ لأنه كذلك فِعْلًا، وإلا سيُحكِم قبضته عليك أيضًا.

- وكيف يمكنني الهرب يا زامبو؟

- يمكنك استخدام الأشجار يا سيدي. كل ما عليك فِعْلُه هو دحرجتها إلى هنا ثم ترميها إليَّ حتى أربطها إلى بعضها، وهكذا نصنع جسرًا.

قلتُ:

- لقد سبق وفكرنا في هذا. لا يوجد بالقُرْب من هنا جذع شجرة يمكنه تحمل أوزاننا.

- إذن أرسل في طلب الحبال يا سيد مالون.

سألته:

- أرسل مَنْ وأين؟

- أرسل إلى القرى الهندية، هناك الكثير من الحبال المخبأة هناك. يُمكنك إرسال الهندي الجالس بالأسفل.

- ومَنْ هو؟

- إنه واحد من قومنا، ضَرَبَهَ آخر وسَلبَه أجره، لقد عاد إليَّ وهو مستعد لأخذ رسالة، أو جلب حبال. أي شيء له مقابل.

- لأخذ رسالة! لِمَ لا؟ ربما يجلب هذا المساعدة، ومهما حدث لنا، أقلها ستضمن الرسائل أن حياتنا لم تذهب سُدًى، كما أن جميع الجوائز العلمية التي سنفوز بها ستذهب إلى أصدقائنا وعائلاتنا. بالفعل لديَّ رسالتان مُكتملتان تنتظران من يحملهما. ودِدتُ قضاء اليوم في كتابة رسالة ثالثة، مِنْ شأنها تلخيص آخر الأحداث. سيحمل هذا الهندي على عاتقه مهمة إرسال هذه الرسائل إلى العالم. أمرتُ (زامبو) بالعودة مرة أخرى في المساء، وقضيتُ يومي البائس وحيدًا أُسجِّل مغامراتي الخاصة بالليلة السابقة. وضعتُ عدة ملاحظات، تُعطى لأي تاجر أبيض أو قبطان قارب بخاري يجده الهندي، يناشدهم أن يرسلوا الحبال إلينا؛ لأن حياتنا الآن تعتمد على هذا. في المساء أعطيت الرسائل لـ(زامبو)، وكذلك حافظتي، التي تحتوي على ثلاثة عملات إنجليزية. اتفقنا على إعطاء الهندي هذه الأغراض، وعَدْتُه بضعف الأجر إن عاد صاحبه بالحبال.

الآن أنت تفهم يا عزيزي السيد (مكاردل)، كيف سيصل إليك عملي وعلمي، وعندها ستعرف الحقيقة المؤسفة، في حال لم تسمع مني مجددًا.

إنني أعاني التعب والشجن هذه الليلة، ولا طاقة بي للتخطيط. سوف أفكر غدًا في طريقة تُبقِيني على اتصال بالمعسكر، بينما أتجول بحثًا عن آثار أصدقائي التُّعَساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

مشهد لن أنساه أبدًا

في تلك الليلة الكئيبة، بينما الشمس تغرب، رأيتُ الهندي وحيدًا منعزلًا، يسير على السهل الشاسع أسفل مِنِّي، أملنا الباهت في الخلاص، شاهدتُه حتى اختفى في ضباب المساء المصطبغ بوردي غروب الشمس، المتصاعد على النهر بيني وبينه.

خيَّم على المكان ظلامٌ حالِك عندما التفتُّ أخيرًا متجهًا إلى مخيمنا المنكوب، وكان آخر ما أبصرتُ هو بصيص نور من النار التي أشعلها (زامبو)، مصدر الضوء الوحيد في العالم الواسع أسفلنا، كما أن وجود الهندي هو مصدر الخلاص الوحيد لروحي الجوفاء، ومع ذلك شعرت بسعادة كبيرة، كانت أكبر ما شعرتُ به منذ سقطتْ تلك الضربة المدوية عليَّ، من الجيد اعتقادي بأن العالم يعرف ما فعلناه، حتى تبقى أسماؤنا حال فنائنا، وتبقى لأجيال مرتبطة بنتيجة عملنا.

أمرٌ رائعٌ النوم في هذا المخيم المتواضع، ومع ذلك، إن فكرة نومي في الغابة شيء أشد إثارة. فمن جهة رجاحة العقل والمنطق تحتِّم عليَّ البقاء مُستعدًّا لأي خطر مقبل. لكن الطبيعة الأم، من جهة أخرى، تدفعني لعدم فعل شيء من هذا القبيل. اعتليتُ أحد أطراف شجرة الجنكو العظيمة، ولكني لم أجد غصنًا آمنًا على سطحها المستدير، شعرتُ بالدوار وأوشكت على السقوط مُحطمًا عنقي لولا أني تراجعتُ وتسلقتُ نازلًا، ثم شرعتُ أفكر فيما يجب فِعْلُه. أخيرًا، أغلقت باب المعسكر وأشعلت ثلاث شعلات متفرقات مثلثة الشكل، وبعد العشاء غرقتُ في نوم عميق، انفرجتْ أساريري حين استيقظت منه. في الصباح الباكر، وبينما أشعة الشمس تترقَّق في السماء، شعرتُ بيدٍ تُلامس ذراعي، وبوخز دغدغ أعصابي فأيقظني، تحسست بندقيتي بيدي، لكني طرتُ فرحًا عند رؤية شبحه جالسًا في الضباب بجانبي، اللورد (روكستون).

إنه هو ومع ذلك ليس هو، عندما رأيته سابقًا كان رزِينًا في نفسه، هادئ الملامح، منمق الملابس. أما الآن فهو شاحب الوجه والعينين، يلهث وكأنه ركضَ لمسافة طويلة. وجهه الهزيل مخدوش مُخضَّب بالدماء، وملابسه ممزقة كخِرَق مُعلقة، وقبَّعتُه قد اختفت. أمعنت النظر فيه بذهول، لكنه لم يُتح لي أي فرصة للسؤال.

صرخ فيَّ:

- بسرعة، أيها الشاب-إن كُلَّ لحظة مهمة- أحضر البندقيتين لدى الاثنين الآخرين. اجمع ما استطعت من الخراطيش، املأ جيوبك بها، وأحضر الطعام أيضًا؛ نصف دزينة سوف تكفينا، لا نملك وقتًا للحديث أو التفكير، إما أن نتحرك الآن أو لا.

كنتُ نصف مستيقظ، وغير قادر على تخيُّل ما يحدث، وجدتُ نفسي أُسْرِع بجنون خلفه عبر الغابة، ببندقية تحت كل ذراع وكومة من المؤن المختلفة في يدي. ركض خلال الأشجار والحشائش السميكة حتى وصلنا إلى أجمة كثيفة من الأغصان المتساقطة. هَرْوَل بسرعةٍ، ودون مراعاة لأشواكها، ألقى بنفسه في قلب الأجمة مختبئًا فيها، ساحبًا جسدي معه إلى جانبه.

قال اللورد (روكستون) وهو يلهث:

- أخيرًا، أظن أننا في أمانٍ هنا. مؤكد أنهم سيصنعون بمخيمنا الأفاعيل، ولكن من شأن هذا تأخيرهم.

سألته بعد أن التقطتُ أنفاسي:

- ما كُلُّ هذا؟ أين البروفيسوران؟ ومن الذي يُلاحقنا؟

هَتَفَ فيَّ زاجرًا:

- يا إلهي، يالتهورك! لا ترفع صوتك، إن آذانهم طويلة وعيونهم حادَّة أيضًا، تعوضهم عن حاسة الشم الضعيفة، هذا ما أعرفه عنهم إلى الآن، لا أظن أنهم قادرون على تعقُّب رائحتنا حتى هنا. أين كنت أيها الشاب؟ لحُسْن حظك أنك أفلتَّ منهم.

همستُ له بما فعلتُ، قال عندما أخبرته عن الديناصور والحفرة:

- سيئ للغاية. إذن هذا ليس مكانًا مناسبًا للاستجمام، لكني لا لم أملك أي فكرة عن مدى فداحة الأمور حتى رأيتُ ما فعلته تلك الشياطين بنا. لقد سبق وصارعتُ قردة البابون آكلة لحوم البشر، لكنهم كانوا شيئًا لا يذكر مقارنة بما نحن بصددِه.

سألته:

- ماذا حدث؟

- حَدَثَ الأمر في الصباح الباكر. أصدقاؤنا كانوا يتناقشون، لم يتجادلوا فيما بينهم بعد، ثم فجأة سقطت علينا هذه الوحوش من السماء. كانوا كثيري العدد لدرجة أنهم حجبوا زرقة السماء، يُخيل إليَّ أنهم تجمعوا حولنا في ظُلْمة الليل، تلك الشجرة العظيمة المرتفعة فوق رءوسنا كانت مُثقلة بهم، أطلقت النار على أحدهم في بطنه، وقبل أن أعي ما فعلتُ، انقضوا علينا كالنسور، وكأنهم يعاقبوننا على فعلتي. نعم، إنني أدعوهم بالقردة، لكنهم حملوا العصي والحجارة في أيديهم وغمغموا متكلمين مع بعضهم البعض. انتهى الأمر بربط أيدينا بحبال بدائية لكن مُحكَمة، إنهم أكثر تقدُّمًا من أي وحش رأيته في أثناء ترحالي. إنهم رجال الغاب، الحلقة المفقودة كما يقولون، ولكم تمنَّيتُ لو ظلت مفقودة. حملوا رفيقهم الجريح -الذي ينزف مثل الخنزير- ثم جلسوا حولنا، لو أني رأيت القتل متجسدًا قبلًا فقد رأيته في أعينهم. إنهم ضخام البنية، كأعظم ما يكون الرجال، عيونهم رمادية مستديرة تشع فضولًا، تُغطيها خصلات شعر حمراء. جلسوا يحدِّقون فينا شامتين. وبدافع الرعب والصدمة لا الخوف والجبن وبعد معاناة تمكن (تشالنچر) من الوقوف على قدميه، وأخذ يصرخ فيهم ليقوموا بإنهاء الأمر والتخلُّص منا. أظن أن عقله أصابه العطب من هول ما حدث، أخذ يلعنهم كالمجنون. ولو كانوا صفًّا من الصحفيين المفضلين لديه لما رماهم بأسوأ مما قال.

سألته مفتونًا بالقصة الغريبة التي يهمس بها في أذني:

- حسنًا، ماذا فعلوا؟

كان يحكي لي وعيناه تُطْلِقان النار في ألف اتجاه واتجاه، ويدُه على الزناد.

- ظننتَ أنها نهايتنا، ولكن عوضًا عن ذلك، تغيَّر سلوكهم تمامًا. أخذوا يثرثرون، وأحدثوا جلبة فيما بينهم حتى برز أحدهم بجانب (تشالنچر). ربما ستسخر مما أقول أيها الشاب، لكني أُقْسِم لك أنهم بدوا وكأنهم أقرباء. لم أكن لأصدِّق ذلك لو لم أَرَهُ بأُمِّ عينيَّ. كان أكبرهم سنًّا ويبدو أنه قائدهم، ولو رأيته لظننته نسخة حمراء من (تشالنجر)، يشبهه في كل شيء، بدايةً بجسده القصير، والكتفين العريضين، والصدر المستدير، والحية المتوردة الكبيرة التي تغطي رقبته، حاجبيه المنعقدين، حتى نظرته المتهكمة الساخطة. عندما وقف القرد العجوز بجانب (تشالنچر) ووضع مخلبه على كتفه، خَرَّ الأخير على الأرض مغشيًّا عليه، حينها اكتمل المشهد وانفجر (سمرلي) ضاحكًا بهستيريا حتى بدأ يبكي. ضحك رجال الغاب أيضًا، أو على الأقل أصدروا أصواتًا شيطانية بَدَتْ لنا ضحكات. بعد ذلك شرعوا في جرنا عبر الغابة، لم يلمسوا البنادق وتوابعها، حيث ظنوا أنها خطيرة، على حسب ظني، لكنهم أخذوا جميع الطعام والمؤن. خُدش جسدي أنا و(سمرلي) في أكثر من موضع، ومُزِّقَتْ ملابسُنا في أثناء الطريق كما ترى؛ ذلك لأنهم جرَّونا على الأرض في خط مستقيم عبر الأشواك والأغصان، لكنهم لم يصابوا بأذى لسماكة الجلود التي يرتدونها. أما (تشالنچر) فهو على ما يرام، حمله أربعة منهم على أكتافهم، لقد بَدَا وكأنه إمبراطور روماني. ما هذا الصوت؟!

من بعيد صدر صوت نقر، صوت أشبه بصوت آلة الصَّنج(82).

قال رفيقي وهو يلقم بندقيته:

- ها هم! لَقِّمْ جميع الأسلحة يا صغير، جميعها يا فتى؛ لأننا لن نؤخذ أحياء، لا تفكر حتى في ذلك! هذا هو الصوت الذي يصنعونه عندما يكونون متحمسين. بحق القديس جورج! سأُذيقهم الْمُرَّ لو قرَّروا مواجهتنا، لن يقف آخر أعضاء عائلة (جرايز) ببندقية ترتعش في يديه المتيبسة، وسط حلقة من القتلى، كما يتغنى الحمقى. هل يمكنك سماعهم الآن؟

- إنهم بعيدون جدًّا.

- عددهم هذا لن يجدِي نفعًا، لكني أتوقع أن فِرَق بحثهم ملأت أرجاء الغابة. حسنًا، كنتُ أخبرك بقصتي عن الويل الذي مررت به، دعني أُكْمِل. بعد لحظات وجدناهم وقد أوصلونا إلى بلدتهم، ألف كوخ وكوخ مصنوعة من أغصان الشجر وأوراقها، المنطقة ذاتها عبارة عن بستان كبير يطل على الحافة. إنها على بُعد ثلاثة أو أربعة أميال من هنا. مرَّرت الوحوش القذرة أصابعها على جسدي، وشعرتُ بأنه ما من شيء قادر على إعادة جسدي نظيفًا مرة أخرى. لقد قيدونا -لفت انتباهي أن الرجل الذي قيدني، يصنع عقدة مثل عُقدة البحارة- ثم تركونا أسفل شجرة ممددين على ظهورنا.

بينما نحن هكذا وقف فرد ضخْم منهم يحرسنا مع عصا غليظة في يده، وعندما أقول (نحن) أعني أنا و(سمرلي). (تشالنچر) العجوز وضع أعلى شجرة، شرع يأكل الصنوبر مستمتعًا وينعم بحياته. من اللباقة ذكر أنه استطاع رمي بعض الفاكهة لنا، وأرخى بنفسه الحبال المربوطة في أيدينا قليلًا. لو أنك فقط رأيته جالسًا على جذع تلك الشجرة، يتواصل مع توأمه غير الشقيق ويُغنِّي بصوته الجهير «رنِّي يا أجراس البرية»، إن أي نوع من الموسيقى يضعهم في حالة مزاجية جيدة، لو أنك رأيته لابتسمت؛ لكننا على غرارهم لم نكن في مزاج جيد، كما يمكنك التخمين. كانوا يسمحون له بفعل ما يحلو له، أما نحن فعاملونا بقسوة. عزاؤنا الوحيد هو معرفة أنهم لم يُمسكوا بك، وأن السجلات لا تزال معك.

سكت قليلًا ثم تابع:

- حسنًا أيها الشاب، ما سأقوله لك سيفاجئك. لقد قلت إنك رأيت علامات على وجود البشر والحرائق والفخاخ وما إلى ذلك. لقد رأينا السكان الأصليين أنفسهم. مجموعة من الفقراء الحقيرين، الخاضعين لرجال الغاب، ولا يُلامون على هذا. يبدو أن البشر يحتلون جانبًا واحدًا من هذه الهضبة -الجانب الأقصى، حيث رأيت الكهوف- أما هذا الجانب فخاضع لرجال الغاب، هنالك حرب ضروس بينهم. هذا هو الوضع، بقدر ما استطعت الاستنباط. ليلة أمس أسر القردة مجموعة من البشر واتخذوهم سجناء، لن تسمع هكذا ثرثرة أو جلبة في حياتك. السجناء رجال صغار الحجم حُمْر البشرة، تعرضوا للعَضِّ والخدش حتى عجزوا عن المشي. حكم القردة على اثنين منهم بالموت، ثم بخفة ووحشية مجردة اقتلعوا ذراع رجل منهما من مكانها اقتلاعًا، إنه أمر بربري تمامًا، بالكاد سمعنا صرخة الرجل، مما جعلنا نشمئز. لم يتحمل (سمرلي) وسقط مغشيًّا عليه، حتى (تشالنچر) لم يكن ليصمد أكثر من ذلك. أظن أنهم رحلوا، ألا تظن ذلك؟

أرهفنا السمع، وجلسنا ننصت سويًّا، لم يكسر الصمت إلا زقزقة الطيور الآتية من الغابة، عاد اللورد (روكستون) يكمل قصته:

- لقد نجوت بحياتك يا فتى لولا هؤلاء الهنود الذين شغلوهم عنك، لعادوا حتمًا إلى المخيم من أجلك، بالطبع، كما كنت تقول، لقد كانوا يراقبوننا منذ البداية من فوق تلك الشجرة، وهم يعرفون تمام المعرفة أننا ينقصنا واحد. ومع ذلك، يبدو أن الغنائم التي حصلوا عليها ألهتهم عنك؛ لذا لم تقابل في هذا الصباح غيري أنا والقليل منهم. أيًّا يكن، إنه أمْر مُروِّع. يا إلهي! إنه أشبه بكابوس! أتذكر أعواد الخيزران الحادة التي وجدنا عندها عظام الأمريكي؟ إنها موجودة تحت بلدة القردة، وهذا هو مكان انتحار السجناء. أظن أن هناك تلالًا من الهياكل العظمية بالأسفل، إذا بحثنا عنها سنجدها. لديهم نوع من منصات القفز بالأعلى، يحتفلون فيها في أثناء قفز السجناء. واحد تلو الآخر يتحتم على السجناء القفز، اللعبة بسيطة وسهلة هي سيصطدم السجين بالأرض متحولًا إلى أشلاء، أم أن العيدان الصلبة ستخترق جسده؟ لقد جعلونا نشاهد، فيما اصطفت القبيلة بأكملها على الحافة. قفز أربعة من الهنود، مرَّت العيدان في أجسادهم كما يمر السكين في العجين. لا عجب أننا وجدنا الهيكل العظمي لمشجع اليانكيز والعيدان نامية بين أوصاله. إنه شيء فظيع، لكنه مثير للاهتمام أيضًا. كنا جميعًا مفتونين برؤيتهم يقفزون إلى حتفهم، حتى عندما ظننا أنِ دورنا آتٍ بعدهم. لكنه لم يأتِ. لقد أبقوا ستة من الهنود لليوم التالي، كانوا يريدون جعلنا أبطالَ العرض الآتي، ربما سينجو (تشالنچر) لكن أنا و(سمرلي) سنكون نجوم المسرح بالتأكيد. لغتهم عبارة عن شبه علامات، لم يكن من الصعب فهمها؛ لذا فكرتُ ووجدتُ أن وقت الهرب قد حان، لقد أحبكتُ الخطة في عقلي، واتضحت خطواتها مع الوقت، كنتُ قد فكرت في نقطة أو نقطتين سيعودان بالنفع. لم يشاركني أحد في الهروب، (سمرلي) عديم الفائدة و(تشالنچر) ليس أفضل منه بكثير. المرة الوحيدة التي اتفقوا فيها كانت عندما عجزوا عن الوقوف على تصنيف علمي محدد لهذه الشياطين ذات الرءوس الحمراء، الذين أمسكوا بنا.

أحدهم نعتهم بـ(إنسان جاوة)(83)، والآخر سماهم (دريوبيثكس)(84). أما أنا فأسميهم بالمجانين، يا لهما من معتوهين، كليهما. ولكن -كما قلتُ- لقد فكرت في نقطة أو نقطتين مفيدتين؛ الأولى هي أن هؤلاء المتوحشين لا يمكنهم الركض بالسرعة التي يركض بها رجل في العراء. حيث إن سيقانهم

قصيرة ومنحنية، وأجسادهم ثقيلة. حتى (تشالنچر) يمكنه التغلب عليهم في سباق، أما أنت أو أنا سنشكل تحديًا كبيرًا لهم. النقطة الأخرى هي أنهم لا يجيدون استخدام الأسلحة. لا أظن أنهم فهموا أبدًا كيف جُرح الشخص الذي أطلقنا عليه النار، لو استطعنا الحصول على أسلحتنا لن يقف أحد في طريقنا؛ لذا استطعت الهرب في الصباح الباكر، ركلتُ حارسي في بطنه، ثم ركضتُ للمخيم. وهناك التقيتك وحصلت على الأسلحة، وها نحن ذا.

صحتُ مذعورًا:

- لكن البروفيسور ان!

- حسنًا، فقط يجب علينا العودة لإحضارهم. لم أقدر على جلبهم معي، (تشالنچر) كامن فوق شجرة، و(سمرلي) ليس كُفؤًا لهذه الخطة. الفرصة الوحيدة متمثلة في إحضار الأسلحة ومحاولة إنقاذهم فيما بعد. بالطبع قد يضربونهم ضربة رجل واحد ويقتلونهم جميعًا انتقامًا، لكني لا أظن أنهم سيلمسون (تشالنچر) لكن لن أجيب عن (سمرلي)، وعلى كلٍّ كانوا قادرين على قتله منذ مُدَّة إذا أرادوا، أنا متأكد من ذلك؛ لذا لن يزد هروبي الأمر سوءًا، ومع ذلك يُحتم علينا الشرف العودة لإخراجهم أو الموت ونحن نحاول. القرار قرارك أيها الشاب، ما الذي ستفعله؟ سننفذ عملية الإجلاء بحلول المساء.

لقد سبق وحاولتُ تقليد اللورد (روكستون) في طريقة كلامه، جُملُه القصيرة والقوية، النبرة نصف الفكاهية، ونصف المتهورة التي جرَّبَت كل شيء. إنه قائد بالفطرة. مع تفاقم الخطر يزداد حماسُه مُفعمًا إيَّاه بالنشاط، يصبح حديثه أكثر حيوية، وعيناه الباردتان تلمعان من فرط الإثارة، وشارب (دون كيشوت) الخاص به تغمُرُه البهجة. حُبُّه للخطر، وتقديره الشديد لدراما المغامرة -تزداد حِدَّتُه بسبب تعلقه بها- ووجهة نظره الثابتة بأنَّ كل خَطر في الحياة هو شكل من أشكال الرياضة، لُعْبَة شرسة بينه وبين القَدَر، والموت يُرَاهِن على الفائز، كل هذا جَعَلَهُ رفيقًا رائعًا لي في مثل هذه الساعات. لولا خوفُنا على مصير رفاقنا لكان من دواعي سروري الانخراط في صَدَاقَة ممتلئة بالمغامرة مع رجل كهذا. بدأنا نخرج من مخبأنا حين شعرت فجأة بقبضته على ذراعي. همس قائلًا:

- بحق القديس جورج! ها هم قادمون!

- من مكمننا هذا رأينا ممرًّا مقوسًا بنيَّ اللون، يحدُّه اللون الأخضر الذي شكلته جذوع وفروع الأشجار. على طوله يسير مجموعة من رجال الغاب، يمشون في طابور واحد، بسيقان مقوسة وظهور مُنحنية، كانت أيديهم تُلامس الأرض في بعض الأحيان، ويتلفتون يمنة ويسرة. انقصت مشيتهم المنحنية من طولهم، ولكن أمكنني تخمن أن طولهم خمسة أقدام أو نحو ذلك، بأذرع طويلة وصدور هائلة. حمل العديد منهم العصي، بدوا من بعيد وكأنهم صف من البشر الْمُشعرين المشوهين. لمحتهم للحظة. ثم اختفوا بين الشُّجيرات.

قال اللورد (چون) وهو يُنزل بندقيته:

- ليس هذه المرة. أفضل فرصة لنا هي البقاء حيث نحن حتى ييأسوا من البحث. ثم ننظر في كيفية العودة إلى بلدتهم وضربهم في مقتل. دعْنَا نصبر ساعةً ثم نتحرك.

قضينا هذا الوقت في فتح واحدة من علب الطعام الباقية لدينا وتناول الفطور. لم يأكل اللورد (روكستون) منذ يوم مضى إلا بعض الفاكهة؛ لذا انكبَّ على الطعام كأنه يموت جوعًا. في النهاية، بدأنا مهمة الإنقاذ، بجيوب منتفخة بالخراطيش وببندقية في كل يد. قُبيل المغادرة، وضعنا علامة لنميز مخبئنا الصغير بين الأجمة والأغصان المتشابكة، في حال عُدْنا للاختباء مجددًا. تجوَّلنا صامتين بين الشُّجيرات حتى وصلنا إلى حافة الهاوية، بالقرب من المخيم القديم. هناك توقفنا، وقام اللورد (چون) بإعطائي نبذة عن خططه. قال:

- إن هؤلاء الخنازير لهم اليد العليا طالما نحن وسط هذه الأشجار الكثيفة. يمكنهم رؤيتنا من حيث لا نراهم، لكن في العراء الأمر مختلِف. هناك سنكون أسرع منهم؛ لذا يجب علينا البقاء في الأماكن المفتوحة قدر المستطاع. إن حافة الهضبة تحوي عددًا أقل من الأشجار الكبيرة مقارنةً بسطحِها؛ لذا هذه هي خطتنا المبدئية؛ تحرك ببطء، أبقِ عينيك مفتوحتين، وبندقيتك جاهزة، وقبل كل شيء، لا تدعهم أبدًا يُمسكون بك بينما هناك تتبقى معك خرطوشة، هذه هي آخر كلماتي لك أيها الشاب.

لما وصلنا إلى حافة الهاوية نظرت إلى أسفل ورأيت (زامبو) العجوز جالسًا على صخرةٍ يُدخن. وددتُ الهتاف له واصفًا وضْعَنا وما وصل إليه حالنا، لكنه أمر خطير جدًّا، وأخشى أن يسمع رجال الغاب صوتي. مرارًا وتكرارًا سمعنا أصوات الصنج الصادرة عنهم. في مثل هذه الحالات كنا نختبئ في أقرب كتلة من الشجيرات ولا نتحرك قيد أنملة حتى يبتعد الصوت؛ لذا أمسى تقدمنا بطيئًا، لا بد أن ساعتين على الأقل مرَّا قبل أن أطالع تحركات اللورد الحذرة وأفطن لحقيقة أننا بِتْنَا قريبين من وجهتنا. طلب مني الاستلقاء ساكنًا، بينما زحف هو إلى الأمام، بعد دقيقة واحدة عاد مرة أخرى، وجهه يرتجف بلهفة. قال:

- تعالَ! تعالَ بسرعة! أتمنى من الله أننا لم نتأخر!

بدأتُ أرتجف من الإثارة والعصبية بينما أسرع للأمام مُستلقيًا بجانبه، نظرت من خلال الشُّجيرات إلى المساحة الممتدة أمامنا. إنه مشهد لن أنساه حتى مماتي، غريب جدًّا، مستحيل جدًّا، لدرجة أنني لا أعرف كيف أجعلك تدركه، أو كيف سأؤمن به في غضون سنوات قليلة إذا عشت لأجلس مرة أخرى في إحدى صالات نادي (سافاج) متأملًا أوراق اللعب. سأقول حينئذٍ إنه كابوس، أو ضرب من ضروب الهذيان. لكنه كابوس سأعيشه الآن، وستثبت ذكراه في عقلي، شخص واحد على الأقل، الرجل الذي يرقد على العشب الرطب بجواري، سيعرف إذا ما كنت أكذب.

امتدت أمامنا مساحة واسعة -مئات الياردات- تنبت فيها الأعشاب والسرخس حتى حافة الهاوية، حول هذا المتسع هناك شبه دائرة من الأشجار يُجاورها أكواخ غريبة بُنيت من أوراق الشجر مكدسة الواحد فوق الآخر بين الفروع. كأنها مغدفة، لكن بأكواخ بدلًا من الأعشاش، من شأن هذا إيصال الفكرة بطريقة أفضل. كانت فتحات هذه الأكواخ وفروعُ الأشجار مزدحمة بحشد كثيف من شعب الغاب، الذين استنتجتُ من حجمهم أنهم إناث وأطفال القبيلة. لقد شكَّلوا خلفية المشهد، وكانوا جميعًا ينظرون باهتمام ولهفة إلى نفس الشيء الذي سحرنا وحيَّرنا.

هناك في العَراء، وبالقُرْب من حافة الهاوية، هنالك حشْد من نحو مئة من هذه المخلوقات الشعثاء ذات الشعر الأحمر، كثير منهم هائل الحجم، وكلهم مروعون عند النظر إليهم. وجدتُ بعض الانضباط

بينهم، حيث لم يحاول أي منهم كسر الخط الذي شكّل. أمامهم وقفت مجموعة صغيرة من الهنود ذوي البشرة الحمراء متناسقين، بينما توهجت جلودهم مثل النحاس المصقول في ضوء الشمس القوي. بجانبهم وَقَفَ رجل أبيض طويل القامة نحيف الجذع، رأسه محني، ذراعاه منطويان، هيأته مُعبِّرة عن مدى الرعب الذي هو فيه. لم يساورنا شك في أن هذا هو البروفيسور (سمرلي).

أمام وحول هذه المجموعة البائسة من السجناء، هناك العشرات من رجال الغاب يراقبونهم عن كثب جاعلين الهروب مستحيلًا. ثم وعلى مقربة من حافة الهاوية، ومن بين الجميع، برزت شخصيتان، استرعتا انتباهي، غريب جدًّا أمرهما، وفي ظل ظروف أخرى لكانٍ أمرهما مثيرًا للسخرية. أولهما رفيقنا في الرحلة، البروفيسور (تشالنجر). لا تزال بقايا معطفه مُعلّقة على كتفيه كشرائط، فقد قبعته وشعره الذي نما في أثناء الرحلة، قميصه ممزق تمامًا، ولحيته العظيمة تشابكت مع الدغل الأسود النامي فوق صدره. يوم واحد كان كفيلًا بتحويله من المكانة العظيمة للحضارة الحديثة إلى الأكثر يأسًا وبؤسًا في أمريكا الجنوبية. وقف سيده بجانبه، ملك رجال الغاب، إنه كما قال اللورد (چون)، صورة طِبْق الأصل من البروفيسور، باستثناء أن لونه أحمر بدلًا من أسود. نفس الهيئة القصيرة والواسعة، الكتفان الثقيلان، تعليق الذراعين إلى الأمام، اللحية التي دمجت نفسها في شعر الصدر. فقط فوق الحاجبين، يُمكنك تمييز الجبهة المنحدرة والجمجمة المنخفضة شبه المنحنية لرجل الغاب، التي تتناقض بشكل حاد مع الحاجب العريض والجمجمة الرائعة للأوربي، يمكن للمرء رؤية الفرق ملحوظًا. في كل النقاط الأخرى وجدتُ الملك محاكاة ساخرة سخيفة للبروفيسور.

كل ما ذكرته، والذي استغرق وقتًا طويلًا لوصفه، أثار إعجابي لبضع ثوانٍ فقط. ثم أصبح لدينا أشياء أخرى لنفكر بها؛ لأن دراما الموقف بدأت تنشط. قبض اثنان من رجال الغاب على أحد الهنود مُخرجين إياه من المجموعة، ثم سحبوه إلى حافة الهاوية. رفع الملك يده كإشارة. أمسكوا الرجل من ساقه وذراعه، وأرجحوه ثلاث مرات للخلف وللأمام بعنف هائل. ثم أطلقوا البائس المسكين برشاقة مخيفة في الهواء نحو الهاوية. ارتفع الرجل عاليًا قبل البدء في الانخفاض. وبينما يختفي عن الأنظار، هرع الجمع بأكمله، باستثناء الحراس، إلى الأمام حيث حافة الهاوية، أطبق عليهم الصمت، سرعان ما كسره صرخة جنونية مُبتهجة. قفزوا وهلّلوا ملوحين بأذرعهم الطويلة المشعرة في الهواء، وهتفوا بابتهاج وسعادة. ثم تراجعوا عن الحافة، عائدين إلى ذات التشكيل السابق، منتظرين الضحية التالية.

هذه المرة كانت الضحية (سمرلي). أمسك اثنان من الحراس بمعصميه، وسحباه بوحشية إلى الأمام. ناضل جسده الرفيع، ورفرفت أطرافه الطويلة مثل دجاجة تُسحب من الحظيرة. التفت (تشالنجر) إلى الملك مُلوِّحًا أمامه بشكل محموم، يتوسل ويستسمح ويبكي من أجل حياة رفيقه، دفعه القرد بعنف وهَزَّ رأسه. وكانت تلك آخر حركة واعية قام بها الملك، حيث كان لبندقية اللورد (چون) رأي آخر. انطلقت القذيفة من بندقية اللورد (چون)، وسقط الملك على الأرض متشحِّطًا في دمائه، وأمسى للرائي مجرد شيء أحمر متشابك، مترامي الأطراف. صرخ اللورد:

- أطلِق النار على أكبرهم! أطلِق يا فتى! إطلاق النار!

هناك شهوات شيطانية كامِنة في أعماق أكثر الرجال نُبلًا، أنا حنُون بطبيعتي، ودائمًا ما ينساب الدمع من عيني إثر صرخة أرنب جريح. لكن الآن، شهوة الدم هي كل ما أمكنني التفكير فيه. وجدتُني أُفرغ

خزنة البندقية، المرة تلو الأخرى. أنقر فوقها، أفتحها، من جديد أعيد تلقيمها، بينما أهتف وأرقص طربًا بالمذبحة الدائرة، بشراسة خالصة خالية من أي رحمة، وبأسلحتنا الأربعة صنع كلانا فوضى عارمة. قُتِل الحارسان اللذان احتجزا (سمرلي)، أمسى الأخير ثملًا من شدة ذهوله، غير قادر على إدراك ما يحدث، غير قادر على إدراك أنه رجل حُر. ركض حشْد كثيف من رجال الغاب حولنا، مُحتارين، مُتعجبين، متسائلين من أين أتت عاصفة الموت هذه أو ما تعنيه. لوحوا، تأوهوا، صرخوا، وتعثروا فوق أولئك الذين سقطوا. فجأة هرعوا في حشْد إلى الأشجار بحثًا عن مأوى وعويلهم يسبقهم، تاركين الأرض وراءهم مكسوة بالمقتولين. في الوقت الراهن تُرك السجناء واقفين وحدَهم في وسط المعمعة.

أدرك (تشالنچر) سريع البديهة الوضع، قبض على معصم (سمرلي) وركض كلاهما نحونا. خلفهم، على بُعْد ياردات قليلة سقط اثنان من حراسهم برصاصتين من رصاص اللورد (چون). نزلنا إلى الساحة راكضين لمقابلة أصدقائنا، ثم وضعنا بندقية محشوة في يد كل منهما. وجدتُ (سمرلي) لا يزال يلهثُ، بالكاد يمكنه الوقوف دون ترنُّح. سريعًا أدرك رجال الغاب ما يحدث، وبدءوا يهاجموننا من بين الأجمات وكادوا يقطعون الطريق علينا. استند (سمرلي) إليَّ وإلى (تشالنچر)، وركضنا عائدين بينما يُغطينا اللورد (چون). لمرات عدة أطلق النار على القردة المتوحشة التي حاولت نهشنا في أثناء هروبنا. لمسافة ميل أو نحوه سمعنا أصواتهم آتية من الأدغال في أعقابنا. ثم تباطأت وتيرة المطاردة رويدًا، ربما لأنهم علموا مقدار بأسنا، ولن يُغامروا بمواجهة هذه البنادق التي لا تُخطئ بعد الآن. لما وصلنا أخيرًا إلى المخيم، نظرنا خلفنا، خُيِّل إلينا أننا بمفردنا.

أو هكذا ظننا، مع الوقت تبين لنا أننا كنا مخطئين. بالكاد أغلقنا باب معسكرنا، افترشنا المرج لاهثين من التعب، شبَّكْنا أيادينا، كُلٌّ واحد في يدِ صاحبه، عندما سمعنا طقطقة الأغصان الجافة إثر خطوات أقدام تلاها صوت بكاء خفيف وواضح من خارج المعسكر. هرع اللورد (روكستون) إلى الأمام، بندقيته في يده. هناك وجد السجناء الأربعة الباقين ساجدين على الأرض. بإشارة معبرة وبرجفة من الخوف ورجاءً بالمساعدة، أشار أحدهم إلى الغابة من خلفهم، وكأنه يقول إنها ممتلئة بالخطر. ثم اندفع إلى الأمام، مُمسكًا بساقي اللورد (چون)، وأخذ يُقبِّلهما. قال اللورد (چون) وهو يشد شاربه بحيرة شديدة:

- بحق القديس چورچ! بحق كل ما رأيناه ما الذي سنفعلُه مع هؤلاء الناس؟ انهض أيها الشاب الصغير، وابعد وجهك عن حذائي.

جلس (سمرلي) يحشو بعض التبغ في غليونه القديم، قال:

- علينا الحرص على سلامتهم. لقد أخرجتنا جميعًا من براثن الموت. إنه عمل رائعا بحق!

هتف (تشالنچر):

- مُثير للإعجاب! ليس نحن كأفراد فقط، ولكن العالم الأوربي قاطبة مَدِين لكما بامتنان عميق لما قمتما به. لن أتردَّد في قول إن اختفائي أنا والبروفيسور (سمرلي) من شأنه ترك فجوة كبيرة في التاريخ الحيواني الحديث. لقد قمت أنت وصديقنا الشاب هنا بعمل رائع للغاية.

رأيته فرحًا بنا، وينظر لنا بابتسامة كأب فخور، لكن لربما اندهش العالم الأوربي إلى حَدٍّ ما حال رؤيته لطفله المختار، أمله في المستقبل، برأسه المتشابك الأشعث، وصدره العاري، وملابسه الممزقة. أقْعَى على الأرض واضعًا واحدة من علب اللحم بين ركبتيه، أخرج منها قطعة كبيرة من لحم الضأن الأسترالي البارد وأخذ يُقلبها بين أصابعه. نظر الهندي إليه، ثم عوى مُتذلِّلًا، وتشبث بساق اللورد (چون) خائفًا من (تشالنچر).

قال اللورد (چون) وهو يربت على رأسه مُلاطِفًا:

- لا تخف يا بني. لا يمكنه الاطمئنان لمظهرك هذا يا (تشالنجر)، وبحق القديس (چورچ)! لا أتساءل لماذا، حسنًا يا صغيري إنه إنسان مثلنا.

قال البروفيسور:

- حقًّا، يا سيدي!

- حسنًا، من حُسْن حظك يا (تشالنجر) أنك خارج عن المألوف قليلًا. لو لم يكن شكلك مثل الملك.

- أيها اللورد چون، أنت تسمح لنفسك بحرية مُبالَغ فيها في الكلام.

- لكنها الحقيقة.

- أرجوك أن تُغيِّر الموضوع يا سيدي. ملاحظاتك غير ذات صلة وغير مفهومة. السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ما الذي سنفعله بهؤلاء الهنود؟ والإجابة الواضحة هي مرافقتهم إلى ديارهم، إذا ما عُرف لهم ديار.

استلمتُ دفة الحديث قائلًا:

- لا توجد صعوبة في هذا. إنهم يعيشون في الكهوف على الجانب الآخر من البحيرة الوسطى.

- صديقنا الشاب هنا يعرف أين يعيشون. وأظن أن المسافة طويلة إلى هناك.

- عشرون ميلًا.

نظر إلي (سمرلي) زاجرًا وقال:

- أنا، على سبيل المثال، لا أستطيع الوصول إلى هناك. بينما أسمع هؤلاء المتوحشين يعوون على مسارنا.

في أثناء حديثه، ومن قلب الغابات المظلمة سمعنا صرخات رجال الغاب. فزع الهنود وقفزوا واقفين، ثم جلسوا مرةً أخرى بخوف واضح. قال اللورد (چون):

- يجب علينا التحرك، بسرعة! ساعد (سمرلي) أيها الشاب، سيحمل الهنود المؤن، والآن هيا ننطلق قبل أن يتمكنوا من رؤيتنا.

في أقل من نصف ساعة كنّا قد وصلنا إلى الأجمة التي اختبأنا فيها من قبل، وأخفينا أنفسنا داخلها. يوميًّا، وصلت إلينا أصوات القردة الغاضبة وهي تجوب المكان خاصة باتجاه معسكرنا القديم، ولكن أيًّا منهم لم يأتِ في طريقنا، أمسى الهاربون تعبين؛ حمر وبيض على حد سواء، غرقوا في نوم عميق. في المساء كانت رأسي ثقيلة وبالكاد تمكنتُ من إبقائها فوق صدري، أوشكت سِنَة النوم على التسلّل إليَّ عندما شد أحدهم كُمَّ مِعْطفي، وجدتُ (تشالنجر) جاثمًا بجانبي يحدثني بجدية:

- أنت تحتفظ بمذكرات عن هذه الأحداث، وتتوقع نشرها في نهاية المطاف، أليس كذلك يا سيد مالون؟

أجبته:

- أنا هنا مراسل صحفي فقط.

- بالضبط، هذا هو السبب، ربما سمعت بعض الملاحظات السخيفة للورد (چون روكستون) والتي يبدو أنها تشير إلى أن هناك بعض... بعض التشابه..

- نعم، سمعتهم.

- لا أريد القول إن أية دعاية لهذه الفكرة -أي غموض في سردك لما حدث- ستكون مُسيئة للغاية بالنسبة لي.

- سأقول الحقيقة ولا شيء غيرها.

- ملاحظات اللورد (چون) كثيرًا ما تكون خيالية للغاية، وهو قادر على افتعال أكثر الأسباب عبثية وافتقارًا إلى الاحترام الذي يظهر دائمًا من قبل الأعراق الأكثر تخلفًا، واحتياجًا إلى الكرامة والشخصية. هل تفهم ما أقول؟

- تمامًا.

- سأترك الأمر لتقديرك.

ثم بعد سكون طويل أضاف:

- ملك الرجال القردة مخلوق مميز، شخصية وسيمة وذكية بشكل ملحوظ. ألا تظن ذلك؟

قلتُ له:

- مخلوق رائع للغاية.

هدأ بال البروفيسور، عاد إلى سُباته مرة أخرى ونام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

هذه هي الفتوحات الحقيقية

كنا نتصور أن مطاردينا، رجال الغابة، لا يعرفون شيئًا عن مكان اختبائنا في الأجمة، ولكن سرعان ما أدركنا خطأنا. لم يكن هناك صوت في الغابة -لا صوت ورق شجر يتحرَّك ولا أغصان تهتزُّ، عَمَّ السلام حولنا- ولكن كان يجدر بنا التعلم من تجربتنا الأولى، كيف أن هذه المخلوقات ماكرة وذات دهاء وصبر، ومدى قدرتها على التريث والانتظار حتى تأتيهم الفرصة. مهما اختارت لي الحياة من مصائر، أنا متأكد أنني لن أكون أقرب إلى الموت مما كنت عليه في ذلك الصباح. سأخبركم بالأمر ولكن وفق ترتيبه المفترض.

استيقظنا جميعًا مُنهكين بعد كل تلك العواطف الرهيبة والطعام الهزيل بالأمس. وجدتُ (سمرلي) مُتعبًا لدرجة أنه لم يستطع الوقوف إلا بصعوبة؛ لكن هذا الرجل العجوز ممتلئ بنوع من الشجاعة الفائقة التي لا تعترف بالهزيمة أبدًا. عقدنا مجلسنا، اتفقنا على الانتظار بهدوء مُدة ساعة أو اثنتين حيث نحن، نأكل وجبة الإفطار التي نحن في أمسّ الحاجة إليها، ومن ثم نشق طريقنا عبر الهضبة وحول البحيرة الوسطى وصولًا إلى الكهوف، حيث رأيتُ الهنود يعيشون. مُعتمدين كل الاعتماد على تزكية أولئك السجناء الذين أنقذناهم، ومِن ثم نضمن ترحيبًا حارًّا من أقرانهم. ثم نصُب تركيزنا على كيفية الخروج من ذلك المكان، بعد نجاح مهمتنا، امتلاكنا المعرفة الكاملة عن أسرار أرض (مابل وايت). حتى (تشالنچر) بات مستعدًّا للاعتراف بأنه علينا فِعْل كل ما في وسعنا لتبليغ المعرفة التي اكتسبناها، وأن واجبنا الأول من هذا الوقت فصاعدًا هو حمْل الاكتشافات المدهشة التي وقفنا عليها إلى الحضارة.

تمكنَّا من إلقاء نظرة تفصيلية أكثر على الهنود الذين أنقذناهم. كانوا رجالًا صغارًا، نحيفين، نشطين، وأجسادهم مُتناسِقة، شعرهم أسود مربوط برباط جلدي أسود بدوره خلف رءوسهم، وملابسهم أيضًا من الجلد، وجوههم ملساء، ولديهم نذر يسير من الثقافة، وحِس الفكاهة الجيد. أظهرت آذانهم الجريحة المخضبة بالدم، أنها مثقوبة لوضع الحلي، التي مَزَّقَها خاطفوهم. ألفيتهم يتحدثون بطلاقة فيما بينهم وإن كانت لغة غير مفهومة لنا، تابعناهم وهم يشيرون إلى بعضهم البعض وينطقون بكلمة (أكّلا) عدة مرات، ومن ثم أدركنا أن هذا هو اسم المنطقة. مرة بعد مرة، بوجوه مُتشنِّجة من الخوف والكراهية، يهزون أيديهم ويشيرون إلى الغابة وينطقون:

- دودا! دودا!

بالتأكيد هذا هو مصطلحُهم الفريد لوصف رجال الغاب.

سأل اللورد (چون):

- أخبرني، ما رأيك بهم يا (تشالنچر)؟ هنالك شيء واحد فقط واضح بالنسبة لي، هذا الشاب الصغير حليق الرأس في الأمام هو من عِلْيَة قومهم.

من الواضح حقًا أن هذا الرجل يقف بعيدًا عن الآخرين، وأنهم لا يغامرون أبدًا بمخاطبته دون إظهار كل علامات الاحترام العميق. بَدَا أنه أصغرهم جميعًا، ومع ذلك فهو فخور جدًّا ومزهُوٌّ بنفسه حتى عندما وضع (تشالنچر) يده على رأسه، تملَّص منه مثل الحصان الهائج، وبخفة ومهارة ابتعد عن البروفيسور، ثم وضع يده على صدره عاقدًا أيها حول نفسه في مشهد يدل على الاعتزاز بالنفس، وتلفظ بكلمة (ماريتاس) عدة مرات. أمسك البروفيسور، وبلا خجل، بأقرب هندي له من كتفه، وشرع في إلقاء محاضرة عليه، كما لو أنه عينة محفوظة في وعاءٍ في غرفة المختبر.

قالها بنبرة رنَّانةٍ:

- يا لهؤلاء القوم، سواء حكمت عليهم بالنظر إلى حجم الجمجمة، أو زاوية الوجه، أو أي معيار آخر، لا يمكن تصنيفهم على أنهم نوع مُتدنٍّ من الأجناس. بل العكس تمامًا، يجب وضعهم في مرتبة مرتفعة مقارنةً بالعديد من قبائل أمريكا الجنوبية التي يمكنني ذكرها. لا يُمكن أبدًا فهْم كيف لجنس كهذا أن يكون نتاج تطور ما لمنطقة مثل هذه؟ بالمناسبة هناك أيضًا فجوة هائلة تفصل رجال الغابة عن الحيوانات البدائية التي نجت على هذه الهضبة، من غير المقبول اعتقادنا بأنهم تطوروا من الحيوانات.

سأله اللورد (چون):

- إذن بحق الجحيم من أين جاءت تلك الوحوش؟

أجابه البروفيسور:

- هذا -بلا شك- هو السؤال الذي سيُناقَش بشغف في كل مجتمع علمي في أوربا وأمريكا.

تابع:

- قراءتي الخاصة للوضع هي أن... أمسك عن الكلام ثم نفخ صدْرَه بشكل هائل، ونظر حوله بوقاحة، استطرد:

- أن التطور تقدَّم في ظل ظروف غريبة في هذا البلد ليشمل جميع أنواع الفقاريات، فأنشأ منها مخلوقات جديدة، أما الأنواع القديمة التي على قيد الحياة فهي تعيش وتتعايش معهم. وهكذا نجد مخلوقات معاصرة مثل (التابير) -مخلوق له نسب يُحترم- والغزلان العظيمة، وآكل النمل، نجد هذه المخلوقات تعيش في وئام مع زواحف العصر الجوراسي، هذا يُوضح لنا الكثير. والآن يأتي دور رجال الغابة والهنود، ما التفسير العلمي لوجودهم؟ لا أستطيع تفسير ذلك إلا عن طريق حدوث غزو من الخارج. من المحتمل في عصر بائد، أن الأنثروبويد الكامن في أمريكا الجنوبية، وجد طريقه إلى هذا المكان، ومن ثم تطور إلى المخلوقات التي رأيناها، وبعضها (هنا نظر بقوة في وجهي) بطريقة ما لديه من سمات وأشكال الذكاء، التي لا تُمتلك إلا بالاكتساب، وبعض الخبرات والتجارب، ولا أتردَّدُ حين أقول، إن فضل هذه النقطة انعكس على كُلِّ عرق حي هنا. أما عن الهنود فلا أشُكَ في أنهم مهاجرون أحدث عهدًا، قدموا من أسفل الهضبة. تحت ضغط المجاعة أو الغزو، وشقوا طريقهم إلى هنا، ثم وبعد مواجهة عنيفة مع تلك المخلوقات الشرسة التي لم يسبق لهم رؤيتها من قبل، لجأوا إلى الكهوف التي وصفها صديقنا الشاب، ولا شك في أنهم خاضوا معارك مريرة ضد الوحوش البرية،

وخاصة ضد رجال الغابة الذين يعدونهم متطفلين، ويشنون عليهم حربًا لا ترحم بمكر تفتقر إليه الوحوش الأكبر. ومن هنا نستنتج لماذا أعدادهم محدودة؟ حسنًا، أيها السادة، هل قرأتُ الموقف بشكل صحيح أم هناك نقطة غير واضحة؟

كان البروفيسور (سمرلي) مُكتئبًا جدًّا؛ لذا لم يُجادل، مع أنه هزَّ رأسه بعنف مُعترِضًا. حرَّك الكلام غرور اللورد (چون) بعد عِلْمه بصعوبة الصمود في معركة مع كائن في نفس وزنه وجنسه. من ناحيتي أديتُ دوري المعتاد بأخذ الأمور إلى مستوى عملي بحت من خلال الإشارة إلى أنَّ واحدًا من الهنود مفقود. قال اللورد (روكستون):

- ربما ذهب لجلب بعض المياه؛ لقد أعطيناه علبة لحم بقر فارغة وهو يغادر.

سألته:

إلى المخيم القديم؟

- لا، إلى الجدول. إنه بين الأشجار هناك، لا يمكن أن تكون المسافة أكثر من بضع مئات من الياردات. لكن يبدو أنه يأخذ وقتًا أكثر من اللازم.

قلتُ:

- سأذهب وأعتني به.

التقطتُ بندقيتي ومشيتُ في اتجاه الجدول، تاركًا أصدقائي ليجهزوا وجبة الإفطار الهزيلة تلك. على الرغم من أن المسافة قصيرة فإنه يبدو لك أن ما أفعله تهور؛ لذا سأذكرك أننا كنا على بُعْد أميال عديدة من بلدة رجال الغاب، وأنه على حسب معلوماتنا، فهذه المخلوقات لم تكتشف مكاننا. وعلى كل حال مع بندقية في يدي لم يكن لي بُدٌّ من الخوف منهم. لم أكن قد تعلمتُ بعد عن دهائهم وقوتهم.

سمعتُ خرير الجدول في مكان ما أمامي، لكن العديد من الشجيرات والأغصان حالت بيني وبينه. شققتُ طريقي عبر الشُّجيرات في نقطة بعيدة عن أنظار رفاقي، عندها لاحظت شيئًا أحمر مُتجمِّعًا بين الشجيرات. اقتربتُ منه، وصدمتُ عندما رأيتُ أنها جثة الهندي المفقود. وجدته مُستلقيًا على جانبه، وأطرافه مدقوقة، ورأسه مشدود في زاوية غير طبيعية، بَدَا وكأنه ينظر مباشرةً إلى كتفه. صرختُ مُحذِّرًا أصدقائي، هناك شيء ما خاطِئ. مضيتُ إلى الأمام وانحنيت مستشعرًا الجثة. ربما كان (ملاكي) الحارس قريبًا مني حينها، أو أنها غريزة الخوف، أو ربما بعض أوراق الشجر، أيًّا يكن، شيء ما جعلني أنظر لأعلى. من أوراق الشجر الخضراء الكثيفة التي كانت فوقي، برزت ذراعان طويلتان ممشوقتا العضلات يكسوهما الشعر بالأحمر، نازلة تجاهي ببُطء. لو انتظرتُ لحظة أخرى لكانت هذه الأيدي الخفية حول حلقي. تقهقرتُ للخلف سريعًا، لكني لم أكن سريعًا كفاية، هذه الأيدي أسرع. ومع ذلك جعلني اندفاعي المفاجئ أتفادى ضربة قاتلة، لكن مع هذا أمسكت إحدى الأذرع بي من مُؤخرة عنقي والأخرى وضعت على رأسي. وضعت يدي بلهفة على رقبتي أُغطِّيها لحماية حلقي، وفي اللحظة التالية انزلق مخلب ضخم على وجهي مطوقًا إياي رفعتُ بخفة من على الأرض، وشعرتُ بضغط لا يُطاق على رأسي حتى ما عدتُ قادرًا على تحمُّله. انطفأت حواسي كلها، لكنني ما زلتُ أحاول مقاومة تلك اليد الموضوعة على وجهي. نظرتُ إلى أعلى، رأيتُ وجهًا مُخيفًا

باردًا لا يرحم، بعيون زرقاء تنظر داخل روحي. هنالك شيءٌ مخدّر في هذه العيون. فقدتَ القدْرة على النضال، أستشعر المخلوق هذا أيضًا، ثم رأيتُ اثنين من الأنياب البيضاء تلمع للحظة في كل جانب من جوانب فم الوحش القذر، وبقبضته الشديدة تهزني صعودًا، فجأة اختفى كل شيء ورأيت ضبابًا رقيقًا بيضاوي اللون تشكل أمام عيني، أجراس فضية صغيرة ترن في أذني. من مسافة بعيدة وبلا مبالاة سمعتُ طلقات بندقية تبعها سقوطي على الأرض، ثم ذهب إحساسي بالزمان والمكان.

استيقظت لأجدني مُمَدَّدًا على ظهري فوق عشب مخبأنا داخل الأجمة، شخص ما قد أحضر الماء من الجدول واللورد (چون) يرش رأسي به بينما (تشالنچر) و(سمرلي) يسندونني والقلق يكسو وجوههم، للحظة لمحتُ أرواحهم البشرية وراء أقنعتهم العلمية. ما فعله بي صَدْمة، وليس إصابة، بعد نصف ساعة، على الرغم من آلام رأسي وتصلُّب رقبتي فإني كنتُ مستعدًّا لمواجهة أي شيء.

قال اللورد (روكستون):

- لقد نجوت بحياتك يا فتى. عندما سمعتُ صراخك ركضت إلى الأمام، ورأيتُ رأسك ملتويًا نصف التواءة وأقدامك تركل الهواء، ظننت أنها نهايتك. أطلقتُ النار على الوحش لكنني أخطأته، فأسقطك أرضًا ثم هرب في لمح البصر. بحق القديس جورج! تمنيتُ لو كان معي خمسون رجلًا يحملون البنادق لتخلصتُ من هذه الوحوش الجهنمية كلها، تاركًا هذه الغابة أنظف قليلًا مما وجدناها.

من الواضح الآن أنَّ رجال الغاب تبعونا بطريقة أو بأخرى، وأننا مراقبون من كل جهة. خلال النهار لا يوجد ما نخاف منه، بل من المرجَّح أن يأتونا ليلًا؛ لذا كلما أسرعنا في الهروب من هنا كلما كان ذلك أفضل. أحاطت بنا الغابة بأشجارها من ثلاث جهات مختلفة، لو خُضْنا فيها لوجدنا أنفسنا حتمًا في كمين. ولكن في الجهة الرابعة -التي انحدرت إلى أسفل في اتجاه البحيرة- هناك بضع أشجار متناثرة وبعض المساحات المفتوحة بين الحين والآخر. في الواقع، هذا هو الطريق الذي سلكته في رحلتي الفردية، الطريق الذي قادَني مباشرةً إلى الكهوف الهندية. يجب أن يكون هذا هو الطريق الذي نسلكه.

نَدِمنا أشدَّ الندم على تركنا مُخيمنا القديم وراءنا، ليس فقط من أجل المؤن التي تركناها هناك، ولكن أيضًا لأننا فقدنا التواصل مع (زامبو)، رابطنا بالعالم الخارجي. ولكن على كُلٍّ، لدينا زاد كافٍ من الخراطيش لجميع بنادقنا؛ لذلك -ولفترة من الوقت على الأقل- يمكننا الاعتناء بأنفسنا، وكنا نأمل أن تُتاح لنا الفرصة قريبًا للعودة واستعادة اتصالاتنا مع زنجينا المخلص. لقد وَعَدَنا بإخلاصٍ أن يبقى حيث هو، ولم يُساورنا أدنى شك في أنه سيحفظ وَعْدَهُ.

بُعيد الظهر بدأنا رحلتنا. سار القائد الهندي الشاب أمامنا كدليل لنا، لكنه رفض بسخط حمل أي شيء. خلفه سار الهنديان الباقيان على قيد الحياة حاملين مُمتلكاتنا الباقية على ظهورهم. أما أربعتنا -نحن الرجال البيض- مشينا في الخلف حاملين بنادقنا مُلقمة وجاهزة. كسر صمت الغابة الثقيل هتاف القردة العالي آتيًا من خلفنا، ربما فرحًا وانتصارًا برحيلنا أو ازدراءً لنا. لكننا لم نرهم أبدًا، كلما نظرنا إلى الوراء رأينا فقط لوحة كثيفة من الأشجار. لكن هذا الصراخ المستمر أخبرنا كم أن عددهم كبير. مع ذلك لم نرَ أيَّ علامة تدل على أنهم تبعونا، وسرعان ما وصلنا إلى منطقة أكثر عراءً خارج نطاق سلطتهم.

بينما كنا نتقدم لازمتَ مؤخرة المجموعة، ورحتَ أتأمل مشهد رفاقي الثلاث، فلم أملك إلا الابتسام، أهذا حقًّا هو اللورد (چون روكستون) الذي جَلَسَ في ذلك المساء على سجادة فارسية فخمة، بينما صورُهُ ذات اللون الوردي المعلَّقة حوله تعكس وهج الأضواء الملونة؟ وذاك الآخر هو البروفيسور المهيب الذي تضخم خلف مكتبه العظيم في أثناء دراساته المهولة في (إنمور بارك)؟ وأخيرًا، هل يمكن أن يكون هذا هو الرجل الذي كُرِّمَ في أثناء الاجتماع في معهد علم الحيوان؟ إنهم ليسوا أكثر من ثلاثة صعاليك يمكن للمرء أن يلتقي بأفضل منهم في مدينة (ساري لين). لقد قضينا أسبوعًا أو نحوه على قمة الهضبة، وكل ملابسنا الاحتياطية كانت في مخيمنا أدناها، حقًّا إنه أسبوع شديد علينا جميعًا، بالطبع قلَّتْ هذه الشدة بالنسبة للذين لم يتعاملوا مع رجال الغاب. أصدقائي الثلاثة كلهم فَقَدُوا قُبَّعاتهم، الآن يربطون المناديل حول رءوسهم، ملابسهم تدلَّت فوق أجسامهم كالخِرَق، وجوههم القاتمة غير الحليقة لم يكن من الممكن معرفتها. كل من (سمرلي) و(تشالنچر) يعرجان بشدة، بينما لا تزال قدماي تؤلماني بعد صدْمة الصباح، ورقبتي متصلِّبة مثل لوح من شدة القبضة التي كانت تُمسك بها. حقًّا كُنَّا مدعاة للشفقة، ولم أتعجب عندما رأيت رفاقنا الهنود ينظرون إلينا من وقت لآخر، لم أتعجب عندما رأيتُ الرعب والدهشة في أعينهم.

في وقتٍ مُتأخِّرٍ من الظهيرة، وصلنا إلى شاطئ البحيرة، وكلما خرجنا من الأدغال أكثر كلما رأينا صفحة الماء تمتَد أمامنا. صرخ أصدقاؤنا الهنود فرحِينَ، وأشاروا بشغف أمامهم. إنه حقًّا مشهد لا يُوصَف. على مَدِّ البصر رأينا السطح الزجاجي لِلماء مكسوًّا بأسطول كبير من الزوارق الآتية مباشرة حيث وَقَفْنا، كانوا على بُعْد أميال عندما رأيناهم لأول مرة، لكنهم اتجهوا نحونا بسرعة كبيرة، وسرعان ما كانوا قريبين جدًّا لدرجة أن المجذفين استطاعوا تمييز أشخاصنا. على الفور ندت عنهم صرخة مُدوية تدل على البهجة، ورأيناهم ينهضون من مقاعدهم، يُلَوِّحُون بمجاديفهم وبرماحهم بجنون في الهواء. ثم عادوا للتجديف مرة أخرى، ومضوا عبر المياه المتداخلة، أرسوا قواربهم على الرمال المنحدرة، وهرعوا إلينا، منحنين أمام القائد الشاب مُقدِّمين التحية والسلام. أخيرًا انبثق من بينهم رجل مُسِن يرتدي قلادة وسوارًا من الخرز الزجاجي اللامع، على كتفيه قطعة من الجلد الملون بالعنبر. احتضن الشاب برفقة الذين أنقذناهم، ونظر إلينا مليًّا، ثم طرح بعض الأسئلة، وبعد ذلك قدم إلينا ووجهه يعكس امتنانًا شديدًا، احتضننا أيضًا كُل بدوره. ثم -بناءً على أوامِره- ركعت القبيلة كلها أمامنا على الأرض في تكريم. شخصيًّا شعرتُ بالخجل وعدم الارتياح من هذا الفعل المبالَغ فيه، وقرأتُ ذات الشعور في وجوه (روكستون) و(سمرلي)، ولكن (تشالنچر) انتفش صدرُه مثل زهرة في الشمس.

قال (تشالنچر) وهو يُداعب لحيته، ناظرًا إليهم:

- ربما يكونون أنواعًا بدائية، لكن حالة الوقار التي ظهروا بها في حضور قادتهم تُمثل درسًا لنا نحن الأوربيون الأكثر تقدُّمًا. غريب كيف تكون غرائز الإنسان البدائي الطبيعية صحيحة؟!

من الواضح أنهم ينوون خوْض حربٍ، فكل رجل يحمل رمحه -مصنوع من الخيزران الطويل، مُطعم بالعظام- وقوسُه وسِهامه، مع نوع من العصا أو الفأس الحجرية متدلية إلى جانبه. نظراتهم المظلمة والغاضبة المصوبة إلى الغابة، التي وصلنا منها لتونا، وتكرار كلمة (دودا)، أوضح بما فيه الكفاية أن هؤلاء هم كتيبة الإنقاذ، المخولة باستعادة أو الانتقام لابن القائد الأعلى. عقدت القبيلة مجلسًا

وجلسوا جميعًا القرفصاء مكونين دائرة على الأرض، أما نحن، جلسنا على صخور البازلت قريبًا منهم ومكثنا نُشاهدهم. افتتح الحديث اثنان أو ثلاثة محاربين، وفي أعقاب كلامهم صاحَ صديقنا الشاب صيحة حماسية، ثم تحدَّث بحركات وإيماءات بليغة تمكنا من فهمها بوضوح كما لو كنا نعرف لغته. قال:

- ما فائدة العودة؟ عاجلًا أم آجلًا يجب القضاء عليهم. ما فائدة عودتي سالِمًا وقد قُتل رفاقي؟ لا أمانَ لنا هنا، نحن مجتمعون الآن وجاهزون.

أشار إلينا وقال:

- هؤلاء الرجال الغريبون هم أصدقاؤنا. إنهم مقاتلون رائعون، ويكرهون القردة مثلما نكرههم. إنهم يأمرون (أشار إلى السماء)، الرعد والبرق. متى سنحظى بفُرصة مثل هذه مجددًا؟ دعونا نمضي قُدُمًا، علَّنا نحصل على مستقبل آمِن أو نموت ونحن نحاول، وإلا كيف سنعود إلى نسائنا بلا خزي في وجوهنا؟

علَّق المحاربون الحُمْر الصِّغار على كلمات الفتى في أثناء حديثه، وعندما انتهى انفجروا في موجة عاتية من التصفيق والتعظيم، مُلوِّحين بأسلحتهم في الهواء. تقدم القائد العجوز إلينا، وسألنا بعض الأسئلة، مشيرًا في نفس الوقت إلى الغابة. أشار إليه اللورد (چون) حتى ينتظر إجابتنا ثم التفت إلينا قائلًا:

- حسنًا، الأمر متروك لكم، ماذا ستفعلون؟ من جانبي لديَّ بعض الأمور لأسويها مع رجال الغابة، وإذا انتهى الأمر بسحقهم جميعًا وإزالتهم من على وجه البسيطة، فلا أرى أن الأرض ستفتقدهم كثيرًا. سأذهب مع زملائنا الحمر الصغار وأنوي مساعدتهم للخروج من هذه المحنة، ماذا تقول أيها الشاب؟

- بالطبع سوف آتي.

- وأنت، يا (تشالنچر)؟

- سأتعاون بالتأكيد.

- وأنت، يا (سمرلي)؟

- يبدو أننا ننجرف بعيدًا عن هدف هذه البعثة،)لورد چون(. عندما تركت مقعدي المهني في لندن لم يكن الغرض هو قيادة غارة من المتوحشين على مستعمرة من القِرَدة البشرية.

قال اللورد (چون) مبتسمًا:

- إلى مثل هذه الأشياء تؤول الأمور في النهاية. لكننا سنواجههم، فما قرارُك؟

- يبدو قرارًا أرعنَ، لا يجب اتخاذه، لكن إذا كُنتُم جميعًا ذاهبين، فأنا لا أدري كيف يمكنني البقاء في الكواليس.

قال اللورد (چون):

- إذن سُوِّيَ الأمر.

ثم التفت إلى القائد، وأومأ برأسه وربت على بندقيته. سَلَّم علينا الرفيق العجوز مُشبِّكًا يده في يد كل واحد منا، بينما هَتَفَ رجاله بصوت أعلى من أي وقتٍ مضى. بالطبع فات الأوان للتقدم هذه الليلة؛ لذا أقام الهنود معسكرًا مؤقتًا. من جميع جوانبه انتشرت النيران تبرق وتضيء المكان. دخل بعضهم إلى الغابة، ثم عادوا قائدين (إغوانودون) أمامهم. مثل الآخرين، لديه علامة من القار على كتفه، رأينا أحد السكان الأصليين يخطو إلى الأمام مقتربًا من قائد الحيوان، ثم أخذ موافقته على ذَبْح الوحش، فقط حينها فهمنا أن هذه المخلوقات العظيمة كانت بمنزلة الملكية الخاصة لبعض الهنود كأنهم قطيع من الماشية، وأن هذه الرموز التي حيرتنا لم تكن أكثر من علامات تدل على المالك. عاجز، غبي، نباتي، ذو أطراف كبيرة ودماغ صغيرة، يُمكن لطفل مُحاصرتُه وقيادته. في بضع دقائق ذبح الحيوان وقطعت أوصاله، ثم وُزِّعت حتى تُطبخ على النيران المنتشرة في أرجاء المعسكر، جنبًا إلى جنب مع أسماك ساحلية اصطِيدَتْ من البحيرة.

استلقى (سمرلي) ونام على الرمل، لكننا تجولنا لساعتين بطول الشاطئ مُحاولين معرفة أشياء أكثر عن هذا البلد الغريب. لمرتين وجدنا حفرًا من الطين الأزرق، مثل التي رأيناها سابقًا في مستنقع الزواحف المجنحة. كانت هذه فتحات بركانية قديمة، ولسبب ما أثارت اهتمام اللورد (چون). أما على الصعيد الآخر ما جذب (تشالنچر)، كان فرقعة وغرغرة النبع الطيني الساخن، حيث تتشكل فقاعات كبيرة على سطحه. وضع داخلها عصا مجوَّفة وصرخ بسرور مثل تلميذ غر، عندما لمسها بعود ثقاب مشتعل، أحدثت فرقعة حادَّة نتج عنها شعلة زرقاء في. بدا أكثر سعادة، خاصة عندما جمع هذه الفقاعات في كيس جلدي، ربطه بنهاية العصا، ثم أطلقه مُحلِّقًا في الهواء.

- إنه غاز قابل للاشتعال، أخف بشكل ملحوظ من الهواء. وأودُّ القول بما لا يدع مجالًا للشك أنه يحتوي على نسبة كبيرة من الهيدروجين. موارد (ج. إ. ت) لم تُنفذ بعد يا صديقي الشاب. لقد أظْهرت لك في نهاية المطاف كيف يمكن لعقل عظيم تسخير الطبيعة لحسابه.

قال جُملته الأخيرة بنبرة يشوبها الغموض، ثم سكت.

لم يكن هناك شيء أكثر روعة من مشهد المياه أمامنا. كثرة عددنا والضوضاء التي صنعناها أخافت كل المخلوقات الحية، باستثناء بعض الزواحف المجنَّحة، التي حلقت فوق رءوسنا منتظرين الجيف التي سنخلفها، كل شيء ثابت على حاله في المخيم. لكن الأمور اختلفت بشدة في مياه البحيرة الوردية. كانت المياه تمور بحياة غريبة أخرى، ظهر بلون أردوازي وزعانف مسننة مرتفعة تنتهي بقمة فضية، ارتفع هذا الشيء ثم غاص في الأعماق مرة أخرى. تدفقت أشكال الزواحف غير المألوفة على الضفاف الرملية البعيدة، كالسلاحف الضخمة، والوحوش الغريبة، ومخلوق كبير مُسطَّح، يكسوه جلد أسود كثيف، أخذ يتلوَّى ثم غاص إلى أعماق البحيرة. في كل ركن من أركان البحيرة رأينا رءوسًا ثعبانية طويلة تبرز من الماء مُشكِّلة موجة من زبد البحر في أعقابها، رأيناها ترتفع وتنخفض برشاقة، مثل البجع، تتموج مع الموج كلما اصطدم بها. لم نلبث حتى رأينا واحدة من هذه المخلوقات تندفع إلى الضفة على بُعْد بضع مئات من الياردات منا فقط، كاشفةً عن جسد ذي شكل برميلي

وزعانف ضخمة، رقبة ثعبانية طويلة، دخل (تشالنچر) و(سمرلي) في حالة ثنائية من التأمل والإعجاب.

صاح (سمرلي):

- بليسيوصورس! إنه بليسيوصورس(85) المياه العذبة! لا أصدق أنني عشتُ لأرى منظرًا مثل هذا! نحن مباركون يا عزيزي (تشالنچر)، مباركون أكثر من أي عالم حيوان آخر في العالم!

حلَّ المساء، انقضى أوله فأشعل حلفاؤنا الأقوياء نيران المخيم، متوهِّجة بسحر أحمر اللون، أَحْكَمَ قبضته على عقول اثنين من علمائنا الذين كانوا هائمين في جمال البحيرة البدائية. حتى في الظلام، بينما نحن مستلقون على الشاطئ، وَصَلَ إلينا من وقتٍ لآخر صوت غطس وغوص المخلوقات الضخمة التي تخوض فيه.

في مطلع الفجر استيقظ المخيم بالكامل، وبعد ساعة أصبحنا جاهزين لبدْء رحلتنا التي لن ننساها. حتى في أكثر أحلامي جموحًا لم أتخيل أنني سأعيش لأكون مراسل حرب. لم أتصور أبدًا أن طبيعة المعركة التي سأنقلها ستكون هكذا، ها هي إفادتي الأولى من ميدان القتال.

زادت أعدادنا ليلًا بمُدَد جديدة من السكان الأصليين القاطنين في الكهوف، وربما بلغ عددنا أربعمئة أو خمسمئة عندما بدأنا التقدم. تقدمنا مجموعة من الكشافة ساروا في الجبهة، وخلفهم الجيش كله في طابور مستقيم، شققنا طريقنا حتى وصلنا إلى أطراف الغابة. هنا انتشروا مُشَكِّلين صفًّا طويلًا من الرماح والأقواس. (روكستون) و(سمرلي) اتخذوا موقعهم في الجناح الأيمن، بينما أنا و(تشالنچر) كنا في مُقابله.

كانا رفقة زمرة بَدَتْ آتية من العصر الحجري، كنا نحن أصحاب القول الفصل بفضل صانعي أسلحتنا القاطنين في شارعي القديس (جيمس) و(ستراند).

لم ننتظر عدونا كثيرًا. سرعان ما رأيناهم آتين من طرف الغابة المرتفع، مُسرعين بالهراوات والحجارة، مخترقين منتصف جيش الهنود. كانت خطوة شجاعة ولكنها حمقاء، رجال الغابة مخلوقات ذات أرجل عريضة بطيئة الحركة، في حين أن الهنود رشيقون مثل القطط فأخذوا يتصيدونهم. إنه لأمر مروع، رؤية الأفواه الصارخة والعيون المحدقة، تسرع وتندفع، ولكن في النهاية تبوء أهدافهم بالفشل، بينما السهم بعد السهم يُدفن في جلودهم. ركض أحدهم بجانبي، يصرخ ألَمًا، وفي صدره وأضلاعه دزينة من السهام الشائكة، وضعت رصاصة في جمجمته بدافع الرحمة، وسَقَطَ فاردًا أطرافه في الميدان. كانت هذه الطلقة الوحيدة التي أُطلقتها، ذاك لأن الهجوم استهدف منتصف الجيش، لم يحتَج الهنود هناك إلى مساعدة منا في صَدِّه. من بين كل رجال الغاب الذين هرعوا إلى القتال، لا أظن أن أحدهم نجا وعاد للأمان.

لكن الأمور أَمْسَتْ أكثر دموية كلما توغلنا في الأدغال. لمدة ساعة أو أكثر بعد دخولنا الغابة، كنا بالكاد قادِرين على حماية ذوينا عِوَضًا عن قتل رجال الغابة، الذين هاجمونا باستخدام عصا ضخمة، اقتحموا بها جيش الهنود مُسقطين بها ثلاثة أو أربعة في المرة قبل أن يقتلوا. حطمت ضرباتهم كل شيء هاجموه، حطم أحدهم بندقية (سمرلي)، وكاد يسحق جمجمته لو لم يطعنه هندي في قلبه، اعتلى

رجال غابة آخرون الأشجار التي فوقنا، أمطرونا بالحجارة وجذوع الأشجار ثم قفزوا وقاتلوا بشراسة حتى ماتوا.

تقهقر حلفاؤنا تحت الضغط الشديد، ولولا بنادقنا لكانوا انقلبوا على أعقابهم بالتأكيد. أعاد القائد العجوز حشدهم بشجاعة، وجعل يأمرهم بالقتال، رفع روحهم المعنوية فراحوا يفتكُون برجال الغاب الذين بدءوا يفرون من المعركة. بات (سمرلي) أعزل، أما أنا فكنتُ أفرغ ذخيرتي فيهم بأسرع ما يمكن، وعلى الجانب الآخر سمعنا طلقات بنادق أصحابنا المستمرة.

ثم بعد قليل، ساد الذُّعر، وبدأ الإنهيار والصراخ والعويل، هرع رجال الغاب هاربين بعيدًا في جميع الاتجاهات عبر الأجمات والشُّجيرات، في حين صرخ حلفاؤنا بفرحة وحشيةَ، متتبعين أعداءهم الهاربين سريعًا.

كل خلافات الأجيال التي لا تُحصى، كل الأحقاد والقسوة في تاريخهم القصير، كل ذكريات سوء المعاملة والوحشية والاضطهاد، كل هذا تقرَّر تطهيره اليوم. في النهاية انتصر الإنسان على الوحوش وخضع الوحش لسيده الحقيقي. لم يكن هناك أي ملجأ من شأنه حماية رجال الغاب الهاربين من الهنود السفَّاحين، من كل زوايا الأدغال تعالَى صوت عويلها وصراخهم ممزوجًا بارتداد الأقواس، كما أسقط رفاقنا الرجال القرود من مَكْمَنِها فوق الأشجار.

كنتُ أسيرُ خلف الآخرين عندما جاء كل من اللورد (چون) و(تشالنچر) لينضما إلينا. قال اللورد (چون):

- لقد انتهى الأمر، أظن أنه يُمكنكم التكفُّل بربط الأسرى، من الآن فصاعدًا كلما قلَّ ما نراه كلما أمكننا النوم بشكل أيسر.

رأيت عيون (تشالنچر) وقد أشرقت بشَهْوة إراقة الدم. قال بينما يمشي متبخترًا كديكٍ منفُوش:

- لقد نِلْنا شرف المشاركة في واحدة من أقوى المعارك الحاسمة في التاريخ أيها السادة، نوع المعارك الذي يُحدِّد مصير العالم، يا لهُ من شعور! أخبروني يا أصدقائي، ما معنى أن تُحْتَلَّ أُمَّة من قبل أخرى؟ إنه شيء عديم المعنى. تلك المعارك الشرسة، التي بدأت منذ فجر التاريخ، منذ انتصار رجل الكهف على النمور، ومنذ تمكن الإنسان من ترويض الفيلة، ذلك النوع من المعارك هو الفتوحات الحقيقية. يا للأقدار التي قادتْ رحلتنا لهذا المنعطَف الغريب! في النهاية جعلتنا نلعب دورًا مهمًّا في تحديد مصير هذا الصراع. من الآن فصاعدًا، باتتِ اليد العليا في هذه الهضبة للإنسان.

في النهاية كُنَّا بحاجة إلى إيمان قوي وراسخ لتبرير هذه المذبحة المأساوية. كلما تقدَّمْنا في الغابة وجدنا رجال الغاب مُكومين هنا وهناك، الرماح والسهام تخترق أجسادهم. طارد مجموعة صغيرة من الهنود الْمُجهدين أحد الرجال القرود فلما لحقوا به دفع الثمن غاليًا. ظللنا نستمع إلى أصوات الصراخ والعويل، مُهتدين بها إلى مكان المطاردة التالية. تراجع رجال الغاب مُتحصنين في بلدتهم، حاولوا المقاومة لمرة أخيرة، لكن موجة الهنود الساخطة سحقتهم، والآن حان وقت رؤية المشهد النهائي. عبر الساحة المؤدية إلى حافة الهاوية دُفع نحو ثمانين أو مئة ذكر، هم آخر الناجين. مشهد رأيته منذ يومين لكن باختلاف الأدوار. عندما وصلنا وجدنا الهنود يُشكلون نصف دائرة من الرماح،

أسنتها نحو أعدائهم، وفي دقيقة واحدة انتهى كل شيء، مات ثلاثون أو أربعون حيث كانوا. أما الآخرون، فقفزوا إلى الهاوية وهم يتدافعون ويصرخون ويخدشون، هربوا من موت إلى موت، ولاقوا حتفهم كما لقيه سجناؤهم من قبل، سقطوا على الخيزران الحاد الواقع على عمق ستمئة قدم. كان الأمر كما قال (تشالنچر) قبلًا، في النهاية انتصر الإنسان على الوحش، وخضع الوحش لسيده الحقيقي في أرض (مابل وايت). أُبِيد الذكور، ودُمِّرت بلدة رجال الغاب، طُردت الإناث والأطفال بعيدًا ليعيشوا حياة العبودية، الصراع الأزلي الذي دام سنين لا حصر لها وصل إلى نهايته الدموية الحتمية.

جَلَبَ لنا النصرُ فوائد عِدَّة. مرة أخرى تمكنا من زيارة مخيمنا والحصول على مُؤننا. تمكنا أيضًا من التواصل مع (زامبو)، الذي أصابه الرعبُ عندما رأى من بعيد مشهد سقوط سيل الرجال القردة عن الحافة.

أخذ يصرخ وعينه تكاد تغادر رأسه من فرط التحديق.

- ابتعد يا سيدي، هيا ابتعدا! إذا بقيت هناك سيقتص الديبيل(86) منك حتمًا.

قال سمرلي بلهجة قانعة:

- إنه صوتُ العقل! لقد حُظينا بما فيه الكفاية من المغامرات، وهي حتمًا ليست مناسبة لشخصياتنا أو مكانتنا الاجتماعية. أنا أُلزمك بكلمتك يا (تشالنچر). من الآن فصاعدًا ستكرس كل طاقاتك لإخراجنا من هذا البلد الرهيب، وتمهد لنا طريق العودة مرة أخرى إلى بلاد الحضارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

لقد شهدت أعيننا عجائب عظيمة

إنني أكتبُ هنا من يوم لآخر، لكني واثق أنه قبل الوصول إلى نهاية ما أكتبه، ربما أجسر على القول بأن الضوء سيُشرق خلال غيومنا. إننا موجودون هنا دون أي وسيلة واضحة للهرب، لقد بدأت هذه المسألة تصيبُنا بالمرارة والغضب. ومع ذلك، يُمكنني تخيل يوم يأتي نكون فيه سعداء؛ لأننا مكثنا هنا، حتى وإن حَدَث ضد إرادتنا؛ وذاك لأننا تمكنا من رؤية النذر اليسير من عجائب هذا المكان الفريد، والمخلوقات القاطنة فيه.

رأينا الهنود ينتصرون، يُبيدون الرجال القرود، كل هذا يُمثل نقطة تحول في تُراثنا وثروتنا. منذ ذلك الحين فصاعدًا، بِتْنا السادة الحقيقيين للهضبة؛ هذا لأن السكان الأصليين نظروا إلينا بمزيج من الخوف والامتنان، لقد ساعدناهم -بقوتنا الغريبة كما يقولون- على تدمير عدوهم الطبيعي. أدركتُ أنهم -لسلامتهم الخاصة- يتمنون رحيل أشخاص هائلين مثلنا، لكنهم لم يقترحوا أي طريقة يُمكننا من خلالها الوصول إلى السهول الكامنة أدنانا. هنالك، كما تقول علاماتهم، نفق يمكن من خلاله الوصول للمكان، وهو المخرج الذي رأيناه في الأسفل. مما لا شكَّ فيه أن كلًّا مِن القردة والهنود أتيا إلى هنا من خلاله في حقب زمنية مختلفة، واتبع (مابل وايت) ورفيقه ذات الطريقة. لكن في العام السابق حدث زلزال هائل، وسقط طرف النفق العلوي وأخفاه تمامًا. الآن عندما نتحدث عن رغبتنا في المغادرة، لا يملك الهنود إلا هز رءوسهم ورفع أكتافهم. ربما لا يقدرون على المغادرة حقًّا، وربما لا يريدون مساعدتنا على الهرب.

في نهاية الحملة المتوجة بالانتصار، طرد الباقون من قبائل رجال الغاب، سِيقوا عبر الهضبة (نُواحهم فظيع) حتى يُقيموا بجوار الكهوف الهندية، حيث سيكونون، من الآن فصاعدًا، عرقًا ذليلًا تحت أعين سادتهم. إنهم نسخة، وقحة، بدائية، من يهود بابل أو بني إسرائيل في مصر. يُمكننا في الليل سماع صرخة طويلة آتية من وسط الأشجار، حيث ينعى أشباه حزقيال(87))) البدائيون عظمتَهم البائدة مُتذكِّرين أمجاد مدينة القردة الراحلة. الأباريق الخشبية وجوارير المياه، كل هذا بات نسيًا منسيًّا.

بعد يومين من المعركة قطعنا الهضبة عائدين رفقة حلفائنا، أقمنا معسكرنا عند سفح منحدراتهم. أرادوا مشاركتنا الكهوف، لكن اللورد (چون) لم يوافق بأي حالٍ من الأحوال على هذا الاقتراح؛ لأنه من شأن هذا وضعنا تحت رحمتهم، إذا غُدِر بهم؛ لذا حافظنا على استقلالنا، جَهَّزنا أسلحتنا لأي حالة طارئة، حافظنا بالطبع على كونِ العلاقات ودية. ذهبنا إلى كهوفهم، التي تُعدُّ أبرز الأماكن باستمرار، ومع ذلك عجزنا عن تحديد أصَنَعَها الإنسان أم الطبيعة؟ كلهم في مستوى واحد، عبارة عن طبقة مُجوفة من الصخور الناعمة، التي تقع بين المنحدرات البازلتية فوقها، والجرانيت الصلب الذي شكل قاعدتها.

فُتحاتها على ارتفاع ثمانين قَدَمًا من سطح الأرض، تحتوي قاعدتها على سلالِم حجرية طويلة، ضيقة جدًّا ومنحدرة للغاية، لا يمكن لأي حيوان كبير تركيبها. أما في الداخل، فكُلُّ الكهوف دافئة وجافة،

ممتدين في ممرات مستقيمة متفاوتة الطول جنبًا إلى جنب مع التل، جدرانها رمادية ناعمة مزينة بالعديد من الصور الممتازة التي رُسمت بقطع الفحم وتمثل الحيوانات المختلفة في الهضبة. لو قضى كل كائن حي في البلاد نَحْبَه فسيجد المستكشف المستقبلي على جدران هذه الكهوف أدلة وافرة على الحيوانات الغريبة -الديناصورات والإغوانودون والسحالي السمكية- التي عاشت مؤخرًا على هذه الأرض.

منذ معرفتنا أن قطيع الإغوانودون الضخم، رُوِّضَ من قبل حلفائنا، وأنها ببساطة تمثل مصدرهم الأساسي من اللحوم، ونحن متأكدون أن الرجل، حتى بأسلحته البدائية، أثبت مكانته على هذه الهضبة. سرعان ما اكتشفنا أن الأمر ليس كذلك، وأنه لا يزال واقعًا تحت رحمتهم.

مضى ثلاثة أيام منذ أقمنا معسكرنا بالقرب من الكهوف الهندية التي حدثت فيها المأساة. في ذلك اليوم ذهب (تشالنچر) و(سمرلي) إلى البحيرة، حيث شارك بعض السكان الأصليين، تحت إدارتهم، في صيد عينات من السحالي العظيمة. مكثتُ أنا واللورد (چون) في معسكرنا، في حين تناثر عدد من الهنود على المنحدر العشبي أمام الكهوف مؤدِّين أعمالهم المختلفة. فجأة دوت في المكان صرخة إنذارية صاخبة، صاحبتها كلمة (ستوا) هائلة من مئة لسان. من كل حَدَب وصوب، اندفع الرجال والنساء والأطفال في موجة عنيفة وسريعة قاصدين المأوى، احتشدوا على الدرجات المؤدية إلى الكهوف في تدافُع مجنون.

نظرنا إلى أعلى، رأيناهم يُلوِّحون لنا من فوق الصخور، ويأمروننا بالانضمام إليهم في ملاذهم. قبض كلانا على البندقية مجلتنا، وخرجنا لمعرفة الخطر الذي يستعدي كل هذه الجلبة. فجأة خرج من سياج الأشجار القريب، مجموعة من اثني عشر أو خمسة عشر هنديًّا، يركضون من أجل حياتهم، وفي أعقابهم اثنان من الوحوش المخيفة التي أقلقت راحتنا لما كنا في المعسكر القديم، طاردتني في رحلتي الفردية. من حيث الشكل يبدون مثل العلاجم الرهيبة، التي تنتقل في سلسلة من الينابيع، لكن من حيث الحجم، فلها حجم لا يُصدَّق، أكبر من أكبر فيل. لم نرهم من قبل إلا ليلًا، وبالفعل إنهم حيوانات ليلية لا يخرجون من مخابئهم إلا إذا أُزْعِجُوا، كما حدث هنا. وقفنا نرمق المشهد مشدوهين متفاجئين، جلودهم المرقعة الممتلئة بالثآليل شبه شفافة شديدة الشبه بقشور الأسماك، سقطت عليها أشعة الشمس كاسية إياها بقوس قزح يتغير باستمرار في أثناء تحركهم.

لم يكن لدينا سوى القليل من الوقت لمشاهدتهم، في لمح البصر تفوقوا على الهاربين مُحدثين مذبحة رهيبة. طريقتهم في الصيد غريبة، أولًا يحيطون بصيدهم مكونين دائرة ثم الهبوط بثقلهم إلى الأمام نازلين على فريستهم المرة تلو المرة كل في دوره، تاركينها مُحطَّمة ومشوهة، ثم الارتداد إلى جانب الآخرين. صرخ الهنود البائسون من الرعب، لكنهم كانوا عاجزين، تابعوا ركضهم كما كانوا يفعلون، هاربين من القسوة والنشاط الرهيب لهذه المخلوقات الوحشية. هاجمت المخلوقات الواحد تلو الآخر، ولم يكن هناك نصف دزينة على قيد الحياة بحلول الوقت الذي أتيت فيه أنا ورفيقي لمساعدتهم. لكن معونتنا باتت بلا فائدة تُذْكَر، ولن تفعل سوى توريطنا في ذات الخطر. وقفنا على بُعْد مئات من الياردات، لقَّمْنا بنادقنا، وأطلقنا الرصاصة إثر أخرى على الوحوش، لكنها لم تُحدِث تأثيرًا كما لو أننا نرميهم بكريات من الورق. لم تعر طبيعة الزواحف خاصتهم الجروح اهتمامًا، وذلك راجع لعدم وجود مركز حسي دماغي خاص؛ لأن مراكز الإحساس لديهم مُنتشرة بطول حبالهم الشوكي؛ لذا من

الصعب التأثير فيهم بالأسلحة الحديثة. كل ما أمكننا القيام به هو محاولة إيقاف تقدّمهم عن طريق تشتيت انتباههم بوميض وهدير أسلحتنا، حتى نعطي فرصة لنا وللسكان الأصليين للوصول إلى الملاجئ. تُرَى أين المتفجرات؟ لم تُجْدِ رصاصات القرن العشرين نفعًا، ولا سهام السكان الأصليين المسمومة، المغموسة في دماء الأستروفانثوس والمنقوعة في إفرازات الجيف المتحللة. هذه الأسهم تحديدًا لم تكن ذات فائدة تذكر للصياد الذي هاجم الوحوش؛ لأن سُمها يأخذ وقتًا طويلًا، أطول مما يحتاج إليه هذا الوحش الغاشم للقضاء على مهاجمه. لكن عندما طاردنا الوحشان حتى بداية الدرجات، سمعنا صوت صفير السهام آتيًا من كل فُتحة في المنحدر فوقهم. في دقيقة واحدة كستهم السهام، ومع ذلك لم يصدر عنهم ما يدل على الألم، اخذوا يخدشون الدرجات التي من شأنها قيادتهم إلى ضحاياهم، حاولوا الصعود لكن طريتهم الخرقاء أتاحتْ لهم التسلق لبضع ياردات ثم انزلقوا عائدين إلى الأرض من جديد. أخيرًا نجح السم. أصدر أحدهم تأوهًا عميقًا وسقط على الأرض. أما الآخر فأخذ يدور حولٍ نفسه في دائرة من الصراخ والنحيب، استلقى على الأرض متلويًا لبضع دقائق ثم خمدت حركته. هلّل الهنود فرحين، تدفقوا من كهوفهم راقصين رقصة النصر المحمومة حول الجثث، شاعرين بنشوة مجنونة بقتلهم اثنين من أخطر أعدائهم. في الليل عمدوا إلى الجثث فقطعوها، ليس من أجل أكلها -لايزال السم نشطًا- لكن مخافة أن يولدوا وباءً. مع ذلك، لا تزال قلوب الزواحف العظيمة -التي في حجم وسادة- راقدة هناك، تنبض ببطء وثبات، ترتفع بلطف ثم تنخفض، مُتحدِّثة عن الحياة المستقلة الفظيعة التي عاشتها. هذا هو يومنا الثالث فقط من الهروب في الأدغال، وما زالت الأشياء المروعة تحدث.

يومًا ما، عندما أحصل على مكتب أفضل من عُلب اللحم المحفوظ وأدوات أكثر فائدة من كعب قلم رصاص، دفتر ملاحظات أقل اهتراءً، سأكتب بعض التفاصيل الكاملة عن هنود الأكالا؛ عن حياتنا بينهم، ولمحات عن الظروف الغريبة لأرض (مابل وايت) الرائعة. أقلها لن تخذلني ذاكرتي أبدًا، طالما ما زلتُ أتنفَّس، كل ساعة وكل عمل في هذه الفترة سيبرز بقوة ووضوح مثل الأحداث الغريبة الأولى في طفولتنا. لا يمكن لتلك الانطباعات الجديدة أن تمحو الأخرى العميقة. عندما يحين الوقت، سأصف تلك الليلة الرائعة الْمُضاءة بأشعة القمر المنعكسة على البحيرة العظيمة، عندما ظهر (إكثيوصور صغير) -مخلوق غريب- نصف فقمة، نصف سمكة، بعيونه المغطاة بالعظام على كل جانب من جوانب خطمه، وعين ثالثة مثبتة على الجزء العلوي من رأسه، كان عالقًا في واحدة من الشباك الهندية، التي عطلت زوارقنا حتى سحبناه إلى الشاطئ؛ في ذات الليلة اندفع ثعبان الماء الأخضر من الماء مهاجمًا قائد زورق (تشالنچر). سأخبرك أيضًا عن ذلك الشيء الليلي العظيم أبيض اللون -حتى يومنا هذا لا نعرف هل هو وحش أم زاحف- الذي عاش في مستنقع كريه شرق البحيرة، جسده يصدر وهجًا فسفوريًّا خافتًا في أثناء تجوله في الظلام. أضحى الهنود مرعوبين منه لدرجة أنهم لم يقربوا المكان، وعلى الرغم من أننا قمنا برحلات استكشافية عديدة ورأيناه في كل مرة فإننا لم نتمكن من شق طريقنا من خلال الأهوار العميقة التي عاش فيها. ليس لدي شيء أقوله إلا أنه بدا أكبر من بقرة، وله رائحة غريبة تشبه المسك. سأخبر أيضًا عن الطائر الضخم الذي طارد (تشالنچر) حتى المأوى الصخري ذات يوم؛ طائر جارٍ رائع، أطول كثيرًا من نعامة، رقبته مثل رقبة العقاب، ورأسه القاسي جعلا منه موتًا سائرًا. في أثناء صعود (تشالنچر) إلى بَرِّ الأمان، أصابته ضربة واحدة من المنقار المقوس قُبالة كعب حذائه، الذي بدا كأنه مقطوع بإزميل. هذه المرة على الأقل أفلحت الأسلحة

الحديثة ضد هذا المخلوق العظيم، الذي يبلغ طوله اثني عشر قدمًا من رأسه حتى قدميه - اسمه فورورخوس، وفقًا للبروفيسور- شهر اللورد (چون) بندقيته وسط موجة الريش والركل، والعيون الصفراء اللامعة. هل يُقَدَّر لي العيش حتى أرى هذه الجمجمة الوحشية معلقة بجوار جوائزه الأخرى في منزله؟

أخيرًا سأخبرك عن التوكسودون؛ خنزير غينيا العملاق، ذي الأقدام العشرة طولًا، والأسنان المدببة الحادة، الذي قتلناه في صباح رمادي وهو يشرب من البحيرة.

يومًا ما سأكتب عن كل هذه الأشياء بإسهاب. ووسط هذه الأيام التي تموج بالإثارة، كنت أجلس للرسم في الأمسيات الصيفية الجميلة، أو نستلقي على العُشْب بينما السماء الزرقاء العميقة فوقنا، حتى تتعجب الطيور السابِحة في السماء منا، وتتسلَّل المخلوقات الغريبة من جحورها لتراقبنا من فوق الأغصان الممتلئة بالفاكهة الحلوة، تختلس الأزهار الغريبة الجميلة التي تزين المرج بعض النظرات. أو تلك الليالي المقمرة الطويلة، عندما نستلقي بجانب البحيرة العظيمة، مشاهدين برعب ودهشة إضرابات سطحها المضاء باللون الفضي، أو نستمع لتناثر الماء إثر حركة وحش غامض في الظلام. يومًا ما في المستقبل، سأطلق لقلمي العنان واصفًا كل هذا.

لكن قد يسألني بعضُكم، لم كل هذه التجارب والتأخير، ألا يفترض بك وبرفاقك أعمال عقولكم وتكريس وقتكم في محاولة ابتكار بعض السُّبل التي يُمكنكم من خلالها العودة إلى العالم الخارجي؟ إجابتي هي، أن أحدًا منا لم يدخر جهدًا في هذه المسألة بالذات، لكن محهوداتنا ذهبت سُدًى. هنالك حقيقة واحدة وقفنا عليها، لن يفعل الهنود أي شيء من شأنه مساعدتنا. على عِدَّة أصعدة مختلفة هم أصدقاؤنا -قد يقول شخص آخر عبيدنا المخلصون- لكن عندما اقترح عليهم مساعدتهم في حمل وصنع الألواح الخشبية، لمحاولة صنع جسر نعبر به الهوة، أو عندما نرغب في الحصول على سيور من الجلد أو النباتات العارشة لتساعدنا على صنع الحبال، فقط نقابل بسخرية، ورفض لا يتزحزح، ومِن ثَمَّ لا يملكون إلا هز رءوسهم. حتى رئيسهم قابلنا بذات الإنكار العنيد، وجدنا الشاب الذي أنقذناه ينظر لنا بحزن، وأخبرنا بإيماءاته أنه حزين على رغباتنا صعبة المنال. منذ انتصارهم على رجال الغاب وهم ينظرون إلينا كأنَّنا بَشَر خارقون، حملوا النصر في أنابيب عجيبة؛ لذا ظنوا أنه طالما بقينا معهم، فسيكون حسن الحظ مصيرهم. عرض علينا الرئيس زوجة صغيرة ذات بشرة حمراء وكهف لكل منا فقط إذا أردنا ذلك، يريدوننا أن ننسى شعبنا ونعيش على الهضبة إلى أَبَدِ الأبدِين. على الرغم من كونهم طيبين وأننا نشعر بالامتنان ناحيتهم فإنه بَاتَ لزامًا علينا كبتُ رغباتنا الفعلية، وإبقاء خططنا طي الكتمان؛ ذلك لأننا نخشى أن يحاولوا جعلنا نمكث هنا بالقوة. على الرغم من خطر الديناصورات (وهو ليس أمرًا جللًا إلا في الليل؛ لأن أغلبها كما قلتُ سابقًا مخلوقات ليلية) فإنها قد ذهبت إلى معسكرنا القديم مرتين خلال الأسابيع الثلاثة المنصرمة، رأيت زنجينا المخلص جالسًا بجوار النار أسفل الهوة، ما زال يُراقِب وما زال ينتظر، نظرت بصبر فارغ إلى السهل العظيم علني أرى المساعدة التي نحن بحاجة لها، لكنى لم أرَ في الأفق البعيد سوى الصبار المتناثر، والأرض الممتدة الخالية حتى أجمة الخيزران.

هتف (زيمبو):

- سيأتون قريبًا يا سيد (مالون)، فقط أسبوع إضافي وسوف يعود الهندي، ومعه الحبال، وعندها سنأخذك إلى أسفل.

في أثناء عودتي من هذه الزيارة الثانية مررتُ بتجربة غريبة جعلتني بعيدًا عن رفاقي لليلة كاملة. كنتُ عائدًا من الطريق المعتاد، وصلت عند نقطة قريبة من مستنقع الزواحف المجنحة ثم رأيتُ شيئًا غريبًا يلوِّح في الأفق مقتربًا مِنِّي. هناك رجل يمشي داخل إطار من الخيزران المثني من جميع الجوانب، صانعًا قفصًا يُشْبه الجرس. لما اقتربت منه تضاعفت دهشتي لمعرفتي أن هذا الرجل هو اللورد (چون روكيستون). عندما رآني انزلق خارجًا منه، وسار نحوي وهو يضحك، ومع ذلك شعرتُ بالارتباك في أسلوبه.

قال:

- حسنًا أيها الشاب، أخبرني من الذي توقعتَ رؤيته هنا؟

سألته:

- ما الذي تفعله ها هنا؟

- أزور أصدقائي، الزواحف المجنحة.

- لكن، لماذا؟

- إنها وحوش مثيرة للاهتمام، ألا ترى هذا معي؟ لكنها انطوائية! ولديها عادات سيئة وقحة مع الغرباء، بالتأكيد أنت تتذكر؛ لذا لقد صنعت هذا الإطار الذي يمنع من جعل الأمور شخصية للغاية.

- لكن ما الذي تريده من المستنقع؟

نظر إليَّ بعيون متسائلة، وقرأت التردُّد في وجهه. في النهاية قال:

- هل تظن أن الناس الآخرين، بجانب العالم، يريدون معرفة الأشياء؟ إنني أريد دراسة هؤلاء الأعزاء المهولين. يكفيك هذا القَدْر.

قلتُ:

- بلا إهانة.

عاودتُه روح الدعابة والضحك. قال:

- بلا إهانة أيها الريفي الشاب، إنني ذاهِب للحصول على فرخ شيطاني صغير من أجل (تشالنچر). هذه واحدة من أعمالي، لا، لا أريد رفقتك. إنني آمن تمامًا في هذا القفص، أما أنت فلا. سأعود إلى المخيم بحلول الليل.

استدار وتركته يتجوَّل في الغابة، قفصه الاستثنائي حوله.

إذا كان سلوك اللورد (چون) في هذا الوقت غريبًا، فسلوك (تشالنچر) لا حدّ لغرابته. يُمكنني القول بأنه يمتلك سحرًا غير عادي يجذب الهنديات، وأنه يحمل في يده غصن نخيل كبير بات يضربهم به، عندما أصبحوا مُلجِّين، حتى أبعدهم عنه كما لو كانوا ذبابًا. رؤيته يمشي مثل مهرج ملكي، في يده شارة السلطة، ولحيته السوداء تتحرك أمامه، بينما تترك إصابته أثرًا في كل خطوة يخطوها، خلفه صف طويل من الفتيات الهنديات واسعات العيون، يرتدين ملابسهن المصنوعة من لحاء الشجر، لواحدة من أبشع الصور التي سأحملها معي. أما (سمرلي) فكان يقضي وقته بين جمع الحشرات والطيور المختلفة من على الهضبة -باستثناء ذلك الجزء الكبير الذي كرَّسه لصَبِّ اللوم على رأس (تشالنچر)؛ لأنه لم يُخرجنا من الصعوبات التي نواجهها- وتنظيف وحِفْظ عيناته.

أمسى (تشالنچر) مُعتادًا على المشي بمفرده كل صباحٍ، ثم العودة من وقت لآخر بوجه يكسوه الهمُّ والجدية، كأنه شخص يحمل العبء الكامل لأمر كبير على كتفيه. ذات يوم قادنا غصن النخيل الكامن في يده وصف عباده السائر وراءه، إلى ورشته المخفية، ومن ثم علمنا سِرَّ خططه.

المكان عبارة عن مساحة صغيرة وسط بستان نخيل. في وسطها أحد تلك الينابيع الطينية المغلية التي سبق ووصفتها. على حافتها تناثرت قطع جلدية من جلد الإغواندون، وقطع كبيرة من شيء غشائي مخدوش ثبت فيما بعد أنه معدة سحلية كبيرة من تلك القاطنة في البحيرة. ألفيتُ هذا الشيء مخيطًا ما عدا فُتحة صغيرة في أحد طرفيه. في هذه الفتحة وضع العديد من أعواد الخيزران المغروسة في الطين، هناك أقماع تجمع الغاز المتصاعد من بركة الطين الساخن. سرعان ما بدأ هذا العضو الرخو في التوسع ببُطْء، صاعدًا ونازلًا مما أضرَّ (تشالنچر) لربطه في جذع شجرة قريبة. بعد مُضِيِّ نصف ساعة، تحول العضو الرخو إلى كيس ممتلئ بالغاز، أظهر صوت التنفيث، شد السيور أن هذا الغاز قادر على جعل الأشياء تطفو. وقف (تشالنچر) مثل الأب السعيد بمولده الأول، أخذ يداعب لحيته وهو راضٍ عن نفسه، مُحدِّقًا في (سمرلي) الذي كسر حاجز الصمت قائلًا بصوت يقطر حمضًا:

- أنت لا تنوي جعلنا نصعد في هذا الشيء يا (تشالنچر)!

- بل أقصده يا عزيزي سمرلي، سأعطيك عرضًا تختبر فيه قوتها وجاهزيتها، وبعدها أنا متأكد أنك لن تتردَّد في الوثوق بها.

قال (سمرلي):

- يُمكنك إخراج هذا الأمر من رأسك مباشرةً، ولمرة واحدة. لا يوجد شيء على وجه الأرض سيجعلني أرتكب هذه الحماقة. لورد چون، أنا واثق أنك لن تفعل هذا الجنون؟

قال اللورد (چون):

- يا لكَ من عبقري مخادع، أودُّ رؤيتها تعمل.

قال (تشالنچر):

- وسوف تراها، منذ عِدَّة أيام وجهتُ كل طاقتي العقلية لحل مشكلة نزولنا من هذه المنحدرات. لقد أرضينا أنفسنا، وأسكتنا عقولنا بأننا عاجزون عن التسلق نزولًا، أنه لا وجود للنفق. كما كررنا كثيرًا

عجزنا عن بناء أي نوع من الجسور، التي من شأنها أعادتنا من حيث أتينا. تَرَى كيف نهتدي لوسيلة تُعنى بنقلنا؟ منذ مُدَّة وجيزة أخبرتُ صديقنا الشاب بأن الهيدروجين الحر يتدفق من باطن الأرض خارجًا من الفُتحات البركانية المنتشرة هنا وهناك. لقد راودتني فكرة عن منطاد. لقد كنتُ -حسنًا سأعترف- في حيرة من أمري، واجهتُ صعوبة كبيرة في إيجاد وعاءٍ صالح لاحتواء الغاز، لكن تأمل أعشاء هذه الزواحف الهائلة لفترة طويلة زودني بحل للمشكلة. انظروا إلى النتيجة!

وضع يده داخل سترته الْمُمزَّقة وأشار إلى ثمرة عمله بفخر.

بمرور الوقت، انتفخ كيس الغاز حتى أصبح مُستديرًا كبالون، جلده يرتجف بقوة. هتف (سمرلي):

- إنه جنون منتصف الصيف!

رأيت اللورد (چون) سعيدًا بالفكرة كلها، همس لي:

- إنه عجوز عزيز ماهر، أليس كذلك؟

حدث (تشالنچر) بصوت أعلى قائلًا:

- ماذا عن سيارة؟

- ستكون السيارة على قائمة اهتماماتي الْمُقْبلة. لقد خططتُ بالفعل لكيفية صُنعها وإرفاقها. في غضون هذا سأريكم كيف أن جهازي قادر على تحمل وزننا جميعًا.

- جميعًا، هل أنت متأكد؟

لا، هنالك جزء من خطتي ينص على أنَّ كُلَّ واحد سينزل به في دوره كما المظلة، ثم يقوم بسحب البالون بالطريقة التي سأعلمها له، أتمنى ألا نواجه صعوبة في الإتقان. لو أنه قادِر على تحمُّل وزن الواحد فينا، جعله ينزل برفق، فسيكون أدى مهمته على أكمل وجه. سأريكم الآن قدرتها.

أخرج قطعة كبيرة من البازلت، أُقيمت في المنتصف تمامًا حتى يسهل إيصال الأسلاك إليها. هذا الحبل بالذات هو الذي أحضرناه معنا في أثناء تسلقنا الهضبة. يبلغ طوله أكثر من مئة قدم، ومع أنه رفيع إلا أنه غاية في القوة. يبدو أنه أَعدَّ سلفًا نوعًا من الياقات الجلدية التي تتدلى منها الشرائط. وُضِع هذا الطوق على قبة البالون، جامعًا أجزاءه معًا، مما يضمن توزيع الضغط على مساحة كبيرة. ومن ثم ثُبِّتَتْ قطعة البازلت، تدلَّى الحبل -الذي رُبِطَ ثلاث مرات حول يد البروفيسور- من نهايتها.

قال البروفيسور بابتسامة سعيدة مترقبة:

- سأقوم الآن بإظهار قدرة بالوني على حمل الأشياء.

لما انتهى من كلامه، أخرج سكينًا وأَمَرَّها على السيور الجلدية.

لم تواجه بحثتنا خطرًا وشيكًا أكثر من الإبادة الكاملة. ارتفع الغشاء المنتفخ بسرعة مخيفة في الهواء. في لحظة سُحب (تشالنچر) جارًا قدميه خلفه. بالكاد ملكتُ الوقت الكافي لتطويق خصره لما ارتفع عن الأرض فقط لأجد أنني ارتفعتُ معه. أمسك اللورد (چون) بقدمي بقبضة تبدو كأنها مصيدة

فئران، لكني شعرت به يرتفع عن الأرض. للحظة كنا أربعة مغامرين طافين في الهواء، مُتعلقين ببعضنا البعض كسلسلة من النقانق، مُحَلِّقين فوق الأرض التي اكتشفناها. لكن لحسن الحظ، هناك حد من الإجهاد تتحمله الحبال، مع عدم وجوده على ما يبدو في هذه الآلة الجهنمية. فجأة حدث صدع حادّ، ثم وجدنا أنفسنا ساقطين على الأرض مع لفائف من الحبال في كل مكان. لما تمكنا من الوقوف على أقدامنا، حتى وإن كانت وقفة مترنِّحة، أمكننا رؤية بقعة مُظلمة في السماء الزرقاء الطافية هي بقايا البالون وقطعة البازلت المسربين في طريقهم.

صاح (تشالنچر) وهو يفرك ذراعه المصابة:

- رائع! هذا بالتأكيد عرْض أكثر شمولًا وإرضاءً! ما كنتُ لأتخيل نجاحًا مثل هذا. أعدُكم أيها السادة، خلال أسبوع واحد سيكون لدينا بالون جديد، يُمكن الاعتماد عليه لنعبُر المرحلة الأولى من رحلتنا إلى الوطن براحة وأمان.

لقد دونتُ حتى الآن كل الأحداث السابقة تمامًا كما حدثت. سأقوم بنقل روايتي الآن إلى المعسكر القديم، حيث ينتظرنا (زامبو)، رباه لقد انتظر طويلًا. إنه شاهِد على كل الصعوبات والمخاطر التي مررنا بها، أما الآن تبدو هذه الأشياء مثل حلم بعيد، تمامًا مثل البرج الصخري الكامن فوق رءوسنا. لقد نزلنا آمِنين، وإن كنا نرتدي أزياءً غير مألوفة، لكن كل شيء أمسى على ما يُرام. خلال ستة أسابيع، أو ربما شهرين سنكون في لندن، قد لا تصلك هذه الرسالة في وقتٍ أبكر مما سنصِل فيه. إن قلوبنا تواقة، وأرواحنا تطير ناحية المدينة الأم العظيمة، التي تحمل في أزقتها كل عزيز علينا.

حَدَثَ هذا في مساء يوم مغامرتنا المحفوفة بالمخاطر مع بالون (تشالنچر) منزلي الصنع. سبق وقلتُ: إن الشخص الوحيد الذي أبدى تعاطفًا مع محاولات هروبنا هو القائد الشاب الذي أنقذناه. يبدو أنه الشخص الوحيد الذي لم تكن لديه رغبة في إبقائنا في هذه الأرض الغريبة رغمًا عنا. لقد أخبرنا ما قدر عليه من خلال لغة الإشارات. في المساء، بُعيد الغسق، نزلنا إلى معسكرنا الصغير، سلمني -لسبب ما، رأيتُ أنه دائم الانتباه لي، ربما لأني أقربهم عمرًا إليه- لفة صغيرة من لحاء الشجر، ثم أشار إلى صف الكهوف الكامنين فوقه، ووضع أصبعه على شفتيه للسِّرِّية ثم طفق عائدًا إلى شعبه.

حملتُ حزمة اللحاء، حيث فحصناها معًا أمام النار. كانت عبارة عن قدم مربع، لما فتحناها وجدنا على وجهها الداخلي خيوطًا مفردة مرتبة، أعيد إنتاجها من اللحاء. تم صنعها بدقة عن طريق وضعها على السطح الأبيض ومن ثم إمرار الفحم عليها، خُيِّل إليَّ -من النظرة الأولى- أنها نوع من النوتات الموسيقية.

قلتُ:

- مهما كانت ماهية هذا الشيء، فكُلِّي ثقة أنه مهم بالنسبة لنا. لقد قرأتُ هذه في وجهه لما أعطانيها.

قال (سمرلي) مقترحًا:

- إلا إذا كُنَّا نتعرض لعملية سخرية بدائية، التي يُخيَّل إليَّ أنها ستكون واحدة من أكثر التطورات الأولية للإنسان.

قال (تشالنچر):

- من الواضِح أنها مخطوطة من نوعٍ ما.

رفع اللورد (چون) قبعته ليُلقِي نظرة أدق عليها، علق قائلًا:

- إنها تبدو مثل مسابقة ألغاز غينيا.

قالها ثم مَدَّ يده قابضًا عليها. ثم قال:

- بحق القديس جورج! أظن أنني حصلتُ عليها. تخمين الفتى الأول صحيح تمامًا. أنظر هنا، ما عدد العلامات الموجودة على هذه الورقة؟ ثمانية عشر. حسنًا، إذا فكرت في الأمر، هناك ثمانية عشر كهفًا على التل فوقنا.

قلتُ:

- لقد أشار إلى الكهوف لما أعطاني اللفافة.

- حسنًا، هذا يُقرِّب الأمور. هذا رسم للكهوف، ماذا؟! ثمانية عشر منهم على التوالي، بعضها قصير، بعضها عميق، والآخر متفرِّع كما رأينا. إنها خريطة، هناك علامة تقاطع هنا. تُرَى لمَ وضعت هذه العلامة؟ لقد وضعت هنا لتمييز شيء أعمق كثيرًا من الآخرين.

صحتُ:

- إنه واحد يمرُّ خلالهم.

قال (تشالنچر):

- أظن أن صديقنا الشاب قد قرأ اللُّغْز، إذا لم يكن هذا الكهف يمر من خلالهم فعلًا، فأنا لا أفهم لم يقوم شخص، يعي أهدافنا جيدًا بتوجيه اهتمامنا لهذا الرسم، لكن إذا استمرَّ حتى نقطة مقابلة على الجانب الآخر، فلن يكون على عُمْق أكثر من مئة قدم نزولًا.

صاح (سمرلي):

- مئة قدم!

قلتُ:

- حسنًا، إن حبالنا أطول من مئة قَدَم.

- مؤكد أنه يُمكننا النزول.

قال (سمرلي) مُعْترضًا:

- ماذا عن الهنود الموجودين في الكهوف؟

قلتُ:

- لا يوجد هنود في الكهوف الموجودة فوق رءوسنا، كلها تَستخدم مستودعات. لم لا نذهب الآن إلى أحدها متجسِّسين؟

هنالك خشب بيتومين(88) جاف على الهضبة -نوع من الأروكاريا، وفقًا لما يقوله عالم النباتات خاصتنا- والذي يستخدمه الهنود دائمًا في صُنع المشاعل. التقط كل واحد منا قطعة منه، شققنا طريقنا صعودًا على الأرض المغطاة بالأعشاب الضارة، قاصِدين الكهف الذي وضعت علامة عليه في الخارطة. وجدناه -كما قلتُ- فارغًا ومسكونًا بأعداد لا حصر لها من الوطاويط، التي حلقت فزعة لما دلفنا. لم يكن لدينا رغبة في رسم أو معرفة أرض الهنود؛ لذا تخبطنا كثيرًا في أثناء سيرنا في الظلام، ذهبنا حول عدة منحنيات متعمقين داخل الكهف. في النهاية أضأنا مشاعلنا. وجدنا أنفسنا في نَفَقٍ جاف جميل، جدرانه رمادية، قاعة مزدانة بالرموز القديمة، سقفه منحنٍ مقوس فوق رءوسنا، وأرضيته رمال بيضاء تتخلل أقدامنا. هرعنا فيه مُسرعين، لكن صرخة خيبة الأمل العميقة أوقفتنا. ظهر أمامنا جدار صخري، لا يوجد به ثغرة يُمكن لفأر العبور منها حتى، لا يوجد مهرب لنا. وقفنا بينما قلوبنا تأكلها المرارة، مُحدِّقين في هذه العقبة غير المتوقعة. لم يكن هذا الجدار نتيجة تخلخل مثله مثل النفق الصاعد. هذا الجدر النهائي يُشبه الجانبي، ثابت لا يتزحزح، هذا طريق مسدود.

قال (تشالنچر) الذي لا يُعجزه شيء:

- لا تهتموا يا أصدقائي، ما زال لديكم وعدي الراسخ ببالون.

تأوه (سمرلي)، قلتُ مقترحًا:

- أيُعْقل أننا في الكهف الخطأ؟

قال اللورد (چون) واضعًا أصبعه على الرسم:

- ليس ممكنًا أيها الشاب، إنه السابع عشر من اليمين، والثاني من اليسار. هذا هو الكهف؛ إنني متأكد بما فيه الكفاية.

نظرت إلى حيث أشار، ثم ندتْ عنِّي صرخة مفاجئة.

- أظن أنني فهمتُ! اتبعوني! اتبعوني!

أسرعت عائدًا بطول الطريق الذي قدمنا منه، ممسكًا شعلتي بيدي.

قلتُ -وأنا أشير إلى أعواد الثقاب المتكومة على الأرض-:

- هنا، حيث أشعلنا المشاعل.

- بالضبط.

- حسنًا، لقد وضعت علامة على أنه كهف متشعب، لقد تجاوزنا مفترق الطرق هذا في الظلام قبل إشعال المشاعل. على الجانب الأيمن وفور خروجنا سنجد الذراع الأطول.

حدث الأمر مثلما قلتَ. بالكاد قطعنا ثلاثين ياردة، لاح في الأفق فتحة سوداء كبيرة تحتل الجدار. دلفنا فيها فوجدنا أننا في ممر أطول كثيرًا. سِرْنا لمسافة مئات الياردات بصبر نافد، وصَدْر لاهِث. وفجأة، في ظلمة الكهف الطاغية رأينا وميضًا من الضوء الأحمر الداكن. حدقنا فيه مشدوهين. تبدو كقطعة من اللهب تعبر الممرَّ معترضة طريقنا. سرنا نحوها. لا صوت، لا حرارة، لا حركة صدرت عنها. ومع ذلك لا يزال الستار المضيء يُومِض أمامنا، أمسى الكهف قطعة من الفضة، وتحوَّلت الرمال إلى جواهر مسحوقة، لما اقتربنا اكتشفنا حافة دائرية.

صاح اللورد (چون):

- بحق القديس جورج، إنه القمرَ لقد عبرنا يا أولاد! لقد عبرنا!

إنه بالفعل البدر الذي أشرق مباشرة أسفل الفتحة التي تقود إلى المنحدرات. إنه صدع صغير، لا يتعدى حجمه النافذة، لكنه كافٍ لكل أغراضنا. لما نظرنا من خلاله علمنا أن النزول ليس صعبًا جدًّا، وأن الأرض المستوية، المنبسطة بطريقة رائعة أسفلنا. لا عجب أننا لم نتمكن من التسلق نازلين من الأعلى، لاحظت المكان حيث المنحدرات مُنحنية بشدة، في الواقع بدا الأمر مستحيلًا لدرجة تثبط عزيمة التفتيش الدقيق. لقد أرضينا أنفسنا بما فيه الكفاية، بمساعدة هذا الكهف سنجد طريقنا لأسفل، علينا الآن العودة إلى معسكرنا لنقوم باستعداداتنا لمساء اليوم التالي.

ما ننوي فعله يجب أن نفعله بسُرعة وسِرِّية، حتى في ساعتنا الفائتة هذه يقدر الهنود على منعنا. قررنا ترك المؤن كلها باستثناء البنادق والذخيرة، لكن (تشالنچر) أوضح أن لديه أشياء يرغب فيها بشدة، خاصة حزمة معينة لن أتحدث عنها، مع أنها أصابتنا بالتعب أكثر من غيرها. مَرَّ اليوم بطيئًا ثقيلًا على قلوبنا، عندما أتى الظلام أخيرًا بِتْنَا مستعِدِّين للمغادرة. كدسنا أشياءنا جوار بعضها البعض، صَعِدْنا، ثم التفتنا مُلقين آخر نظرة على هذه الأرض الغريبة، أخشى أن أكون مبتذلًا، لكن هذه الأرض تمثل لكل منا أرض الأحلام؛ حيث بريق من الدراما والرومانسية، هذه هي الأرض التي تجرأنا فيها كثيرًا، عانينا الكثير والكثير، تعلمتُ أكثر أنها أرضنا كما سنسميها باعتزاز. يسارنا وعلى طول الطريق ألقت الكهوف لونها الأحمر، بينما شُعل النار تتأجج في فمها. أسفلنا حيث المنحدر تعالى صوت الهنود وهم يضحكون ويُغنون. وراءنا سادَت الغابات، وفي الوسط تمامًا هناك وميض غامض يُبدِّد الظلام حيث البحيرة العظيمة، أم الوحوش الغريبة. بينما ننظر لكل هذا، صدرت صرخة عالية، نداء حيوان غريب، رنَّ واضحًا في الظلام. هذا صوت أرض (مابل وايت) وهي تودعنا. استدرنا، وانغمسنا في ظُلْمة الكهف الذي يقودنا إلى المنزل.

بعد مرور ساعتين كُنَّا وأمتعتنا على سفح المنحدر. باستثناء أمتعته (تشالنچر) التي لم نستطع الحصول عليها؛ حيث تركنا كل شيء لما نزلنا، شققنا طريقنا إلى معسكر (زامبو). في الصباح اقتربنا منه، لكننا وجدنا لدهشتنا دزينة من حفر النار عِوَضًا عن واحدة. لقد وصل فريق الإنقاذ، رأيت عشرين من هنود النهر على الأقل، معهم الأوتاد والحبال وكل شيء من شأنه أن يكون مفيدًا. أقلها لن نجد صعوبة الآن في حمل أمتعتنا، غدًا نبدأ رحلتنا عائدين إلى الأمازون.

وهكذا، بمزاجٍ متواضع وشاكِر، اختتم هذه الكلمات. لقد رأت أعيُنُنا عجائب عظيمة، وتأدبت أرواحنا بما عانينا. كلٌّ بطريقته الخاصة هو أفضل الرجال. ربما سنتوقف في (بارا) من أجل التزود بالمؤن.

لو حدث وفعلنا هذا، فيمسى هذا الخطاب بريدًا في المستقبل، وإذا لم يكن، فسيصل إلى لندن في ذات يوم وصولنا. في كلتا الحالتين أتمنى مصافحتك في القريب العاجل عزيزي السيد (مكاردل).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

موكب! موكب!

أرغب وبشدة في تسجيل امتناننا لجميع أصدقائنا في الأمازون على اللطف الكبير والضيافة التي أظهروها لنا في رحلة العودة. على وجه الخصوص، أودُّ شكر السينيور (بينالوزا) والمسئولين الآخرين من الحكومة البرازيلية على الترتيبات الخاصة التي ساعدتنا طوال طريقنا، السينيور (بيريرا) من بارا، الذي ندين له بالشكر على المظهر اللائق الذي وجدناه جاهزًا لنا في تلك المدينة. بِتْنَا ملزمين على مقابلة كل المجاملات التي قُدِّمَت لنا على أنها خداع من المضيفين والمتبرعين، ولكن في ظل هذه الظروف لم يكن لدينا بديل حقًّا، بموجب هذا أقول إنهم سيهدرون وقتهم وأموالهم إذا حاولوا متابعة آثارنا. حتى الأسماء قُمْنَا بتغييرها في سجلاتنا، وأنا متأكد تمامًا أنه لا يمكن لأحد من أكثر المتأملين، الذهاب على قرابة ألف ميل من أرضنا المجهولة.

تخيلنا أن الإثارة التي سبَّبناها في تلك الأجزاء من أمريكا الجنوبية ذات تأثير محلي بحْت، ويمكنني التأكيد لأصدقائنا في إنجلترا أننا لم نفكر في إحداث الضجة التي أحدثتها الشائعات عن تجاربنا في جميع أنحاء أوربا. بالطبع لم نعلم شيئًا من هذا حتى وصلنا إفرنيا التي تبعُد قرابة خمسمئة ميل من ساوثهامبتون، هنا انهالت علينا الرسائل اللاسلكية والبرقية تلو الأخرى، وقدمت الوكالات أسعارًا هائلة للحصول على رسالة قصيرة نقُصُّ فيها النتائج الفعلية لما قُمْنا به، كل هذه الأشياء أظهرت لنا مدى اهتمام العالم ليس العلمي فقط بل عامة الناس أيضًا.

ومع ذلك، اتفقنا فيما بيننا على أنه لا ينبغي لنا إعطاء بيان محدد للصحافة حتى نلتقي بأعضاء معهد علم الحيوان؛ ذلك لأننا بصفتنا مندوبين فمن واجبنا تقديم تقريرنا الأول إلى الهيئة التي جعلتنا لجنة التحقيق الخاصة بها في المقام الأول. وهكذا، على الرغم من أننا وجدنا ساوثهامبتون ممتلئة بالصحافة فإننا رفضنا تمامًا تقديم أي معلومات، مما زاد من تركيز واهتمام الجمهور على الاجتماع الذي أُعْلِن عن انعقاده مساء السابع من نوفمبر.

تقرَّر عقد هذا الاجتماع، في قاعة معهد علم الحيوان التي كانت مسرحًا بدأت فيه مهمتنا، بَدَتْ هذه القاعة صغيرة جدًّا نظرًا لعدد الحضور المتوقعين، ولم يكن من الممكن العثور على أماكن أكبر إلا في قاعة الملكة في شارع (ريجنت). حاول المنظمون حجز قاعة (ألبرت) لكن المساحة بدت ضئيلة أيضًا.

وَصَلْنا مساء اليوم التالي، تحدَّد الاجتماع الكبير أخيرًا. لأول مرة نجد شئوننا الشخصية مطروحة للعامة. من ناحيتي لا أقدر على التحدُّث.

لربما يكون الأمر أيسر عندما يدور في فلك غير فلكي، عندها أستطيع التفكير فيه، التحدث عنه، بعاطفة أقل. لقد بينتُ للقارئ في بداية سردي للأحداث كيف حدثت القصة. ومن الصواب، الاستمرار في السرد حتى أظهر النتائج، ونقف معًا على نهاية لقصتنا. ربما لا نصل لهذا اليوم أبدًا. لكن أقلها أُتيحت لي فرصة المشاركة في مغامرة عجيبة، ولا يسعني إلا أن أكون شاكرًا للقوة التي سيَّرتني لها.

والآن أنتقل إلى آخر لحظة حافلة بالأحداث في مغامرتنا.

شرعتُ أُعْمِل عقلي الذي يعبث بي في محاولة إيجاد أفضل وصْف أبدأ به كلماتي، سقطت عيناي على الجريدة الموضوعة أمامي؛ عدد الثامن من نوفمبر، التي تحتوي البيان الكامل والممتاز لصديقي وزميلي المراسل (ماكدونا). تُرَى كيف يمكنني تقديم روايتي بشكل أفضل مما فعل هو؟ أعترف بأن الصحيفة كانت مندفعة في هذه المسألة، لما أرسلت مراسلًا خاصًّا، وهي مجاملة واضحة لمشروعها، لكن الصحف اليومية الأخرى الكبيرة منها والصغيرة لم تفعل أقلَّ مِن هذا. بدأتُ أقرأ ما دوَّنه زميلي في تقريره:

«العالم الجديد..

اجتماع مُدهش في قاعة الملكة..

مشاهد صاخبة..

تُرَى كيف كان الأمر؟

أعمال شغب ليلية في شارع ريجنت (خاص)».

إن اجتماع معهد علم الحيوان الذي نُوقِش كثيرًا، والذي عُقِد من أجل الاستماع إلى تقرير لجنة التحقيق المرسلة في العام الماضي إلى أمريكا الجنوبية من أجل التيقن من صِدْق ادعاءات البروفيسور (تشالنچر) بشأن وجود نوع من حياة ما قبل التاريخ في تلك القارة، عقد الليلة الماضية في أكبر قاعات الملكة، ربما يسعني القول بأنه من المرجَّح كونه الأكبر في تاريخ العلوم؛ لأن الشخصيات التي قدَّمته كانت رائعة ومُثيرة للغاية، لا أحد ممن حضر يمكنه نسيانهم. «أوه، يا عزيزي ماكدونا، يا لها من جملة افتتاحية وحشية!».

كانت التذاكر المطروحة حِكرًا على أعضاء المعهد والأصدقاء، لكن الكلمة الأخيرة مصطلح مَرِن، قبل الساعة الثامنة بوقت طويل، هي الساعة المحددة لبدء الفعاليات، كانت جميع أجزاء القاعة الكبرى مكتظة. ومع ذلك، اقتحم عامة الناس الأبواب ما بين الثامنة والثامنة والربع، بعد مشاجرة عنيفة أُصِيب فيها العديد من الأشخاص، بما فيهم المفتش (سكبل)، الذي كُسرت ساقه للأسف.

بعد هذا الغزو غير المبرر، الذي لم يملأ الممرات كلها فحسب، بل امتدَّ حتى المساحة المخصصة للصحفيين، تشير التقارير إلى أن خمسة آلاف شخص أو نحو هذا انتظروا وصول المسافرين. في نهاية المطاف عندما ظهروا أخذوا أماكنهم على المنصَّة التي تحتوي بالفعل على كبار العلماء، ليس فقط في بلدنا، ولكن من فرنسا وألمانيا كانت السويد أيضًا، مثلها البروفيسور (سرجيوس)، عالم الحيوان الشهير في جامعة (أوبسالا).

لما دخل الأبطال الأربعة ضجَّت القاعة بالترحيب، وقف الجمهور بأكمله وظلَّ يهتف لعدة دقائق. ومع ذلك، ربما رأى مراقب حاد بعض علامات المعارضة وسط التصفيق، أنه لربما أصبحت الفعاليات أكثر حيوية منها. في الوقت الحالي ساد الأمان، لم يكن بمقدور أحد توقع المنعطف الاستثنائي الذي اتخذته الأحداث بالفعل.

لما ظهر المغامرون الأربعة، رأيناهم يحملون آثارًا قليلة تدُل على المصاعب التي يقال إنهم مرُّوا بها. ربما أصبحت لحية البروفيسور (تشالنچر) أكثر تشعثًا، وبدا البروفيسور (سمرلي) زاهدًا، وجسد اللورد (چون روكستون) أنحف، لوحت الشمس ثلاثتهم، أظهرتهم بلون أغمق مما كانوا عليه عندما غادروا شواطئنا، ومع ذلك بدوا في صحة ممتازة للغاية.

أما بالنسبة لممثلنا، الرياضي المعروف ولاعب الرجبي الدولي مالون، فيبدو كثيف الشعر، انطبعت على مُحيَّاه ابتسامة تشع رضا وروح دعابة وهو يطالع الحشد، وما زادها بهاءً هو وجهه الصادِق المألوف.

«حسنًا يا ماك، انتظر حتى أنفرد بك!». عندما عاد الهدوء ورجع الجمهور إلى مقاعدهم بعدما فرغوا من التصفيق للمسافرين، ألقى الدوق كلمة أمام الحشد، قال فيها:

- «أيها السادة، لن أُطيل على حضراتكم. فقط أودُّ إخباركم بالأشياء غير المتوقعة التي قالها البروفيسور (سمرلي)، المتحدث باسم اللجنة؛ إن الشائعات المنتشرة لا تخلو من الصحة، لقد تُوِّجَت رحلة هؤلاء الرفاق بنجاح غير عادي». (تصفيق)

«يبدو أن عصر الرومانسية لم يمُت بعد، لا تزال هناك أرض خصبة تُلبِّي أعنف تخيلات رواة التحقيقات العلمية الباحثين عن الحقيقة.

إنني فرح -كلنا كذلك- لأن هؤلاء السادة عادوا سالِمين من مهمتهم الصعبة والخطيرة، لا يمكنني الإنكار أنه لو حدثت كارثة لهذه الحملة لألحقت خسارة لا يمكن تعويضها تقريبًا لعلم الحيوان». (تصفيق حار، انخرط فيه البروفيسور تشالنچر) مثل صعود البروفيسور (سمرلي) إشارة إلى تفشي حماس غير عادي، لازم الحضور على فترات طوال خطابه.

«لن أُدوِّن هنا كل المعلومات التي قِيلت عن البعثة، ذاك لأن هناك ملحقًا يضم مغامرات البعثة بأكملها مكتوب بقلم مراسلنا الخاص؛ لذا ستفي بعض المعلومات العامة بالغرض. تحدث البروفيسور (سمرلي) عن بداية رحلتهم، وأشاد بصديقه البروفيسور (تشالنچر)، كما قدَّم له اعتذارًا عن الشك الذي قابل به حكايته لأول مرة، اطلعنا على المسار الفعلي لرحلتهم، وحجب بعناية المعلومات التي من شأنها مساعدة الجمهور في تحديد موقع هذه الهضبة الرائعة.

وصف بشكل عام خالٍ من التفاصيل مسارهم من النهر الرئيسي حتى الوقت الذي وصلوا فيه إلى قاعدة المنحدرات، فُتن مُسْتَمِعُوه بحديثه عن الصعوبات التي واجهتها البعثة في محاولاتهم المستميتة لإكمال رحلتهم، في النهاية أخبرنا كيف نجحوا في مساعيهم اليائسة، بمساعدة معاونيهم المخلصين». (كانت طريقة عرض القضية المذهلة هذه نتاج مجهودات سمرلي لتجنب إثارة أي مسألة مشكوك فيها في أثناء الاجتماع).

بعد فصْلِهم عن مؤنهم ومساعديهم نتيجة سقوط الجسر الذي أقاموه، شرع البروفيسور في وَصْف كُلٍّ من أهوال وعوامل جَذْب هذه الأرض الرائعة على حَدٍّ سواء. ذكر أقل القليل عن المغامرات الشخصية، لكنه أسهب في وصف الحصاد الرائع الذي جناه العلم من ملاحظة الوحوش والطيور والحشرات، والحياة النباتية على الهضبة.

أخبرنا بأنه رأى هو ورفاقه ما لا يقل عن اثني عشر مخلوقًا، معظمها عن بُعْد، بالطبع هذه المخلوقات بعيدة كل البُعْد عن أي تصنيف علمي معروف. من المرجح أن تُصنَّف في الوقت المناسب طبقًا لأصولها.

ذكر ثعابين البحر، أرجوانية اللون، التي يبلغ طولها خمسين قَدَمًا، تغنَّى بعدة أنواع من الفراشات زاهية الألوان، بهية الطلة، التي ظنَّ الهنود أنها سامة رغم أشكالها الباهرة. كانت الهضبة زاخرة بمخلوقات ما قبل التاريخ المعروف منها وغير المعروف، يعود تاريخ معظمها إلى العصور الجوراسية المبكرة. من بين هؤلاء ذكر الستيجوصورس العملاق بشع الخلقة، الذي رآه السيد (مالون) ذات مرة بجوار البحيرة، ورسمه الأمريكي المغامر الذي وصل إلى هذا العالم المجهول لأول مرة في كتابه. أخبرنا أيضًا عن الإغوانودون والزاحف المجنح؛ اثنان من أولى العجائب التي واجهتهم.

أثار حماس الجمعية والجمهور عن طريق بعض الروايات التي تحدثت عن الديناصورات آكلة اللحوم الرهيبة، التي تعقبت أعضاء البعثة في أكثر من مناسبة، كما أنها تُعدُّ الأعظم من بين جميع المخلوقات التي واجهوها.

ثم انتقل إلى الطائر الضخم والشرس، المسمى فوروراخوس، والأيائل العظيمة التي ما زالت تتجول في هذه المرتفعات. بلغ حماس الجمهور أشده لما أخبرهم عن أسرار البحيرة الوسطى، وما تحتويه من زواحف سمكية، وحوش ثلاثية العيون، وثعابين تسكن صفحة الماء الساحرة هذه.

ربما ينبغي على المرء أن يقرص نفسه للتأكد من كونه مستيقظًا. بعد هذا تطرق إلى الهنود، المستعمرة الاستثنائية لرجال الغاب، والتي يُنظر إليها كأنها إحدى صور بيثيكانثروبوس التطورية؛ لذا فهي أقرب المخلوقات شكلًا للبشر. الحلقة المفقودة كما قال عنها. وأخيرًا، وصف ببهجة شديدة محاولة الطيران البارعة لكن الخطيرة التي قام بها البروفيسور (تشالنجر). أنهى حديثي بخطاب لا يُنسى سَرَدَ خلاله الأساليب التي وجدت بها اللجنة طريق العودة إلى الحضارة.

كان مِن المفترَض أن تنتهي الإجراءات عند هذا الحدِّ، خاصةً بعد فروغ اللجنة من التصويت وشُكْر البعثة، لكن سرعان ما اتخذت الأحداث مسارًا أقل سلاسةً. كانت هناك معارضة واضحة من وقتٍ لآخر خلال الأمسية. قام الدكتور (جيمس إيلينجورث)، الآتي من إدنبرة، من على مقعده في وسط القاعة. سأل (إيلينجورث) رئيس المعهد عن إمكانية وجود تعديل قبل أخذ القرار. قال رئيس المعهد:

- حسنًا يا سيدي، لو وُجِد تعديل لاتخذناه من فَوْرِنا.

- نعم، هنالك تعديل.

قال رئيس المعهد:

- إذن، أخبرنا به حتى يتسنى لنا التفكير فيه.

وقف البروفيسور (سمرلي) على قدميه وقال:

- هل يمكنني شرح نقطة ما، فخامتك أن هذا الرجل عدو شخصي، منذ نشرت مجلة (العلوم) جدالنا المتعلق بطبيعة الثيبيوس.

قال رئيس المعهد:

- أخشى أن الخلافات الشخصية لا تعنيني. تابع كلامك يا دكتور.

تحدث الدكتور (إيلينجورث) بشكل مجتزئ عن ملاحظاته التي قادته إلى معارضة الأصدقاء المستكشفين. بُذلت العديد من المحاولات لإرجاعه إلى مقعده.

لكن نظرًا لكونه رجلًا ذا لياقة بدنية هائلة، ويمتلك صوتًا قويًّا جدًّا، تغلَّب على هذه المحاولات، ونجح في إنهاء خطابه. أمسى واضحًا منذ لحظة وقوفه، أن لديه عددًا من الأصدقاء والمتعاطفين في القاعة، مع أنهم شكَّلوا النذر اليسير من الجمهور، فلا يمكن وصْف موقف الجزء الأكبر منه إلا بالحياد.

بدأ (إيلينجورث) حديثه مُعربًا عن تقديره لأعمال كل من البروفيسور (تشالنچر) والبروفيسور (سمرلي) العلمية. أمكن لأيِّ شخص رؤية التحيُّز في كلماته، وهو ما أَمْلَته عليه طبيعته التواقة للحقيقة العلمية. بلغة أخرى يمكننا قول منصبه، الذي حصل عليه البروفيسور (سمرلي) في الاجتماع الأخير.

في ذات الاجتماع، عرض البروفيسور (تشالنچر) بعض الحقائق التي استفسر عنها زميله. الآن وقف هذا الزميل بنفسه مؤيدًا شكوك (إيلينجورث). هل يُعَدُّ هذا فعلًا معقولًا؟

قبل عام، قال رجل واحد أشياء مُبْهَمَة. الآن ردَّدَها أربعة رجال آخرون مُخبرين عن المزيد من الأشياء المذهلة. هل يُعَدُّ هذا دليلًا نهائيًّا؟

أين اختفت هذه الأمور المبهمة التي لا تُصدَّق طوال هذا الوقت؟ هناك أمثلة حديثة للمسافرين العائدين من المجهول حاملين بعض الحكايات التي كانت مقبولةً بسهولة. هل أصبح معهد لندن لعلم الحيوان قبلة هؤلاء؟ اعترف بأن أعضاء هذه البعثة رجالٌ ذوو شخصية معروفة ومرموقة. لكن الطبيعة البشرية مُعقَّدة للغاية.

حتى العلماء يمكن تضليلهم برغباتهم. إننا مثل العث، جميعنا نحب الرفرفة في الضوء. كل عضو في هذه البعثة لديه دافِعُه الخاص لتحقيق أقصى استفادة من نتائجها. (عار! عار!) لا أريد أن أكون مسيئًا. (أنت كذلك!).

إن هذه الحكايات العجيبة ضعيفة الوصف. إلى أين يقودُنا هذا؟ فقط بعض الصور الفوتوغرافية. (هل من الممكن قبول صور جرى التلاعب بها ببراعة كونها دليلًا في هذا العصر؟) هل هناك ما هو أكثر؟ لدينا قصة رحلة، تسلق جبال صعودًا ونزولًا وهو ما حال دون وجود عينات. قصة بارعة، لكنها غير مُقْنِعة. من المفهوم أن اللورد (چون روكستون) ادَّعى أن لديه جمجمة (فوروراخوس). أنا راغب في رؤية هذه الجمجمة. قال اللورد (چون روكستون):

- هل ينعتني هذا الرجل بالكذب؟

قال رئيس المعهد:

- هل ترغب في إضافة شيء آخر يا دكتور؟

- سيادتك، لديَّ المزيد لأقوله، لكنني أنحني لحكمتك. أقترح أن نشْكُر البروفيسور (سمرلي) على خطابه المثير للاهتمام، لكن تبقى المسألة برمتها (غير مثبتة)، وستعرض مرة أخرى على لجنة أكبر وأكثر ثِقَةً.

من الصعب وصف الارتباك الناجم عن هذه الأقوال. عبَّر جزءٌ كبير من الجمهور عن سخطهم على هذا الافتراء الواقع على المسافرين من خلال الصخب والصرخات المعارضة، «لا تقبلها!». «انسحب!». «اخرج!».

اندلعت مشاجرة في المقاعد الخلفية، وتبادل طلابُ الطب الجالسون هناك الضربات واللكمات بِحُرِّية. ولولا وجود بعض السيدات لساد في المكان شغب كامل. ثم هَدَأَ كُلُّ شيء فجأة، وغرق المكان في صمت تام. وقف البروفيسور (تشالنجر) على قدميه. مظهره وأسلوبه يُثيران الاهتمام بشكل خاص، رفع يَدَهُ، فاستقرَّ الجمهور بأكمله في أماكنهم مُستمِعين. قال البروفيسور:

- إن هذه المشاهد الحمقاء وغير المهذبة تذكرني بما حدث في الاجتماع الأخير. وقتها كان البروفيسور (سمرلي) محور الأحداث، وعلى الرغم من أنه الآن معاقب فإنني لا أقدر على نسيان المسألة تمامًا.

لقد سمعتُ الليلة مشاعرَ مماثلة، ولكنها مُسيئة أكثر، قالها الشخص الذي جلس للتو، وعلى الرغم من أنني لن أهبط بمستواي إلى المستوى العقلي لذلك الشخص فإنني سأسعى جاهدًا للردِّ عليه، حتى أضع حدًّا لأي شك موجود. (ساد ضحك في المكان) لستُ بحاجة إلى تذكير هذا الجمهور بأن البروفيسور (سمرلي) بصفته رئيس لجنة التحقيق، والمتحدث باسمها، ما زلت أنا المحرك الرئيسي الحقيقي للأحداث، وعليه فيجب أن يُنسب أي شك أو فضل لي، لقد قدتُ هؤلاء السادة بأمان إلى المكان المذكور، وأقنعتهم، كما سَمِعتم بدقة تصريحاتي السابقة.

كنا نأمل أن نجد لدى عودتنا استقبالنا مختلفًا عن الذي قُوبِلت به سابقًا، لكني تعلمت من تجربتي السابقة، لم آتِ هنا دون أدلة من شأنها إقناع أي رجل عاقل. كما أوضح البروفيسور (سمرلي)، عبث رجال الغاب بكاميراتنا عندما نهبوا معسكرنا، ودمرت معظم أفلامنا (مجددًا تعالى صوت الضحك) بمناسبة رجال الغاب، إن الضحكات والهمهمات التي تصل إلى أذني تُذكِّرني بتجربتي مع هذه المخلوقات المثيرة للاهتمام. (ضحك).

مَع أن أغلب صُورنا قد دُمِّرت، فلا يزال لدينا بعضها، التي تُظهر ظروف الحياة المختلفة على الهضبة. هل تتهموننا بتزوير هذه الصور؟ (قالت أفواه كثيرة: نعم، نعم، وخفتَ الصوت عندما أُخْرِج البعض من القاعة). بالفعل هناك الكثير من الثغرات. ولكن ما الأدلة الأخرى التي لدينا؟ في ظَل ظروف هروبنا، أمسى مستحيلًا بطبيعة الحال إحضار الكثير من الأمتعة، لكننا أنقذنا مجموعات البروفيسور (سمرلي) من الفراشات والخنافس، التي تحتوي على العديد من الأنواع الجديدة. ألا يعد هذا دليلًا؟ (قالت عدة أصوات: لا). مَنْ قال لا؟

قالت مجموعة في صوتٍ واحد تقريبًا:

- وجهة نظرنا يا سيدي أن هذه الأشياء رُبَّما حدثت بالفعل، لكن في مكان غير هضبة ما قبل التاريخ (تعالى صوت التصفيق). قال البروفيسور (تشالنچر):

- يجدر بنا الانحناء لسلطتكم العِلْمية، على كُلٍّ لقد قابلنا الزاحف المجنح وعرفنا عاداته، وعندنا صور له.

قال واحد من مجموعة المعارضين:

- عفوًا يا سيدي لكننا لن نقبل بالصور.

قال البروفيسور (تشالنچر):

- أتقبل برؤية الشيء ذاته؟

- نعم.

- وستتحمل تبعات هذا القرار؟

- بالتأكيد.

- حسنًا، لك ما تقول يا سيدي.

رفع البروفيسور يدَهُ في الهواء، على أثر هذه الإشارة تحرَّك زميلي (مالون)، شاقًّا طريقة إلى الجزء الخلفي من المنصَّة. بعد لحظة عاد برفقة زنجي عملاق، تعاون الاثنان على صندوق كبير مربع، وضعه أمام البروفيسور، عمَّ المكان صمْتٌ عميق. سحب البروفيسور (تشالنچر) الجزء العلوي من الصندوق، الذي ظهر أنه غطاء منزلق. نظر إلى الصندوق، طرقع أصابعه وهو يقول: «تعالَيْ إليَّ أيتها الجميلة».

بعد لحظة، صَدرَ صوت خدش، واهتز الصندوق بعنف، ظهر مخلوق فظيع وبغيض آتيًا مِنَ الداخل. سقط دوق (دورهام) إلى الخلف من الدهشة، وحتى هذا الحدث لم يلفت انتباه الجمهور تجاه هذا الشيء. بَدَا وجه المخلوق مثل المانتيكور الذي زين أغلب قلاع القرون الوسطى. يا لَهُ مِنْ وجه خبيث وفظيع، لديه عيون حمراء صغيرة، تُشعانِ مثل قطع الفحم.

فمه الطويل نصف مفتوح، ممتلئ بصف مزدوج من الأسنان الشبيهة بأسنان أسماك القرش. سادَ اضطراب في الجمهور؛ صرخ شخص ما، سقطت سيدتان من الصف الأمامي فاقدتي الوعي، حتى المنصة طالها الاضطراب الذي حَدَث في القاعة.

حرَّك البروفيسور (تشالنچر) يديه محاولًا تهدئة الجمهور، لكن الحركة أثارت قلق المخلوق. فَرَدَ المخلوقُ جناحيه فجأةً ورفرفَ بها في الهواء طائرًا.

أخذ المخلوق الغريبُ يدور في السقف كأنه فراشة عملاقة طولها عشرة أقدام، اصطدم بالثريا واللوحات والجدران، والنافذة نصف المفتوحة، بينما انتشرت في المكان رائحة عفن كثيفة.

دار المخلوق نصف دورة في المكان ثم ارْتطمَ بمنقاره في زجاج النافذة!

صرخ البروفيسور قائلًا:

- النافذة! ليغلق أحدكم النافذة!

لكن تحذيره أتى متأخرًا جدًّا! عاد المخلوق إلى الانقضاض مُصطدمًا بالنافذة حتى عبر نصفه منها مثل فراشة ضخمة داخل شبكة. ظل المخلوق يدفع ويُحرِّك جسده حتى خرج من النافذة وحلَّق مُبتعدًا.

عاد البروفيسور (تشالنجر) إلى كرسيه وَدَفَن وجهه في يديه، في حين تنهَّدَ الجمهور تنهيدة طويلة وعميقة؛ لأن هذه الأحداث وصَلَتْ إلى نهايتها.

إذن -كيف يُمكن للمرء وصْف ما حدث آنذاك- اجتمع الأغلبية المؤيدة والأقلية الرافضة صانعين موجة هائلة من الحماس، تدفَّقوا من الجزء الخلفي للقاعة، صَعِدُوا على المنصة، وحملوا الأبطال الأربعة على الأعناق. «أحسنت يا ماك!». وقف الجميع على أقدامهم يصرخون، يُلوِّحُون، ويُصَفِّقون. أحاط حشدٌ كثيف من الرجال الهاتفين بالمسافرين الأربعة. حملوهم ثانية رغم اعتراضهم وساروا بهم.

بَدَا شارع (ريجيت) كأنه موجة عملاقة من الناس. تدفقوا ببُطء خارجين من الشارع والأبطال الأربعة على أكتافهم، لما خرجوا أخيرًا وجدوا مشهدًا غير عادي. هنالك حشد لا يقل عن مئة ألف شخص ينتظر. امتدت المسيرة من فندق لانجهام إلى سيرك أكسفورد.

في كل مكان ذهبوا إليه كان الهدير يستقبل المغامرين الأربعة كلما ظهروا، محمولين فوق رءوس الناس، مارِّين تحت المصابيح الكهربائية الزاهية. بينما الأصوات تهتف:

- موكب! موكب!

سدَّتِ الحشود الشوارع من شارع ريجنت، بال مول، حتى شارع جيمس. تعطلت حركة المرور المركزية في كل لندن، وأُبْلِغ عن العديد من الاصطدامات بين المتظاهرين من جهة والشرطة وسيارات الأجرة من جهة أخرى.

أخيرًا: بعد منتصف الليل أُخْلِي سبيلُ المغامرين الأربعة عند مدخل غرفة اللورد (چون روكستون)، غادرت الحشود وهي تتغنَّى: «إنهم زملاء جيدون». أختتم حديثي قائلًا: «حَفِظَ اللهُ الملك».

وهكذا انتهت واحدة من أبرز الأُمسيات التي شهدتها لندن لفترة طويلة.

حتى الآن يمكن أن أعُدَّ صديقي (ماكدونا) دقيقًا إلى حدٍّ ما. أظن أن الأمور سارت على ما يُرام، فقط الحدث الرئيسي شكَّل مفاجأة للجمهور.

سيتذكر القارئ الهيئة التي قابلتُ اللورد (چون روكستون) عليها عندما رأيته في قفص الخيزران الواقي، لما ذهب لإحضار (فرخ الشيطان) كما قال. لقد ألمحت أيضًا إلى المتاعب التي سببتها لنا أمتعة البروفيسور عندما غادرنا الهضبة، لو وصفت رحلتنا لتحدثتُ عن القلق الكبير الذي اعترانا إثر هذه الأمتعة ورائحتها الكريهة.

كانت رغبة البروفيسور واضحة وصريحة، لن يعطي أعداءه الفرصة ليشككوا فيه. باتَ مصيرُ الزاحف المجنح مجهولًا في لندن.

لم تذكر أي كلمة عنه اللهم إلا في ثلاث حالات تحدثت سيدتان خائفتان عن تحرُّك أحد تماثيل قاعة الملكة! في اليوم التالي، ظهر في الصحف المسائية أن حارسًا مِنْ كولدستريم يُدعَى (برايلز)، هجر موقعه دون إخطار؛ لذا حُوكِمَ، ادَّعى أنه لما نظر إلى أعلى ظهر الشيطان بينه وبين القمر، وهو ما لم تَقْبَلْهُ المحكمة بالطبع.

آخر ما يمكنني تقديمه هو مِن سجلات أحد قاطني الريف، الذي أكَّد أنه في التاسعة من صباح اليوم التالي، على بُعْد عشرة أميال من موضعه، مرق من فوقه شيء أشبه بخفاش هائل الحجم، الذي كان متوجها بوتيرة مذهلة إلى الجنوب والغرب.

تُرَى هل قادته الغريزة إلى الخط الصحيح، ليس هناك شك أنه في مكان ما فوق المحيط الأطلسي الأوربي وجد آخر زاحف مجنح نهايته.

ماذا عن (جلاديس)؟ ألم أفعل كل هذا من أجلها؟

ألم أَرَ طبيعتها الصلبة من قبل؟ ألم أشعر -حتى في الوقت الذي كنت فخورًا فيه بطاعة طلبها- أنه بالتأكيد حُبٌّ ضئيل يمكنه دفع الحبيب إلى وفاته أو وضعه في خطر؟ ألم أتخيل في أفكاري الحقيقية أنني أتقدم وأرفض دائمًا؟ ألم أرَ جمالَ وجهها، وعيني التي تنفذ إلى الروح؟ وخلف كل هذا ألم أرَ أنانيتها؟ هل فعلت؟!

لقد تلقيتُ صَدْمة حياتي. للحظة رأيتُ وجه الحياة الساخر. ولكن مَرَّ أسبوع بالفعل وها أنا ذا أكتب، أجرينا مقابلتنا المهمة مع اللورد (چون روكستون) وحسنًا ربما تكون الأمور أسوأ. دعني أخبرك ما حدث ببضع كلمات؛ لم تصلني أي برقية أو كلمة منها.

أنا الآن في ساوثهامبتون، وصلتُ إلى الفيلا الصغيرة في ستريثام نحو الساعة العاشرة ليلًا. تُرَى هل ماتت أم هي على قيد الحياة؟ أين ذهبت أحلامي الليلية؟ تخيلتها تقابلني بالأذرع المفتوحة، والوجه المبتسم، وكلمات الثناء لرجلها الذي خَاطَرَ بحياته من أجل نزواتها! دلفتُ إلى الحديقة، وصلت إلى الباب، وسمعتُ صوت جلاديس في الداخل، حدقَتِ الخادمة فيَّ قليلًا ثم سمحت لي بالدخول، دلفت إلى غرفة الجلوس. ألفيتها جالسة في مقعد أمام البيانو. في ثلاث خطوات عبر الغرفة ذاهبًا إليها، وضعت يديها على وجهي.

أمسكت يدَها وهتفت:

- جلاديس!

نظرت إليَّ مندهشة، هنالك اضطراب حَدَثَ في وجهها، تُرَى ما سببه؟ سحبت يديها من يدي، وسألتني بفتور:

- ما الذي تريده؟

- ماذا؟ جلاديس، ما الخطب؟ أما زلتِ جلاديس الخاصة بي؟ أليس كذلك؟

- جلاديس هانجرتون الصغيرة؟

- لا، إن اسمي هو السيدة (جلاديس بوتس). دعْني أقدمك لزوجي!

كم هي سخيفة هذه الحياة، وجدتُ نفسي أنحني ميكانيكيًّا، مُسَلِّمًا على رجل قصير ذي شعر بلون الزنجبيل، يجلس على الكرسي الذي كان مخصصًا لي يومًا ما. ابتسمنا لبعضنا ابتسامة مجاملة. قالت:

- لقد سمح لنا أبي بالإقامة هنا حتى ننتهي من إعداد منزلنا.

- آه، نعم.

- ألم تصلك رسالتي في بارا؟

- لا، لم تصلني أي رسالة.

- أوه، يا له من أمر مؤسف! كان مِنْ شأنها توضيح كل شيء.

قلتُ:

- إنه واضح تمامًا.

قالت:

- لقد أخبرت (ويليام) بكل شيء عنك. ليس لدينا أسرار. أنا آسفة جدًّا لما حَدَثَ. لكن لم يكن ممكنًا الانتظار أكثر، أليس كذلك، لقد ذهبت إلى الطرف الآخر من العالم وتركتني هنا وشأني. أنت لستَ حزينًا، أليس كذلك؟!

- لا، لا، على الإطلاق. أظن أنني سأذهب.

قال الرجل الصغير:

- لتبقَ قليلًا، لدينا بعض المرطبات.

عاودتني روح التحدي خاصتي. قلت:

- حسنًا لكن ستجيبني على سؤالي.

- أي شيء؟

- كيف فعلت هذا؟ هل وجدت كنزًا؟ هل اكتشفت قارة أم سبحت عابرًا المحيط؟ أين سحر الرومانسية؟ كيف حصلت عليها؟

نظر إليَّ نظرة غائمة، ولم يجب، قلت:

- فقط سؤال واحد، ما مهنتك؟

قال:

ـ أنا كاتب محامٍ. الرجل الثاني في چونسون وميريفال.

- تُصبِحين على خير. قُلتها وغادرت مِثلي مثل كل الأبطال المكسورين، هناك الكثير من البكاء، الضحك، انفطار القلب.. الظلام يغلون داخلي كأني إناء على الموقد. ما زال في الليلة مشهد صغير آخر.

جلسنا سويًّا في غرف اللورد (چون روكستون)، متحدِّثين عن مغامراتنا. مِن الغريب التحديق في الوجوه المتبدلة الجديدة والشخصيات القديمة المعروفة. (تشالنچر) بابتسامتِه الْمُشرِقة، وجفونِه الْمُتدلاة، وعينيه العصبيتين، ولحيته العدوانية، وصدره الضخم، تبرمه وحنقه الدائم على (سمرلي).

(سمرلي) أيضًا هنا، غليونه يتدلَّى مِنْ فمه بارزًا فوق لحيته الشبيهة بلحية الماعز، وجهه الْمُتعب انخرط في نقاش مُستفسرًا عن مقترحات (تشالنچر). أخيرًا، هناك مضيفنا، بوجهِه القوي، وعينيه النسريتين الباردتين بلونهما الأزرق الشبيه بالأنهار الجليدية، ينبعث منهما وميض مِنَ الشجاعة والفكاهة. هذه هي صورتنا الأخيرة التي سأحملها داخلي دائمًا مهما ابتعدت.

صحيح لقد قررتُ إعادة تسمية بحيرة جلاديس لتعود البحيرة الوسطى. لن أمنحها أبدًا الخلود الذي قدرته لها.

بعد العشاء قال اللورد (چون) بينما يعطينا سيجارًا من علبة أخرجها من الخزانة:

- وددتُ التأكد أولًا قبل إخباركم بأي شيء، كما تتذكرون لقد وجدنا فوهات بركانية بها طين أزرق في مستنقع الزواحف المجنحة. إنني لم أعلم بوجود فوهات مماثلة إلا في كيمبرلي، أمام مدخل أكبر مناجم الماس هناك. لهذا السبب وإن لم أُفْصح عنه ذهبتُ إلى هناك محتميًا بقفص من الخيزران. قمتُ بالحفر هناك، في النهاية استخرجتُ عشرين أو ثلاثين قطعة من هذا الطين الأزرق. بعد عودتنا ذهبت إلى أحد الصاغة المشهورين بالأمانة والإتقان. لقد سَعَّرَ هذه القطع بمئتي ألف، سأوزعها علينا بالسوية؛ خمسون ألفًا لِكُلٍّ مِنَّا، لا، لا اعتراضات، ما الذي ستفعله بهذا المال يا (تشالنچر)؟

قال البروفيسور:

- لطالما حلمتُ بامتلاك متحف خاص بي، أظن أن هذا المال كافٍ.

- وأنت يا (سمرلي)؟

- سأتقاعد، حتى أجد الوقت الكافي لدراسة الأحافير.

قال اللورد (چون):

- أما أنا فسأستخدم خاصتي، لتمويل رحلة استكشافية أخرى، حتى يتسنى لي إلقاء نظرة على الهضبة العزيزة. ماذا عنك أيها الشاب؟ بالطبع ستستخدم حصتك للزواج.

ارتسمت على وجهي ابتسامة فظيعة تعكس الأسى، قلت:

- فيما بعد، أظن لو أنك كنت راغبًا في الحصول عليَّ، فأنا أُفَضِّل الذهاب معك.

لم يقُل اللورد (چون روكستون) شيئًا، فقط مَدَّ يَدَهُ وتصافحْنا.

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

كلمة المترجِم

النهاية دائمًا جُزْء مِن أيِّ رحلة، وفي رأيي أنها الجزء الأهم من الرحلة.. مهما كثرت العقبات والنكبات الأهم هي الطريقة التي تُتوِّج بها المسار.

دائمًا ما تعتريني حالة من الشجن أعجز عن تفسيرها عقب انتهائي من كتابة أو ترجمة أي قصة.

شعور بأنَّ جُزءًا من روحي قد انفصل عني وسَكَنَ هذه الكلمات إلى الأبد بيد أنَّ هذه الأجزاء هي التي تجعلني أعيش في الحقيقة.

إهداء إلى الكلمات التي لم تعجز أبدًا عن فهْم ما يعتمر في داخلي.. إهداء إلى تلك الأجزاء من روحي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش:

(1) نظام المعدنين هو مصطلح اقتصادي للنظام النقدي، تكون فيه قيمة العملة محددة بما يُكافئها من معدنين، وغالبًا ما كانا الذهب والفضة، بحيث يشكلان قيمة تحويل ثابتة. (المترجم).

(2) السير ريتشارد فرانسيس برتون مستكشف، مستشرق، عسكري ومترجم إنجليزي وُلِد في مارس عام ١٨٢١، واشتهر من خلال ترجمته لحكايات ألف ليلة وليلة. (المترجم).

(3) متلازمة منخاوزن: هي متلازمة مَرَضِيَّة تُنسب لـ(بارون)، يحمل ذات الاسم، وفيها يصطنع المريض أعراض المرض اصطناعًا، ويدمن الذهاب إلى المستشفيات ليغطي على كذبه. (المترجم)

(4) Largs هي مدينة تقع على ضفاف نهر كلايد في شمال أيرشاير في إسكتلندا، على بُعد ٣٣ ميلًا من جلاسجو. الاسم الأصلي يعني (المنحدرات). (المترجم)

(5) قانون مسئولية أصحاب العمل (التأمين الإلزامي): هو قانون برلماني في المملكة المتحدة يُلزم فيه أصحاب العمل بتأمين موظفيهم ضد الإصابات الشخصية. (المترجم)

(6) فريدريك ليوبولد أوجست وايزمان: عالم أحياء تطوري ألماني الجنسية، صنفه (إرنست ماير) كثاني حجة مرموقة في علم التطور خلال القرن التاسع عشر بعد تشارلز داروين. (المترجم)

(7) تشارلز روبرت داروين: عالم تاريخ جيولوجي بريطاني الأصل، اكتسب شهرته كونه مؤسسًا لنظرية التطور. (المترجم)

(8) نبات خانق الذئب: يعرف أيضًا باسم خانق الفهد، وخانق المرأة، أو خوذة الشياطين، عادةً ما يوجد في المناطق الجبلية، ويحتوي كمية كبيرة من سُم يُسمَّى (alkaloid pseudaconitine) كان يستخدمه شعب الأينو في اليابان للصيد بوضعه على أطراف الأسهم. (المترجم)

(9) القُباع أو الخنخنة هو الاسم الذي يُطلق على صوت الخنزير. (المترجم)

(10) البلازما الجرثومية: مفهوم بيولوجي طوره عالم الأحياء الألماني (وايزمان) في القرن التاسع عشر، وينصُّ على أن المعلومات الوراثية تنتقل فقط بواسطة الخلايا الجرثومية التي تستوطن الغُدد التناسلية، ولا دور للخلايا الجسدية مثل البويضات في هذه العملية. (المترجم)

(11) اختصار لـ (جورج إدوارد تشالنجر). (المترجم)

(12) Regius professor الأستاذ الملكِيّ؛ أستاذ جامعي يشغل أحد الكراسي الملكية. (المترجم)

(13) روزاريو: هي أكبر مدن محافظة سانتا في الأرجنتين. (المترجم)

(14) خروف البحر: حيوان ثديي مائي كبير الحجم، ويشار إليه أحيانًا باسم بقرة البحر، ينتمي لمجموعة ثدييات تعرف بالخيلاني، ومنه خروف البحر الأمازوني عديم الأظافر. (المترجم)

(15) الأغوطي الأسود: حيوان صغير الحجم يبلغ وزنه ٣. ٥ كيلوجرام عُثِرَ عليه لأول مرة شمال غرب الأمازون. (المترجم)

(16) محطة مترو أنفاق في لندن. (المترجم)

(17) السير (راي لانكستر) هو عالم حيوان بريطاني الأصل. (المترجم)

(18) كلمة يونانية تعني العظاءة آكلة النباتات؛ وهو ديناصور عاش منذ نحو ١٤٥ إلى ١٥٥ مليون سنة في أمريكا الشمالية خلال العصر الچوراسي. (المترجم)

(19) التابير فصيلة من الحيوانات تُعرف علميًّا باسم السناديات، تتبع رتبة مفردات الأصابع الثديية، منها التابير البرازيلي الذي يشبه الخنزير كثيرًا لكنه ذو صلة بالفرس والكركدن. (المترجم)

(20) الديمورفودون هو جنس من البتروصورات متوسط الحجم، من المرجح أنه عاش خلال العصر الجوراسي المبكر، عثر على أول حفرية تخصه عام ١٨٢٨ في بريطانيا. (المترجم)

(21) كريستوفر كولومبوس: رحالة إيطالي، ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أمريكا). وُلِد في مدينة جنوة في إيطاليا، ودرس الرياضيات والعلوم الطبيعية -وربما الفلك أيضًا- في جامعة بافيا. عبَر المحيط الأطلسي، ووصل إلى الجزر الكاريبية في ١٢ أكتوبر ١٤٩٢م لكن اكتشافه لأرض القارة الأمريكية الشمالية كان في رحلته الثانية عام ١٤٩٨م. (المترجم)

(22) مصطلح القارة الجرانيتية يدل على أن هذه القارة أو المكان شَهِد العديد من النشاطات البركانية التي أدَّت في الغالب لتكوين أغلب أجزائه، حيث إن الجرانيت صخر ناري يظن العلماء أنه ينشأ نتيجة التبريد التدريجي لمواد جوف الأرض. (المترجم)

(23) مقاطعة ساسكس: هي مقاطعة تقع في الجنوب الشرقي لإنجلترا تبلغ مساحتها ٣٧٨٣ كيلومتر مربع. (المترجم)

(24) كاتب بريطاني عُرف بكتاباته للرحلات الغريبة الأسطورية، ومن أشهر أعماله كتاب تحت عنوان (رحلات السير جون ماندفيل). (المترجم)

(25) الماستودون أو الصناجة: هو حيوان ضخم الجثة يُشبه الفيل، ولكن له جلد وفروة، عاش في أمريكا الشمالية والوسطى. ويُقدِّر العلماء أنه ظهر في أواخر العصر الميوسيني. (المترجم)

(26) حيَّة البحر أو تنين البحر: نوع من الوحوش البحرية شبه الأسطورية يُشبه الأفعوان، هناك العديد من المشاهدات والمزاعم على وجوده لكن أيها لم يُوثَّق. (المترجم)

(27) يزعم بعض علماء التطور أن أصل المخلوقات كلها واحد وهو عبارة عن خلية جرثومية أُحادِية الخلية وُجدت لما كان الكوكب قيد الإنشاء، كانت هذه الخلية تسبح في بحيرات من الأسيد ومختلف المكونات الكميائية المتدفقة من باطن الأرض، تعرف علميًّا بالحساء، وتتعرض لصواعق البرق مما أكسبها في النهاية نضوجها وتحولها إلى خلية متعددة لم تلبث أن تحوَّلت إلى كائن عاقل. فيما بعد حاول عالمان (يوري- ميلر) صنع محاكاة للتجربة في المختبر. (المترجم)

(28) يُقصد هنا عملية الحمل والإنجاب؛ حيث يخرج الأطفال من رحم الأم أحياء على عكس المخلوقات الأخرى التي يلزم لصغارها فترة حضانة داخل بيضه، ومن ثم يخرجون للحياة. (المترجم)

(29) إن السلف المباشر أو الخلية الأم نظرية علمية تقول: إن أصل الكائنات الحية جميعًا خلية صغيرة حدث لها مليارات التحورات، وكل تحور أتى بجنس مِن الأجناس المعمرة على الأرض. (المترجم)

(30) مدينة تقع في شرق مقاطعة ساسكس بإنجلترا، تضم منطقة تُعرف باسم (ويلد)، وهي الغابة الوحيدة المتبقية التي لم يُمس شجرها أو يكسر ذات يوم. (المترجم)

(31) عبارة عن أحجار يعود تاريخها للعصر الجوراسي الأول، كما تُعرف بالحجر الجيري، بداخل هذه الأحجار، حُفظت مجموعة هائلة من آثار وبصمات الكائنات التي سادت في هذه الحقبة ومنها الديناصورات بمختلف أنواعها. (المترجم)

(32) نظرية بيكونيان: نظرية تهتم بأعمال شكسبير؛ حيث تقول: إن السير فرانسيس بيكون الفيلسوف وكاتب المقالات والعالم هو من كتب المسرحيات التي نُسِبت علنًا لشكسبير. (المترجم)

(33) نهر أورينوكو وهو واحد من أطول أنهار قارة أمريكا الجنوبية؛ حيث يبلغ طوله قرابة ٢١٤٠ كم ويغطي ما يقارب ٨٨٠,٠٠٠ كم يقع ٧٦. ٣٪ في داخل أراضي فنزويلا والباقي في كولومبيا. تقع منابع النهر في فنزويلا الجنوبية بالقرب من حدود البرازيل، ويصب النهر في المحيط الأطلسي. (المترجم)

(34) المدراس أو الهراوة: عبارة عن آلة زراعية اعتاد الناس قديمًا استخدامها في الزراعة، وهناك من استخدمها سلاحًا. (المترجم).

(35) المغدفة: هي مكان توالد ومكوث الغربان، قديمًا كانت تستخدم هذه الأماكن لإرسال واستقبال الرسائل عن طريق الغربان. (المترجم)

(36) چان هنري فراجونارد: رسام فرنسي وفنان من فناني الروكوكو، ولد عام ١٧٣٢، يتميز فنه بالغزارة وكثرة التعري في موضوعاته. من أشهر أعماله (القارئة الحسناء). (المترجم)

(37) يوچين چيراريديت: واحد من أعضاء المقاومة الفرنسية وفنان ذائع الصيت، ومؤرخ. (المترجم)

(38) تُعدُّ جملة (Leander man) واحدة من الأمثال الشعبية الإنجليزية التي تتحدث عن شاب مغامر خاضَ في البحر ليذهب لحبيبته لكنه غرق في واحدة من هذه الزيارات، وعامةً يطلق اللقب على كل من يجيد السباحة. (المترجم)

(39) نوع من أنواع ديكورات الحوائط فيها يُفصل الحائط بواسطة نتوء أو خط بارز ثم يدهن الحائط فوق هذا الخط بلون وأسفله بلون مغاير. (المترجم)

(40) لادو إنكليف: منطقة منعزلة تقع قريبًا من دولة الكونغو، تحديدًا على الضفة الغربية لأعالي النيل؛ وهي ما تُعرف الآن بجنوب السودان وغرب أوغندا، وقد كانت مكانًا لصيد وحيد القرن. (المترجم)

(41) الأرْغُن: آلة موسيقية تتألف من عدة مفاتيح متصلة بمجموعة من الأنابيب أو الوسائل الأخرى التي من شأنها إنتاج النغمات الموسيقية، منها الأرغن ذو الأنابيب الذي عرف قديمًا بملك الآلات، وما زال يستخدم حتى اليوم خاصة في الكنائس. (المترجم)

(42) كناية عن رَدِّ الفعل السريع. (المترجم)

(43) ماناوس: هي عاصمة ولاية الأمازون الواقعة شمال البرازيل، فيما سبق كانت تُعرف باسم (لوجار دي بارا دو ريو نيجرو) أو بارا اختصارًا. تقع عند ملتقى نهري (ريو نيجرو) و(سوليموس). (المترجم)

(44) تُعَدُّ أشجار المطاط من أهم مصادر المطاط المستخدمة في الصناعة؛ وذلك لتفوقها على المطاط الصناعي في الشدة ومقاومة الانثناء، وتحمل الحرارة العالية. من أهم هذه الأشجار شجرة (الهيفيا) التي تنمو في حوض الأمازون. (المترجم)

(45) دير أو كنيسة وستمنستر: عبارة عن دير هائل الحجم بُني في لندن على طراز العمارة القوطية، وهو يقع غرب قصر المدينة المسمى بذات اسمها، في هذا الدير كان يُتويج ملوج إنجلترا وفيه أيضًا يُدفنون، كما أنه استخدم ككاتدرائية لفترة. (المترجم)

(46) سجن ميلبنك واحد من سجون المملكة المتحدة القديمة، يقع في مدينة ويستمينستر. شُيِّد باعتباره السجن الوطني، وكان بمنزلة مرفق لاحتجاز السجناء حتى موعد نقلهم إلى أستراليا، لكنه دُمر. (المترجم)

(47) الأرُزّ جنس من الأشجار دائمة الخضرة من الفصيلة الصنوبرية، سريعة النمو، يتراوح طولها ما بين ٣٠ و٤٥ مترًا. ينمو الأرز في جبال الهيمالايا الغربية والجبال حول البحر المتوسط على ارتفاع ١٥٠٠ إلى ٣٢٠٠ متر في الهملايا وارتفاع ١٠٠٠ إلى ٢٢٠٠ متر حول المتوسط. (المترجم)

(48) يعرف شجر الخشب الأحمر أيضًا بشجر الماموث أو شجر كاليفورنيا الأحمر، وهو نبات من الفصيلة السروية. هي أكبر الأشجار في العالم من حيث الحجم الإجمالي، وتُعَدُّ أضخم الكائنات في العالم وأطول الأشجار عمرًا، حيث يزيد ارتفاع بعضها عن ٨٨م، ويُقدَّر قطر بعضها بأكثر من تسعة أمتار. (المترجم)

(49) نبات السحلب أو الأوركيد وهو نبات من طائفة أُحادِيات الفلقة ينتج زهرة هي من أجمل الزهور وأقدمها من حيث الوجود تعيش من ٧ أيام إلى ١٤ يومًا. (المترجم)

(50) الأشنة: عبارة عن كائنات تعايشية تتكون من اندماج الطحالب الخضراء المجهرية مع الجراثيم الزرقاء. (المترجم)

(51) جنس من النباتات المُعمرة التي تنمو بكثرة في الأمريكتين من المكسيك حتى الأرجنتين، أزهارها تشبه زهر الياسمين لكنها ذهبية اللون. (المترجم)

(52) نبات مُفلطح الأوراق زاهي الألوان يُعرف بزهرة الآلام. (المترجم)

(53) نبات استوائي شبه مائي. (المترجم)

(54) عُشبة برية ذات فوائد طبية، يُعدُّ جنسها من كاسيات البذور، وشكلها يشبه وُريقات النعناع. (المترجم).

(55) آكل النمل: جنس من الحيوانات من رتبة الثدييات، يتغذى على النمل الأبيض بوجه خاص. (المترجم)

(56) غاوتشو هو مصطلح يستخدم عادةً لوصف سكان أمريكا الجنوبية. (المترجم)

(57) عُرفت هذه النخلة باسم (إيواساي)، وحوَّرها الأوربيون إلى (الآساي)، تُزرع من أجل خصائصها العلاجية. (المترجم)

(58) التابير البرازيلي أو تابير الأراضي الواطئة واحد من الأنواع الخمسة لحيوان التابير الذي يُعدُّ ثاني أكبر الثدييات البرية في أمريكا الجنوبية. (المترجم)

(59) جهاز يُستخدم لقياس الضغط. (المترجم)

(60) نباتات تُشبه القمع، تتميز بألوانها الزاهية ويكثر وجودها في أمريكا الاستوائية. (المترجم)

(61) نوع نادر من أزهار الأوركيد، يَعُدُّها البعض أجمل أزهار السلالة سابقة الذكر، ومع ذلك فهي أصعب أنواعها نموًّا. (المترجم)

(62) إحدى المنحدرات الموجودة في إسكتلندا. (المترجم)

(63) المنيهوت أو الكاسافا عبارة عن شُجيرة خشبية موطنها الأصلي أمريكا الجنوبية، تُعَدُّ ثالث أكبر مصدر للكربوهيدرات. (المترجم)

(64) الأصلة: فصيلة من الثعابين العاصرة المنتشرة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، يتراوح طولها ما بين ١. ٥ متر إلى ٥. ٥ متر، وتمتاز بقدرتها على تسلق الأشجار ورغم وزنها الضخم فإنها تلد أطفالها دون أن تضع بيضًا. يَعُدُّ العلماء هذا النوع أقل تطورًا أو بدائيًّا أكثر من الأنواع الأخرى. (المترجم)

(65) القلم الستايلوجرافي: يُعرف أيضًا بقلم الحبر السائل، وهو نوع من أدوات الكتابة تُشبه مقدمته شكل ريشة الكتابة، ويُعَدُّ أول تطوير منها. (المترجم)

(66) زهرة كرمة العاطفة، أو زهرة الساعة جنس يتكون من ٥٠٠ نوع، أغلبها عبارة عن شُجيرة مُتسلقة، وقليل منها عشبي. (المترجم)

(67) جِنس من النباتات واسعة الانتشار، تصل أنواعه إلى ١٥٠٠ نوع؛ لذا يُعَدّ أكبر أجناس النباتات المزهرة. (المترجم)

(68) بوبليوس ورجيليوس مارو، أو فرجيل شاعر روماني يُنسب إليه تأليف الإنيادة التي يعدُّها أغلب الرومان قصيدة وطنية طويلة. (المترجم)

(69) الهاربي: وحش أسطوري مجنح مصدره الأساطير الإغريقية، يُقال: إن نصفه يعود لامرأة والنصف الآخر لطائر، وقد أرسلته الآلهة كعقاب لمضايقة فينوس الأعمى، فمتى وضعت طعامًا أمامك هبطوا من السماء وخطفوه. (المترجم)

(70) الجاراكا كلاروبس: هي نوع من أفاعي الحفر السامة، تستوطن أمريكا الجنوبية. (المترجم)

(71) في إشارة لنفسه، حيث إن الحروف اختصار لـ(چورچ إدوارد تشالنچر). (المترجم)

(72) نوع من المشروبات الروحية. (المترجم)

(73) نوع من النباتات المزهرة كالقصب، موطنها الأصلي جنوب أفريقيا. (المترجم)

(74) ترتيلة كنسية بمعنى: أطلق عبدك السلام. (المترجم)

(75) نوع من الديناصورات طيرية الورك، عاشت خلال فترة وسطية من العصر الجوراسي، لها منقار كمنقار البط، كما أنها سريعة الحركة. (المترجم)

(76) دانتي أليغييري، شاعر وأديب إيطالي، ألَّف ثلاثة أعمال خالدة تحت اسم (الكوميديا الإلهية)، يُعَدُّ (الجحيم) واحدًا من هذه الثلاثية، وهو كما يرى (دانتي) يتكون من سبع قطائع أو سبعة جحائم. (المترجم)

(77) الألوصور: جنس من ديناصورات آكلة اللحوم، ومنتصبة الساقين. عاشت في العصر الجوراسي، قبل ١٥٥ إلى ١٤٥ مليون سنة. (المترجم)

(78) الميغالوصور: جنس من الديناصورات الثيروبودية اللاحمة الكبيرة، يَنتمي إلى مجموعة الميغالوصوريات، وعاشَ خلال الفترة الباثونية من العصر الجوراسي الوسيط في أوربا بإسبانيا وفرنسا وجنوب إنجلترا. تكمن أهمية الميغالوصور في أنه أول جنس مِن الديناصورات يُوصف ويُسمَّى علميًّا. (المترجم)

(79) القوى البلوتونية: يُقصد بها قوى جوف الأرض، وترجع تسميتها بهذا الاسم إلى بلوتو إله باطن الأرض عند الإغريق. (المترجم)

(80) يُقصد بالوحوش اللاحمة الحيوانات المفترسة. (المترجم)

(81) ٨١- نوع من القرود يُعَدُّ الأكثر ذكاءً وتقدُّمًا من سائر أقرانه، يُصنفه العلماء إلى ثلاثة أنواع أساسية، القرود البدائية، قرود العالم القديم، وقرود العالم الجديد، وبحسب بعض العلماء والحفريات فإن البشر يُنسبون إلى هذا النوع الأخير وفق نظرية التطور. (المترجم)

(82) آلة موسيقية، عبارة عن قرصين من النحاس يصدر عنهما إيقاع هابط وصاعد. (المترجم)

(83) إنسان جاوة: مُصطلح لاتيني يعني الإنسان القرد المستقيم، اكتشفه العالم (أوجين دوبويس) على ضِفاف نهر سولو، وتُعدُّ هذه العينة هي أول العينات للإنسان المنتصب. (المترجم)

(84) جنس من القردة العليا المنقرضة. (المترجم)

(85) البليسيوصورس: جنس من الزواحف العظيمة الزعنفية، عاشت إبان العصر الجوراسي الأول، وقد عثر على هياكل كاملة لها. يمكن تمييزه برأسه الصغير ورقبته الطويلة الرفيعة وجسمه العريض الذي يُشبه السلاحف والذيل القصير. (المترجم)

(86) كلمة يُراد بها الشيطان. (المترجم)

(87) حزقيال: نبي مبجَّل في اليهودية والمسيحية. وهو كاتب سفر حزقيال في الكتاب المقدس، وسفره عبارة عن تنبؤات بخصوص سقوط القدس بيد البابليين وسقوط الأمم المجاورة وأيضًا بخصوص عودة اليهود إلى القدس وإعادة بنائهم للهيكل، وتكلم أيضًا عن المسيح وقد عاش ما بين سنتي ٦٢٢ ق م و ٥٧٠ ق م. (المترجم)

(88) يُعرف البيتومين بالفحم القاري أو الأسفلتي، وهو نوع من الفحم اللين الذي يحتوي على مادة شبيهة بالقار، ويدخل في تكوينه بعض الأشجار. (المترجم)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــاة

متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس..

الفصل الأول
هنالك بطولات في كل مكان حولنا
الفصل الثاني
اختبر حظَّك مع البروفيسور (تشالنجر)
الفصل الثالث
إنه رجل مستحيل حقاً
الفصل الرابع
إنه فقط أضخم شيء في العالم!
الفصل الخامس
سؤال!
الفصل السادس
عندما كنتُ مدراس الرب (34)
الفصل السابع
غداً نتلاشى في المجهول
الفصل الثامن
الحواف البعيدة للعالم الجديد
الفصل التاسع
مَنْ يُمكنه التنبؤ بهذا؟
الفصل العاشر
لقد حدثت أغرب الأشياء
الفصل الحادي عشر
لمرَّةٍ كنتُ البطل
الفصل الثاني عشر
أمسى الوضع مريعًا في الغابة
الفصل الثالث عشر
مشهد لن أنساه أبداً
الفصل الرابع عشر
هذه هي الفتوحات الحقيقية
الفصل الخامس عشر
لقد شهدت أعيننا عجائب عظيمة
الفصل السادس عشر
موكب! موكب!

كلمة المترجم

الهوامش: